
الطبعة الخامسة
نور عبد المجيد
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks
أنا الخائن
الحكاية الثانية
رواية
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks
الدار المصرية اللبنانية

أنا الخائن
حكاية لا يعرفها أحد

الحكاية الثانية

عبد المجيد، نور .
أنا الخائن /نور عبد المجيد .-ط5.- القاهرة :
الدار المصرية اللبنانية ، 2013.
480 ص ؛ 20 سم.
تدمك : 7 - 788 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان . 813
رقم الإيداع : 2012/ 21392
©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1434هـ - يناير 2013م

أنا الخائن

الحكاية الثانية

الدار المصرية اللبنانية

نور عبد المجيد

تنويه هام

أي تشابه في أسماء الأشخاص أو الشركات أو المنتجات الطبية هو محض صدفة لا أكثر.. ولهذا وجب التنويه!!

إهداء (1)

إلى «شهد» أيامي وسكرِّها:
العمر حبيبتي أقصر من المقامرة.. في الحب والسعادة لا مناطق وسطى
إما نبقى أو ننسحب!!

إهداء (2)

إلى «دعاء» أراه بفضل الله تحقق..
إلى حبيبة عاهدتني أن يبقى الحب بيننا
وإن «نفخت فيه من روحها»..
إلى «دعاء سليمان»
هل تراه حقًّا يبقى!!!

أحتاج امرأة..

قد يكون من المحتمل أن تكون النساء حقًّا سببًا في كل الحرائق الكبيرة.. لكن من المؤكد أن هذه الحرائق لا تطفئها إلا امرأة، وإن أشعلها رجل بأصابعه.

نعم.. ليس كل من أشعل الحرائق يطفيها.. أكذوبة كبرى أن نصدق كلمات نزار تلك.. من يشعلون الحرائق يركضون هربًا وذعرًا بحثًا عمن يطفئها..

أنا أشعلت حريقًا كبيرًا في أيامي وفي قلب امرأتي الوحيدة، وبعد أن أتت النار على كل ما كان عندي، أدركت أن من يطفئ ألسنة اللهب المشتعلة ليس أنا.. ليس أبدًا رجلًا..

من بإمكانه أن يطفئ ما يمكن إطفاؤه يجب أن يكون امرأة.. النساء وحدهن يعلمن خفايا النساء ومفاتيح عقولهن وقلوبهن..

الرجل قد يولد ويموت، وهو لا يعلم عن هذه الخبايا شيئًا..

لو كانت أمي على قيد الحياة.. لو علمني أبي يومًا كيف يكون في عائلتنا صديقة أو أنيسة، أو حتى ترك لنا خادمة عجوزًا كتلك التي نراها على شاشات الأفلام القديمة، لربما ما لجأت إليك.

في حياتي وقلبي وعروقي أسكنت امرأة ثم أشعلت في ثوبها نارًا لا تنطفئ..

النار أحرقتني.. فحمَّتني.. النار سيدتي مازالت تلوكني قطعة قطعة، لكن ما عاد كل هذا يهمني..

أريد إنقاذ امرأة خطيئتها أنها أحبتني.. أريد إنقاذ بقايا أم منحتني قلبًا وعمرًا، منحتني وفاء وجسدًا وطفلًا.. لا أشهى منهم على سطح الخليقة ولا أبهى!!

هل حقًّا تنقذينها؟! هل تساعدينها؟!

وهل حقًّا تمد النساء يد العون إحداهن للأخرى؟!

لا أعلم لكن ربما أنت تفعلين!

لا تلقي بالأوراق بعيدًا عن يدك.. برأس كل من أحببتِ أستحلفك..

هناك امرأة صغيرة جميلة أنقى من قطرة ندى تحتضر، وهي تتألم وتبكي.. وأيضًا تحبك كثيرًا.. ورغم أني لا أعرفك إلا أني لا أعرف سواك..

حبيبتي.. رفيقة الدرب.. تحترق.. بربك ورب كل من تحبين اذهبي إليها.. القلم الذي تحملين في يدك ليس لكتابة قصائد العشق وسطور روايات الهوى والغرام..

القلم رسالة.. القلم رسول رحمة وهداية وعطاء.. أنا هنا أجلس وحيدًا أراها.. أراها في زاوية بيتها القديم تبكي.. أراها تذوي وتتلوى بين ألسنة اللهب السوداء..

نعم أنا أشعلتها.. أنا أحرقتها.. حتى الصدق يصبح أحيانًا خطيئة الخطايا.. الأصابع الملطخة بالدم لا تمسح الدمع ولا تمحو الألم..

الأصابع الطاهرة وحدها تفعل!!

اذهبي إليها!!

مازالت جميلة ومازال العمر يناديها..

مازال لها طفل هي أمه، وهو وحيدها..

مازالت عشق أبي الذي لم يهتز قلبه يومًا لامرأة سواها..

بحق كل حرف عن الحب كتبتِ.. عن العدل رسمتِ.. عن الرحمة والغفران والأمل دخلتِ به قلبها، وسكنتِ به رأسها.. اذهبي إليها، ولكن قبل أن تفعلي.. اقرئي قصتي معها..

أما أخبرتك من أنا حتى الآن؟!

اعذريني واسمحي لي أن أقدم لك نفسي..
رؤوف عبد الجواد.. الخائن!!!

***

لم أكن يومًا طفلًا كسائر الأطفال..

كنت حقًّا غير كل الأطفال.. أولا يكفي لهذا أني حفيد قامة كبيرة تدعى منصور عبد الجواد؟!

ولدت في الشرقية وعلى أرضها تفتحت عيناي.. في بيت جدي الرائع، خطوت أولى خطواتي.. كانت الدار كبيرة لا تخلو يومًا من الزوار.. رغم طفولتي البعيدة وصغر سني.. إلا أني مازلت أذكر وجه جدي رحمه الله بوضوح..

كان وجهه مستديرًا منيرًا ومسبحته المصنوعة من أحجار الزمرد النفيس لا تفارق كفه الطاهرة.. على وجهه ابتسامة حانية لا ترد طارقًا يقف بباب داره..

كان سكان كفر «الرضا» - بأكمله - يشعرون بالدفء والأمان لوجود جدي فيه.. ما خشي أحد منهم يومًا من فقر أو مرض تُسقطه الأقدار على رأسه طوال حياة جدي في ذاك الكفر..

إن مرض فقير، تكفل جدي بنفقات علاجه، وإن أرادت فتاة صغيرة الزواج وعجز والداها عن شراء مستلزماتها، هب منصور عبد الجواد في لهفة لتوفير كل ما يلزمها لتصبح عروسًا، لا تقل عن أي فتاة أخرى سواها على أرض الكفر..

كان ثريًّا يملك من أرض الكفر ما يقارب النصف، لكن رغم هذا لم يكن وحده من يتكفل بكل هذه الأشياء والمصروفات، كان يحادث علية سكان البلدة الصغيرة، ويطلب منهم أن يساهموا معه في احتياجات الفقراء، مرددًا لهم أنه يريدهم أن يقاسموه الشعور الرائع الذي يشعر به، وهو يمنح فقيرًا يحتاج، أو يرسم ابتسامة يمحو بها دمعة على وجه أبكته الأقدار، مرددًا أنه كما يحب الفقراء، فهو أيضًا يحب أصدقاءه من الأغنياء، ويريد أن يلتقي بهم في السماء ويجتمع بهم في الجنة، ولا يريدهم أن يتعذبوا أبدًا لبخلهم أو تخليهم عن جار أو رفيق أو حتى عابر سبيل..

مازلت أذكر ذاك اليوم، الذي كنت أقفز فيه في حقول جدي رحمه الله.. من سعادتي بقطعة «شيكولاتة» أحضرها لي والدي، بعد عودته من القاهرة.. اختطفتها من كفه وذهبت لأتناولها بين ذراعي جدي..

كنت أعلم أنه يحب كثيرًا الجلوس إلى إحدى السواقي في أرضه حيث توجهت وحيث أجلسني كعادته على جلبابه، وأحاطني بذراعيه مبتسمًا في فرحة كبيرة..

لوحت له بقالب الحلوى الكبير، الذي لم يكن يعرف طعمه أو معناه كثير من سكان البلدة في ذاك الوقت.. سألني جدي رحمه الله يومها لماذا أحبها، في براءة طفل في السادسة من العمر، أخبرته أنني أحبها لأنها «حلوة المذاق» .. قبل أن أفتحها أو أضعها على لساني أمسك جدي بيدي قائلًا:

هل أدلك على شيء له مذاق أجمل وحلاوته أكبر؟!

ومَنْ مِنَ الأطفال يرفض معرفة طريق الأجمل والأحلى؟!

قال جدي يومها:

هل ترى مسعد؟!

نظرت حولي لأرى مسعد اليتيم ذا الخمسة أعوام يقف بعيدًا.. وأكمل جدي قائلًا:

ستشعر بحلاوة لا حدود لها على قلبك ولسانك، إن منحتها لمسعد، وراقبته وهو يأكلها..

لم أفهم أبدًا ما كان يعنيه جدي، ولم أقبل به إلا أنه رفع كفه لتتدلى مسبحته التي أحبها قائلًا:

الشيكولاتة تمنحك حلاوة اللسان إن أكلتها أنت، لكن إن أكلها مسعد تشعر بحلاوة القلب.. رؤوف جربت حلاوة اللسان كثيرًا.. ألا تريد أن تجرب حلاوة القلب؟!

كان هذا جدي منصور.. وكان هذا ما يعلمني إياه دومًا.. الحب والعطاء.. هل تبتسمين ساخرة؟! هل ترفعين حاجبك في استعلاء، وتظنين أنني أحاول أن أجعل من صورة الخائن في عينيك صورة ملَك؟

وعزة الخالق.. أنا مثلك لا أصدق!!

لا أصدق أن ذاك الطفل الممزق بين تقوى جده وحنان أمه وقسوة أبيه، أصبح اليوم، وكأنه خائن دنيء قاتل، يستجدي العون من امرأة غريبة لا يعرفها ولا تعرفه..

***

جئت اليوم أدعوكِ، كما دعاني جدي - منذ أكثر من ثلاثين عامًا - إلى أن تتذوقي حلاوة القلب..
ساعديها وساعديني.. ستشعرين بحلاوة تسري في شرايين قلبك لا حدود لها..
مضت بي أعوام طفولتي، أرقب جدي وأرقب نفسي، وأنا دومًا أندس بين عباءته؛ لأتبعه أينما ذهب أو توجه.. ومع غروب الشمس، نعود أنا وهو إلى الدار الكبيرة، لأركض نحو أمي رحمها الله حيث تأخذني بين ذراعيها في حنان، ثم أقص عليها كل ما حدث منذ الصباح..
«بهيجة» .. أمي.. كانت أجمل من كل نساء الأرض، وكانت أيضًا أكثرهن حزنًا وضعفًا وخوفًا..
أنا وأمي وجدي نتناول طعام الإفطار والغداء والعشاء..
لا أذكر يومًا رأيت فيه والدي يجلس معنا أبدًا؛ عدا أول أيام شهر رمضان الكريم..
كان يخرج صباح كل يوم لمتابعة أعمال الزراعة في أرضه الواسعة، ففي كل شهر كان هناك موسم حصاد..
سعة الأرض واتساع أطرافها كان يجعل بها مزروعات لكل الفصول، وكان دومًا إنتاجها يسعى إليه كل تجار الخضر والفاكهة.. بل كانت حقول القطن ومازالت حتى اليوم يُجمع إنتاجها، ويُصدَّر بأكمله إلى خارج البلاد.
ما تركتني أمي أظن يومًا أن انشغال والدي بهذه الأرض الشاسعة، هو سبب امتناعه عن الجلوس معنا أو تناول وجبات الطعام.. ما تركتني أبدًا أظن أن خروجه في أيام الأعياد لتوزيع الهدايا والأموال حب أو حنان أو اقتداء بوالده أو تنفيذ لرغباته..
في كل ليلة كانت أمي تضمني إلى صدرها، وهي تضعني في فراشي وتخبرني أنها بقدر ما تحبني تحبه، وبقدر حبها لنا معًا بقدر ما يكرهها والدي..
كم من المرات سألته إن كان حقًا يكرهها.. كم من المرات في أعوام طفولتي سألته لم لا يتناول معنا الطعام، ولم لا أراه يومًا يتبادل معها جملة أو دعابة أو كلمة..
لكن لا إجابة واحدة أذكرها منه.. توفيق عبد الجواد.. والدي ووحيد جدي وقرة عينه لا يحب أمي، بل لا يحب النساء جميعًا..
لم أسمعه يومًا يغلظ عليها القول، ولم أره يومًا يؤذيها، لكن لم أره قط يومًا يحنو عليها..
كانت مثلي تحتمي في عباءة جدي.. كانت تبكي كثيرًا على ذراعيه، وكنت أسمعها تشكو إليه حبها الكبير وصده الأكبر.. وفي كل مرة كانت تفعل، كانت عينا جدي رحمه الله تدمع، ثم يبتسم لتتلألأ أضواء وجهه الجميل قائلًا في ألم:
- بهيجة.. توفيق يحبك.. هو فقط لا يعرف كيف يعبر عن الحب.. وفاة أمه المفاجئة فعلت به هذا..
مرات كثيرة وعديدة كنت أسمع جدي يحادثه ويستحلفه أن يحنو عليها، أو حتى يبتسم في وجهها.. لكن ما رأيت توفيق يبتسم يومًا في وجه أمي، ولا رأيته يبكي يومًاكما بكى يوم رحيلها..
هل حقًا تجن المرأة بالرجل أكثر كلما زاد صده وإهماله لها؟! هل حقًا العلاقة بين المرأة والرجل لا تخضع أبدًا لقانون العقل والمنطق؟!
علمتني طفولتي أن الجفاء مع المرأة يجعلها تحبك أكثر، وأن الهرب منها يجعلها تطاردك أكثر.
نعم كانت أمي رحمها الله تزداد ولعًا بأبي، وكلما زاد صده وجفاؤه زاد جنون هواها واستعر..
هل أحدثك عن والدي؟!
كان فتى وسيمًا قويًا يذوب عشقًا في والده.. كان معه في كل خطواته.. كان مثله يمنح بكرم.. لكنه كان دومًا قليل الحديث.. ومن بين عينيه الثاقبتين، يخرج شعاع حزن لم أعرف له طوال أعوام طفولتي وصباي سببًا، سوى ما كان جدي يردده دومًا عن وفاة أمه المفاجئة، وهو في العاشرة من العمر..
كان توفيق عبد الجواد أبهى شباب الكفر وأكثرهم هدوءًا وطيبة، وأكثرهم أيضًا صمتًا ووقارًا.. ورغم أني لم أره يعنف أحدًا قط، إلا أني لم أشعر يومًا أنه يحب أحدًا من سكان بلدتنا، بل ربما سكان الشرقية بأكملها..
لم يكن في نظراته لأمي أبدًا كره.. كان فقط يتحاشى النظر إلى عينيها.. كأنه يهرب من حبها واستجدائها وحنانها الكبير عليه وعلينا جميعًا.

عينا والدي ما كان يطل منهما أي شعاع إلا كلما اجتمع بصديق جدي المقرب «وديع صفوان»!!

***

ما الذي أذكره عن وديع صفوان في تلك المرحلة من عمري؟ ليس الكثير.. أذكر أنه كان وسيمًا رغم تقدم سنه.. لم يكن ثريًّا لكنه ما كان شديد الفقر.. كان يزورنا كثيرًا في البيت والحقل، وكان جدي

- كحاله مع الجميع - يرحب به ويدعو له بكل الخير ويدعوه أيضا إلى المشاركة في أعمال الخير.

عندما سقط جدي في العام السادس من عمري مريضًا، رأيت أمي تكاد تفقد عقلها خوفًا وحزنًا عليه، حتى أنها توقفت عن وضعي في فراشي، كما اعتدت واعتادت.. كانت تغفو وتصحو في غرفة جدي رحمه الله..

في ليال كثيرة كنت أشتاق إلى أنفاسها جواري، فأتسلل بحثًا عنها لأجدها تفترش الأرض أسفل فراشه، أو أجدها تجلس في صمت إلى جواره، ممسكة بكفه النائمة بين أصابعها، وهي تتمتم بدعوات كثيرة، تستجدي فيها الله أن تموت قبله ولو بلحظات.

كانت شهورًا عصيبة، تماثل بعدها جدي للشفاء، ولكنه عاد ضعيفًا، وعادت أمي تضعني في فراشي كل ليلة.. وفي إحدى تلك الليالي سألتها لم تدعو الله أن تموت قبل جدي..

بهيجة الشابة الجميلة كانت تضمني إلى صدرها في حنان، قائلة إنه إن مات جدي سيحرمها والدي من رؤيتي، بل ربما حرمها الحياة معنا في البلدة بأكملها..

كانت تقسم أن والدي ما تزوجها ولا أبقاها إلا إرضاء لجدي وحده..

بعد رحيل جدي وأمي تساءلت في صباي، ومازلت وأنا على مشارف الأربعين من العمر أتساءل: ماذا كان والدي يصنع معها، عندما يغلق عليهما باب غرفتهما كل مساء؟! هل ضمها يومًا؟! أما قبَّلها ولو مرة واحدة؟ وإن فعل كيف كان يفعل، ثم يخرج في الصباح كائنًا آخر؟!

ذات صباح سمعت جدي يصيح في فرح، وهو يضم أمي إلى صدره في حنان يهنئها، حينما سألته أخبرني أن أمي ستهديني أخًا أو أختًا في شهور قليلة.

لن أنسى أبدًا كيف أمسكت أمي بيدي في قسوة، تحذرني من إخبار والدي بهذا الخبر..

وحده منصور عبد الجواد فعلها.. وحده أخبر أبي أن زوجته تحمل في أحشائها طفلًا منه!!

عندما بدأت بطنها تتكور وتنتفخ، بدأت حياة عائلة عبد الجواد بأكملها تأخذ لونًا وشكلًا، غير كل الألوان والأشكال..

جدي يزداد وهنه وضعفه، وأمي يزداد ذعرها وخوفها والتصاقها بي وبه، وكان والدي أيضًا يزداد تجهمًا وصمتًا، وهو يرقب تدهور صحة والده وانزواء أمي يومًا بعد يوم في الحزن والضعف والألم هي الأخرى..

***

هل يشعر الموتى بخطوات الموت، واقترابها منهم حقًّا قبل موتهم؟! لا أعلم، لكن في دارنا وفي السابعة من عمري، كان هناك اثنان يشتمان رائحة الموت، لكنهما يناضلان من أجل البقاء.

أصبح لا حديث لأمي سوى أن توصي جدي بي إن رحلت، وأصبح لا حديث لجدي سوى أن يوصينا جميعًا بها، ولكن حتى الوصايا تتبدل وتأخذ أشكالا وصورًا أخرى..

في شهور الحمل الأخيرة، أصبحت وصايا أمي دروسًا ليلية يجب أن أمتثل لحضورها بعد أداء واجباتي المدرسية.. أصبحت أمي تحدثني عن الأطفال حديثي الولادة، وكيف يتم الاعتناء بهم.. كانت في كل ليلة، تقوم بتكوير أغطية سريري؛ لتجعل منها شكلًا يشبه الرُّضّع وتضعها على ذراعي، وتطلب مني أن أحمل المولود. وأهدهده، وأحاول إسكاته لأنه يبكي، أو لأنه يشكو من ألم في أمعائه..

علمتني كيف أضعه على كتفي، وأربت على ظهره في هدوء؛ حتى يتجشأ بعد كل وجبة.. علمتني أسماء لمشروبات كثيرة، يجب أن نلجأ إليها، عندما تواتيه نوبات «المغص»، التي تنتاب كل الأطفال.

كنت أبكي أحيانا وأنا أخبرها أنني لا أريد أن أتعلم هذه الأشياء.. أنا فقط أريد طفلًا يلهو معي.. لكنها ما اهتمت ببكائي، كأنها ترى بعينيها أن ما يسكن كرة بطنها القادم هو ابن له ثلاثة آباء لكنه بلا أم!!

أصبحت في تلك الأيام أكثر التصاقًا بجدي، وكنت دومًا أسأله عن سر ما تقول وتفعل والدتي، في كل مرة كان جدي يتمتم بالدعاء والاستغفار، وهو يخبرني أن الله رحيم، وأن رحمته تسبق في أحيان كثيرة قضاءه وكلمته..

في كل مرة، كانت عينا جدي تدمع بقطرات دمع، يربت بعدها على رأسي، ثم يقول:

- رؤوف يا ولدي.. قل «يا رحيم».

نعم.. كان جدي يشعر أن بهيجة تعدّه وتعدّني لاستقبال مولود لا أم له، وكان يبدو أيضًا أنه يصدقها..

وحده والدي كان يهزأ منها ومني، إن أنا أخبرته بما يدور في رأسها ورأسي.. وحده كان يقبّل يد والده، كلما أوصاه أن يحنو عليها.

ويبتسم معلنًا أن بهيجة تفعل هذا فقط لاستدرار عطفه واستنفار حنانه. كان دومًا يربت على رأسي قائلًا:

- لا تخف.. أمك بخير.. ألا ترى الماشية في الإسطبل تلد عشرات المرات، وتنهض لتحمل في أحشائها ما تلده من جديد؟

كلماته واستخفافه بدمعات أمي ورجفات قلب جدي، جعلتني أبتعد عنه أكثر، حتى جاء ذاك اليوم، الذي علت فيه صيحات المخاض في الدار، وهرول والدي يخرج من البيت قبل صلاة الفجر ليعود وخلفه «سعدية» القابلة، التي تساعد نساء الكفر على الولادة.

كان وجهها أسمر، متشحة بالسواد.. حين رأيتها، انقبض قلبي، وركضت أختبئ في جلباب جدي أسأله هل حانت لحظة الرحيل..

ضمني جدي في قوة قائلًا: بل قل حانت لحظة اللقاء..

سعدية غابت كثيرًا وصرخات أمي طال عمرها.. وكلما زاد خوفي وسقطت دمعاتي، سمعت جدي رحمه الله يردد كلمة واحدة.. «يا رحيم»!!

***

هكذا ماتت أمي.. بعد ساعات طويلة من المخاض والصراخ، وبعد أن أشرقت شمس الصباح، خرجت سعدية تعلن أنها بحاجة إلى طبيب، وأن شيئًا لا تفهمه ولا تستطيع التعامل معه يحدث في عملية الولادة تلك.

خرج والدي مسرعًا ليحضر أي طبيب، يستطيع إحضاره من مركز قريب، وعادت سعدية إلى غرفة أمي بعد صرخة كبيرة، أطلقتها شهيدة الحب والقسوة.. ماتت في اللحظة التي سمعنا فيها أنا وجدي بكاء طفل صغير، كأنه نحيب عصفور جريح..

أشرقت شمس الصباح على كفر الرضا بالشرقية، وغابت عن الدنيا امرأة كانت في بهاء الشمس وجمال القمر.. خرجت سعدية تحمل الصغير إلى ذراعيْ جدي في صمت، وقبل أن يأخذه من يديها رآها تهز رأسها في ألم، وهي تغالب دمعاتها.

كرهت سعدية كما لم أكره أحدًا في حياتي.. شعرت منها بالفزع، وبدت في عيني ماردًا أسود، اختطف روح أمي، واقتلع تلك القطعة الصغيرة الحمراء من لحمها وحملها إلينا.

منعتني سعدية من دخول غرفة أمي، وناداني جدي حاملًا الصغير على ذراعيه؛ لأنظر إلى وجهه الغارق في الدمع.. لم أقاوم سعدية نكست رأسي، عدت أقف أمامه ليقول بصوته المتهدج:

- كل الناس عندما تموت لا تترك منها شيئًا.. أمك ليست مثل البشر.. أمك كالملائكة تركت لنا هدية فيها رائحتها ورائحتي ورائحة أبيك.. هي هدية تبقى العمر معك.. منحتك بهيجة ما عجزت أنا عن منحه لوحيدي.. منحتك الأخ..

رحم الله جدي ورحم أمي ورحم كل الأتقياء.. رحمهم برحيلهم، قبل أن يشهدوا كيف تتحول الهدايا التي يخلفونها وراءهم إلى سيوف تطيح بالرؤوس والأعناق!!

***

عاد والدي بالطبيب ليس لإنقاذها بل لتوقيع شهادة وفاتها.. عندما دخل البيت ورأى وجه جدي مغسولًا بدمعه، ووجهي أنا غارقًا في الخوف والألم لم ينبس حرفًا، بل جلس واضعًا الوليد على فخذيه في سكون حتى انتهى الطبيب من توقيع الكشف على أمي وخرج من غرفتها يردد عبارات التعزية الجوفاء..

كان صامدًا صامتًا، يتحرك لإنهاء كل شيء في صلف وجمود.. ما بكى لحظة وما ذرف دمعة حتى انتهت إجراءات الدفن وعزاء الليلة الأولى.

عندما عاد إلى البيت في المساء، وقف بباب غرفتي ليجدني وحدي أحتضن أخي على ذراعي، وأهدهده كما علمتني أمي..

وقف يرقبني طويلًا على باب الغرفة بعد أن صرف بأدب جم كل نساء الكفر اللاتي تبادلن رعاية الصغير، وبعد لحظات صمت طويلة، نهضت من مكاني لأضع أخي الصغير في فراشي، وتقدمت نحوه في هدوء..

كنت مندهشًا من صمته وسكونه.. كنت أؤمن أنه يكره أمي.. لكن ما وجدت على وجهه الساكن ما يمكن تفسيره بأنه راحة أو سعادة لموتها..

السعادة لا يمكن إخفاؤها وإن بكينا وصرخنا مدعين الحزن.. والحزن أيضًا سيدتي لا يختبئ وإن ملأنا الأرض ضحكًا ووثبًا..

للموت حرمة وسلطان، يبقى أيامًا وربما شهورًا تكسو جدران المكان الذي زاره.. حرمة تجعلك لا تقوى على شيء سوى أن تنكس رأسك، وتشعر بضآلة كل شيء أيًّا كانت قامته وحجمه..

عندما أصبحت أقف أمام والدي، تمنيت لو أسأله لِمَ قتلها.. لِمَ قسا عليها ولِمَ لم يحبها؟! تمنيت أن أسأله أي شيء في بهيجة تلك الشابة النضرة الجميلة لا يُعشق أو تهواه النفس..

من خلف دمعة في عيني رفعت رأسي وسألته:

- ماذا نسميه؟!

كأنني ودون أن أدري أعلنت، في تلك اللحظة، أن هذا الصغير مسئولية مشتركة بيني وبينه.. وأنه أبدًا لن يكون ولده وحده..

نظر إلى الصغير النائم في فراشي مجيبًا في هدوء:

- طارق..

لم يدخل غرفتي.. لم يضممني، بل إنه لم يجلس إلى جوار اليتيم النائم.. نكس رأسه وذهب إلى غرفته..

وقفت أرقبه في جنون.. كيف يدخل الغرفة التي ماتت على فراشها أمي منذ ساعات؟! كيف ينام على فراش، اقتسمه معها أعوامًا بعد أن خلا منها؟! هل يرى وجهها إلى جواره أم تراه باختفاء جسدها عنه سعيدًا؟!

في لحظة وبجنون الأطفال وانكسار اليتامى، شعرت أنني أنا وأخي وحدنا أحق بالنوم في فراشها.. وحدنا لنا الحق في تنسُّم بقايا رائحتها، قبل أن تأكلها النسمات والأتربة.

والدي لا يستحق النوم في فراش امرأة قتلها بقسوته.

في سذاجة الأطفال، عدت ألتقط الطارق الصغير على ذراعي، وتوجهت إلى غرفة الراحلة، وقبل أن أطرق الباب سمعت ما لم أكن أتوقع سماعه أيام عمري..

سمعت توفيق عبد الجواد ينتحب في بكاء مرير، تتمزق له نياط القلوب. ظننت روحها تقتله.. ظننت روحها تنتقم منه ومني.. وفي لحظة شعرت أني لا أريده أن يموت.

قتلها لكني أحبه.. حرمني إياها، لكن لا أريد أن تحرمني هي إياه وإن كان ذاك هو العدل والقصاص.

فتحت الباب في جنون، أبكي صارخًا أناديه.. رأيته يضم ثوبها الذي كانت ترتديه عند ولادة أخي، والملطخ بدوائر كبيرة من دمها..

رأيت توفيق عبد الجواد يضم ثوبها إلى صدره ويبكيها كما لم أبكها أنا أو جدي..

تقدمت نحوه وبدأ الصغير على ذراعي يفيق ليبكي هو الآخر، كأنه اشتم رائحتها..

لم أر توفيق عبد الجواد يومًا يبكي قبل ذاك اليوم أو بعده كما بكى في تلك اللحظات..

هل أحبه؟! هل أكرهه؟! هل حقًّا قتلها أم أنها هي من بموتها قتلت فيه ما لم أره على وجهه يومًا بعدها؟! بالقسوة قتلها لترحل، بعد أن نزعوا عنها ثوبها الأخير ليتم دفنها، ومعها ابتسامات والدي وضحكاته!!

***

عادت نوبات المرض تعاود جدي، وبدأ ضعفه يعاود الظهور واضحًا جليًّا لكل عين.. لكنه رغم ضعفه ووهنه ما انقطع عن اصطحابي إلى زيارة أمي كل أسبوع، وما نسي يومًا أن يختم صلواته بالدعاء لها والترحم عليها.

في عامي السابع ذاك علمتني الحياة درسها الأول..

اليتامى يشيخون، وإن كانوا أطفالًا!!

بعد شهور من رحيل أمي، كنت في الحقل ذاته وأمامي الساقية ذاتها التي يهواها جدي، ويجد في الجلوس أمامها راحة كبيرة.. كنت أجلس إلى جواره نرقب جموع الفلاحين، وهي تقوم بأعمالها اليومية حولنا.. وعلى البعد رأيت مسعد اليتيم يحضر إلى والده، ونظرت إلى جدي من خلف عبرة صغيرة، تكونت على أطراف عيني، وأنا أتحسس قالب الحلوى الذي دسه والدي في جيبي ذاك الصباح ثم قلت:

- لن أمنح مسعد اليتيم قطعة من الحلوى أبدًا..

بضعفه ومع بدايات احتضاره، سألني وسقطت العبرة وأنا أقول:

- لن يشعر بحلاوتها على لسانه، ولا أنا سأشعر بحلاوتها في قلبي.. من فقد أمه يا جدي لا يعرف للحلاوة طعمًا أو معنى..

***

أخطأت التعبير؟! كنت طفلًا صغيرًا وأخطأت التعبير..

لو أن الأيام تعود بي إلى تلك اللحظة، ما قلت تلك الكلمات الحمقاء التي أبكت جدي يومها كثيرًا..

لو أن الأيام تعود بي لقلتها كما أشعر أنها يجب أن تقال اليوم، وأنا في الأربعين من عمري..

اليتامى يشعرون بالحلاوة، لكن مع اليتم تصبح حاسة التذوق لديهم أكثر تبلدًا وأصعب استثارة.. لكنهم يوم يشعرون بها.. يوم يتذوقونها من مصدر ما، يطبقون أكفهم عليها في جنون كبير؛ لأنهم يعلمون أن أعوامًا طويلة قد تمر بهم، دون أن يشعروا بحلاوة أو جمال كما يشعر بهما سواهم.

الأيام لا تعود إلى الخلف؛ لأنها إن تفعل لدفعت عمري ثمنًا لعودتها حتى لا أرى جدي يبكي، كما أبكته كلماتي، ولا أرى حبيبة عمري يوم قتلتها مرة بخيانتي والأخرى باعترافي..

الأيام لا تعود لحظة إلى الخلف!!

***

مات جدي بعد أن أكمل الطارق الصغير عامه الأول بشهور قليلة.. مات هو الآخر بعد شهور طويلة، كان يودِّعنا فيها بدعواته ووصاياه.. كان كلما رأى الحزن يغزو عين أبي، يخبره وهو في فراشه أنه سيسعد بلقاء بهيجة وتسعد هي به، عندما يخبرها كم أحبها والدي وكيف بكاها..

مات جدي ولا أذكر الكثير عن تفاصيل موته، سوى أن الشرقية بأكملها جاءت لتقديم العزاء.. بل ربما وقف كل رجالها لأخذ العزاء حتى ما كاد يكون هناك معزون.. شيء واحد لا أنساه.. هو تلك اللحظة، التي أمسك فيها والدي بيد «وديع صفوان» في اليوم الثالث والأخير للعزاء، واصطحبه خارج السرادق ليهمس في أذنيه بكلمات لم أسمعها، لكنني رأيت الرجل ينكس رأسه بعدها ويمضي في سكون!!

تغيرت حياتنا بعد موت جدي.. أخبرني والدي، في تصميم، أننا سنرحل عن الشرقية، ولن نعود إليها إلا لنُدفن في قطعة الأرض، التي تطل عليها الساقية، والتي أحبها جدي كثيرًا، والتي أيضًا ضمت جسده وجسد أمي.

انتهت حياتنا في الشرقية في أقل من عام، بعد أن باع والدي معظم أراضيه.. باع أكثر من نصف أرضه.. وبدأ يغيب عن الشرقية كثيرًا؛ ليعد لنا حياة جديدة، تركنا مع بداياتها كل شيء خلفنا، عدا الألم والذكريات!!

***

قليلون هم من يتألمون لشجرة يتم اقتلاعها من جذورها.. قليلون جدًّا من يدركون كيف تتألم تلك الأشجار، التي نقتلعها من أرضها، وإن كنا نفعل لنزرعها في مكان آخر أكثر جمالًا ورونقًا... يوم وقفنا أنا ووالدي نغلق آخر حقائبنا المفتوحة لنتجه إلى مصر، كنت أنتفض، وأنا أقاوم دمعي في قسوة كبيرة..

في تلك اللحظات شعرت أني شجرة صفصاف كبيرة يتم اقتلاعها رغمًا عنها.. لكن ما عساها الأشجار الكبيرة أن تصنع إن طالتها فأس في يد قوية كيد توفيق عبد الجواد؟! أذكر أني تركت أخي الصغير وركضت، وهم يضعون الحقائب في السيارة، التي جاءت تنقل ما بقي من أشلائنا إلى المجهول الذي أسماه والدي «مدينة الحلوى والشيكولاتة».

ذهبت إلى الساقية ووقفت أمام قبر أمي وجدي، وتلوت الفاتحة في صمت، وعاهدت أمي أن أهتم بآخر ما بقي منها.. عاهدتها أن يصبح طارق هو هم همومي وغاية غاياتي، وإن كان ثمن ذاك هو روحي وعودتي جثمانًا، يغفو إلى جوارها وإلى جوار جدي.

في طريقنا إلى القاهرة.. إلى المدينة كنت أضم بقايا أمي إلى صدري، وأنا أرقب كل قطعة في الطريق كأني أودعها..

معظم رجال الشرقية، وكل رجال ونساء كفر الرضا كانوا مصطفين في وداعنا، كأنهم يشيعون جثمان جدي من جديد..

لماذا نرحل؟! لماذا نترك أرضًا نحبها؟! لماذا نبيعها؟! لماذا نترك بيتًا فيه دفء وحنان، وبقايا أنفاس من أحببناهم وأحبونا، كما لم يعرف الحب نفسه يومًا؟!

تمنيت في تلك اللحظات التي كانت تخطو فيها السيارة في هدوء بين جموع المودعين لو أصرخ.. لو أتمكن بأعوام طفولتي من فتح بابها، والركض بأخي الصغير والبقاء على تلك الأرض.. لكن إن أنت اقتلعت الأشجار من أرضها، كيف يمكن غرسها من جديد؟!

لم أصرخ ولم أبكِ.. الرجال لا تصرخ أو تبكي.. الرجال كالأشجار في قوتها وصلابتها حتى إن اقتلعناها وقتلناها.. تموت واقفة لا تركع..

ظننت امتناعي عن الصراخ والبكاء لحظتها رجولة.. ظننت مقاومتي لرغبتي في الانكفاء على قدم والدي؛ لأتوسل إليه أن يبقينا ولا يقتلعنا من دارنا وأرضنا رجولة.. كنت خلف زجاج السيارة، أضم أخي الصغير وألوح لمودعينا في صمت، له أنين يمزق أضلعي..

اليوم أعلن.. الرجال ليست جبالًا أو أشجارًا.. الرجال لها قلوب تسكن الحنايا.. لكن في تلك اللحظة التي خرجنا فيها من بلدتنا، شعرت أن والدي وأنا وحتى الرضيع الصغير كنا حمقى، يوم ظننا أن بإمكاننا أن نلعب دور الأشجار!!

أعلن أني في ذاك اليوم لا كنت شجرة ولا كنت رجلا.. كنت أحمق صغيرًا قرر أن يزرع في صدره شجرة، ويلعب دور أم لأخيه، ورجل في عينيْ أبيه وينسى الحقيقة الوحيدة.. ينسى أنه يتيم ضعيف خائف، وأنه في نهاية الأمر طفل صغير!!

***

هذا هو رؤوف عبد الجواد الذي صنعته قصة طفولته.. أخذت على عاتقي ألف مهمة، لا تناسب عمري ولا أحزاني ولا قدرة رأسي على التفكير؛ لهذا كان يجب أن تختلط في عقلي الأمور، وأفشل في كثير من الأدوار، وإن بدوت في عين والدي ناجحًا فيها.

كانت الشقة التي اختارها لنا والدي في شارع همدان بالجيزة، شقة كبيرة، بها خمس غرف، وصالة واسعة تطل على «نقطة المطافي» ..

خمس غرف ورغم هذا جعل والدي لي ولأخي غرفة واحدة، وكيف لا؟ ألا ينام الصغار في أعوامهم الأولى في غرف أمهاتهم؟!

أحضر لنا شابًّا أسمر، اسمه علاء، خصص له أقرب غرفة إلى باب البيت..

علاء هو المسئول عن طارق أثناء وجودي في المدرسة، وأثناء خروج والدي إلى العمل الذي لم أكن أعرفه في بدايات حياتنا في القاهرة.

علاء في اللحظة التي أعود فيها إلى المنزل، وبعد انتهائي من أداء واجباتي المدرسية، يصبح عليه أن يطهو الطعام ويخرج لتسوق مستلزمات البيت.

هكذا رسم توفيق عبد الجواد شكل الحياة في منزلنا بشارع همدان..

كنت أقف في الشرفة أرقب أطفال الشارع، ممن في سني، يلعبون، بل كان كثيرون منهم يستوقفونني إن صادفت عودتهم وقت عودتي من المدرسة، عارضين عليَّ مشاركتهم في اللعب، ولكن لم أقبل مرة.

كان طارق في رأسي.. كان هناك أيضًا خوفي من والدي، كأني كنت أشعر أنه أبدًا لا يريدني أو يتوقع مني القبول بمشاركتهم ألعابهم.

كنت أعلم أنه يراني رجلًا، ويظنني شجرة، ولم أكن أريد أبدًا ألا أكون.. كنت أخافه وأشفق عليه.. كنت أحبه وكنت أكرهه.

في كل يوم أراه يعود مساء، وهو يحمل قطعة حلوى، وقصة صغيرة لأقرأها أو يقرأها هو عليّ.. كنت أحبه وأتمنى لو أرتمي بين ذراعيه.

في كل ليلة كنت أشعر به يفتح باب غرفتنا، ويطمئن على طارق في مهده الصغير، أو يحكم الغطاء حول جسدي.. كنت أتمنى لو أضمه بذراعي، وأبكي على صدره..

وأيضًا في كل ليلة كانت تظلم فيها غرفتي، وأفتح عيني لأرقب طارق في سريره، كنت أكره والدي حتى الجنون..

كلما تذكرت أمي.. كلما شعرت بدمعات صغيرة تنحدر على وجنتي تناديها.. كلما رأيتني، ورغمًا عني أرفع ذراعيّ الصغيرتين أبحث عنها.. أكرهه بجنون، يساوي جنون حبي وحاجتي له..

كنت أستعيد بكاءها ودمعاتها كل ليلة.. كانت كلماتها عن الموت، تطرق أذنيَّ في جنون، ولا أجد مفرًّا أبدًا من إعلان الحقيقة التي بصدري.

هذا الرجل الذي كان في غرفتي منذ دقائق.. هذا الرجل الذي يطعمني ويمنحني الحماية والحلوى هو من قتلها.. وقتلني بحرماني إياها..

أحب قاتلي وأكره جريمته، وأحب القتيلة، وأعلم أنه هو الآخر يكره موتها، ونحب أنا وهو آخر ما بقي منها.. نحب هذا الصغير في جنون، لكن كل منا بطريقته.

عاهدت نفسي أن أقاوم حبي لوالدي، رغم حاجتي لذاك الحب الذي ما بقي لي سواه، بعد رحيل جدي وأمي..

أنا ذاك الطفل الممزق.. أنا من فقد الأم والجد والبيت.. وحدي زرعت في صدر الصغير كل ما كنت أحمله من مشاعر.. زرعت وجه أمي الجميل.. قصصت له قصصًا عن حبها.. عن حنانها وعن ذراعيها الحانيتين، وزرعت في رأسه لحظة موتها.. لحظة رحيلها.

أخبرته أن الوفاء أن نبقى نحبها وتبقى وحدها بطلة قصصنا كل ليلة.

علمته حبها وعلمته الشوق إليها، وأيضًا أعلمته بقاتلها، وتركته مثلي ممزقًا.. لا هو يعلم كيف يحبه، ولا هو يقوى على كراهيته!!

***

سيدتي:

أغوص في مقعدي الذي أكتب إليك من عليه.. أغوص وأنا أشعر أني أكثر هدوءًا، وأستعيد سيطرتي على أفكاري وقدرتي على الإبصار للمرة الأولى..

أخبري قراءك ومعجبيك ومن يتابعون قصصك ومقالاتك أن يكتبوا.. أخبريهم أنه إن ضاقت بهم الدنيا، وتفجرت شلالات دمع أسود من أعينهم أن يهدءوا.. أن يجلسوا إلى مقعد، ويمسكوا ببعض الأوراق، ويكتبوا عليها قصتهم.. سيشعرون بهذا الهدوء الذي يجتاحني الآن.. سيشعرون أنهم يبصرون بأعينهم حقائقٍ كثيرة عن أنفسهم، ما كانوا يعرفونها يومًا.

لو كنت أعلم أن كتابة كلٍّ منا لقصة حياته ومآسيها تجلب على النفس هذا الهدوء، لكتبتها قبل اليوم بأعوام.. من يدري لو فعلت، ما وصلت إلى ما أنا عليه اليوم..

آه لو أعلم كيف أجد طريقة أصل بها إلى حبيبتي، وأطلب منها أن تكتب هي الأخرى.. أن تتحرر من آلامها، التي رسمتها أنا على وجه أقدارها، وتلقي بها حروفًا وسطورًا على الأوراق..

ترى هل كتبتِ أنتِ كل ما كتبته من روايات ومقالات وقصائد؛ لتتحرري من قصص سجينة وآلام دفينة في صدرك؟!

لا أعلم، لكن دعيني أكمل لكِ قصتي، فمع كل حرف أكتبه، تكبر ثقتي فيك وتقوى قدرتي على الإبصار والتركيز..

أؤمن الآن أن من يحملون الأقلام ويكتبون لهم بصيرة، وأنا بحاجة إلى إنسان له بصيرة؛ ليأخذ بيد امرأة أحببتها وأراها مازالت في الظلام تنتفض وحدها، وأعجز عن الاقتراب منها، بعد أن أطفأت أنا بيدي كل مصابيح الأمل والخير في أيامها!!

***

بقيت أعوامًا في شارع همدان بالجيزة ألعب الدور الذي رسمه لي عقلي الصغير ومشاعري الممزقة آنذاك..

هذا الصغير هو قطعة من روح أمي، وآخر ما بقي من جسدها.. هذا الصغير يجب أن يحبها ويعرفها، ويحملها في مقلتيه وأيضًا يحمل رحيلها سكينًا في خاصرته تبقى العمر..

علّمت طارق كيف يحب أمي.. كيف يراها ويشتم رائحتها، وكيف أيضًا يسأل السؤال ذاته الذي سكنني، وسكن رأس طفولتي أعوامًا..

لماذا قتلها أبي؟!

أفقت من هذا السؤال عندما بلغ طارق عامه السابع.. أفقت في عامي الخامس عشر تقريبًا لأرى وللمرة الأولى أني ما حميت طارق، وما علمته حب أمي فحسب.. ولكن زرعت – وبيدي- في أعماقه ماردًا أسود كريه اللون والرائحة.. أذكر ذاك اليوم جيدًا..

كان في عامه الدراسي الثاني مشاغبًا تكثر الشكوى منه في المدرسة.. يومها عنّفه والدي بقسوة، وعندما تأكد طارق من نومه أيقظني من فراشي، وقال في هدوء:

- رؤوف.. بابا نائم.. يجب أن نضع خطة للانتقام منه!!

ظننته يريد الانتقام منه لتعنيفه وتهديده.. وكعادتي أحطته بذراعيّ، وشرحت له كيف ترقبه أمي الآن من السماء، وهي حزينة؛ لأنه ليس متفوقًا في دراسته، وأن جدي أيضًا تدمع عيناه، وهو يراه يتعدى بالضرب على زملائه في المدرسة.. أخبرته أن والدي يحبه ولهذا عنفه وهدده بالعتاب ..

طارق أمسك بكفي بين يديه قائلا:

- جاء الوقت لنقتل بابا.. كبرت وأستطيع أن أفعلها.. ساعدني.. ندخل غرفته.. نضع الوسادة على وجهه.. يختنق ويموت.. قتل أمك.. هل نتركه؟!

تلك كانت اللحظة التي غيرت رؤوف وفتحت عينيه، حين رأى حماقة نفسه ودناءتها، وإن كانت ممزوجة برائحة الطفولة وتسلط الحرمان واليتم.

أخي الصغير يريدنا أن نقتل.. ومن نقتل؟! أبانا.. أبانا الذي كنت أراه يركض في جنون، منذ استقرارنا في القاهرة.. يركض ليرسي قواعد شركة الأدوية التي أسسها وأسماها «الأحرار»؛ لأنه يراني ويرى طارق أحرارًا يقدم لهما شركة، يحلم بأن تصبح من أكبر شركات الأدوية على أرض مصر.. أبانا الذي لم يمارس الصيدلة رغم تخرجه منها حبًا في الأرض التي باعها؛ ليبتعد بنا عن الذكريات الأليمة، واشترى ثلاثة فدادين في المنصورية ليبنيها لنا فيما يشبه حياة الشرقية، كأنه يحاول أن يحتفظ لنا بالجزء الجميل منها..

أبانا.. الذي كان كل زملائي يسألون.. ألا يتزوج؟! ويوم سألته أنا قال: «لا امرأة بعد اليوم في حياتي أو حياتكما.. أنتما حياتي» ..

هذا أبونا وهذا أخي الصغير، الذي يريد إخماد أنفاسه تحت وسادة صغيرة، يغفو عليها في بيته ومع أبنائه..

طارق لم يفعلها!!

أنا من زرعت فيه ذاك الجنون.. أنا من دمر أخي وهدية أمي..

كانت تلك لحظة فاصلة في حياتي، أفقت فيها من طفولتي.. من جنوني، حاولت كثيرًا أن أشرح لطارق خطأه.. جنونه.. بشاعة ما يقول، لكني أعلم أني لم أنجح أبدًا..

أثنيت طارق عن فكرته المجنونة.. لكن بقي تشتته بين حب والدي وكراهيته جريمة لا أغفرها لنفسي، ولا أبرأ أو أشفى من شعوري بالذنب عليها أبد الدهر!!

***

تركنا شارع همدان وأنا في الصف الأول الثانوي..

أذكر ذاك اليوم الذي توجهنا فيه إلى بيت المنصورية، أو لنقل النموذج المصغر من كفر الرضا..

مقاطعة كبرى مساحتها فدادين ثلاثة، تدخلها السيارة من بوابة حديدية كبيرة عالية؛ لتسير فيها ما يقارب الخمس دقائق، نصل بعدها إلى الفيلا الكبرى..

يومها أشار والدي بيده إلى ڤيلتين صغيرتين مازالتا تحت الإنشاء، وهو يقول..

ڤيلات الأحرار الصغار.. أعوام يا رؤوف وتنتقل فيها للسكن وحدك..

لم تهزني الڤيلا.. لم تهزني المقاطعة، ولم أشعر بالفرحة حين دخلت بهو البيت الكبير.. طارق وحده كان يصيح في فرح وزهو، مخططًا لدعوة جميع أبناء مدرسة ڤيكتوريا التي قضينا فيها أعوام الدراسة.. كان يصيح في زهو حقيقي، شارحًا لنا كيف سُيصدم ابن فلان وابن فلان الآخر، وهما من أكبر عائلات مصر، عندما يدخلان بيتنا..

طارق زارهم جميعًا، ورغم ثراء قصورهم واتساعها وأناقتها.. إلا أنه كان يصيح في فرحة أن قصر الأحرار أجمل، وأرضهم أكثر اتساعًا، وحدائقها أجمل وأكثر تنسيقًا وبهاء..

على وجهي طفت ابتسامة صغيرة لسعادة طارق وانبهاره العميق بغرف البيت وغرفة المكتبة الكبيرة، التي وضع فيها والدي كل ما أمكنه من كتب، وخص جانبًا بأكمله منها لكتب الطب والصيدلة، فهذا هو طريقنا الذي يجب أن نسير فيه؛ لنمسك معه بزمام شركة الأدوية، والتي بدأت حقًّا تؤتي ثمارها..

عندما صعدت إلى الدور الثاني، ودخلت غرفتي التي أثثها والدي بالكامل، دون حتى الرجوع إليَّ أو سؤالي.. لم أنبهر لشيء فيها.. أنا فقط وقفت خلف شرفتها الزجاجية الكبيرة، المطلة على الحديقة الخلفية، التي يتوسطها حمام السباحة الكبير، وأنا لا أفكر في شيء سوى وجه أمي وجدي، وانكسار خاطري ووجداني.

أذكر أني حين كنت في عامي الخامس عشر.. وفي نهايات طفولتي، تمنيت لو لم نكن بهذا الثراء، أو يبني لنا والدي قصرًا كهذا.. تمنيت لو كانت لنا أم، أو حتى ماتت وهي تبتسم، أو حتى عشنا بعدها ونحن أسوياء..

من خلف الشرفة الزجاجية الكبيرة في غرفتي، تذكرت ما قلته لجدي وأبكاه كثيرًا:

«اليتامى لا يشعرون بالحلاوة»..

اتساع البيت.. اتساع الحدائق وثراء الأثاث وأناقة الألوان والأضواء والثريات.. لا يسعد.. من فقد أمًّا واقتُلع من أرضه، أصبح مثلي شجرة، داخلها أجوف خال من الحياة والروح..

كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما أدركت أني بحاجة إلى شيء أكبر من قصر الأحرار.. بحاجة إلى شيء أجمل من حدائقهم.. إلى شيء أقوى من مصانع أدويتهم وأرصدتهم.. شيء له حلاوة يشعر بها قلبي، وأشعر معها أني رغم كل ما حدث مازلت إنسانًا!!

***

لم تخل حدائق قصر المنصورية من زوار طارق وزملائه في المدرسة.. سائق البيت، بالإضافة إلى أحد سائقي شركة الأدوية، في نهاية كل أسبوع، كانوا لا ينهون يومهم قبل الحادية عشرة لاصطحاب زملاء طارق، أو العودة بهم إلى منازلهم.

كنا في مدرسة واحدة.. لكن أنا كنت بلا أصدقاء.. أحب الجميع.. ويحبني الجميع لكن لا صداقة ولا زمالة، لها عمق أو جذور.

أنا في فصول الدراسة أعمل بإخلاص، وعيناي تبحثان دومًا عن طارق.. تتبعه في فناء المدرسة.. تعتذر لمن يعتدي عليهم بمناوشاته العديدة، وتتسع في لحظة كعيون صقر إن همَّ أحدهم بالثأر منه أو الرد عليه.

أنا في البيت أنهي أعمالي المدرسية، وأتابع معلمي طارق الذين يتابعون معه كل دروسه، وأتابع أيضًا أعمال البيت وشئونه..

عند حصولي على شهادة الإعدادية، كان طارق قد أنهى عامه الثالث في المرحلة الابتدائية.. ومع بداية الإجازة الصيفية، بدأت حياتي العملية ذاك العام للمرة الأولى في الصيف.. وحين توجه كل زملائي إلى السفر خارج البلاد، أو إلى المصايف الداخلية.. كنا أنا وطارق نستيقظ كأي يوم دراسي عادي؛ حيث نتوجه مع والدي إلى مدينة السادس من أكتوبر؛ لندخل معامل ومكاتب شركة الأدوية..

لم يعاملنا توفيق عبد الجواد في شركة الأدوية ومصنعها كأبناء.. كان يعاملنا كاثنين من الموظفين، اضطر رغمًا عنه لقبولهما للعمل لديه، رغم أنه وحده من أمر بإحضارهما.

في كل قسم كنا نقضي أسبوعًا.. أذكر أننا قضينا أسبوعًا في قسم النظافة حيث كان يجب أن نقوم بتنظيف المكاتب وحمل قوارير المعامل، من وإلى المخازن.. كنت كعادتي أعمل في صمت، وأحفظ كل التفاصيل في رأسي.. كنت أيضًا أتحمل عن طارق كثيرًا من مهامه، رغم أنها كانت دومًا تناسب سنه.. ولكن كعادة كل أم، كنت دومًا أراها أكبر من طاقته واحتماله..

في نهاية كل أسبوع، كنا نحصل على أجر قد يقتطع منه جزء كخصم لأي تقصير، يراه مدير كل قسم عملنا به..

فقط في نهاية الأسبوع، وعند عودتنا إلى قصر المنصورية.. كنا نعود أحرارًا من جديد.

كان طارق دومًا يحتج ويتهم والدي بالجنون لما يفعل، تنطلق منه عبارات نقد صريحة، يوجهها إلى والدي.. ولكن كعادة والدي معه.. دومًا يتجاوز عن أخطائه وتعليقاته اللاذعة وقسوته.

توفيق عبد الجواد ما كان يقسو على طارق أبدًا، إلا إن كانت مشاكله مع الدراسة أو العمل..

هكذا مضت طفولة طارق.. مدلل حتى الفجور من والديه.. وقسوة حتى منتهاها من والدي إن مس الأمر تفوقه الدراسي أو استخفافه بشركة الأحرار أو العمل فيها..

أنا.. تعلمت احتمال القسوة، وتعلمت تقديم الحنان، كما تعلمت ابتلاع الأسئلة.

تعلمت كل ما أراده والدي، وكل ما أردت، وما لم أرد أن أتعلمه يومًا..

كل الأيام في قصر المنصورية كان لها اللون نفسه والطعم نفسه..

وحده، طارق كان يحضر بقصص ويخرج بتعليقات وانتقادات، يبتلعها والدي، وأحاول التستر عليها في جنون، كأني لا أريد أن أعترف أننا فشلنا في تربية وحيدنا..

كل شيء سار، كما هو مرسوم له أن يكون.. حصلت على شهادة الثانوية العامة، ودون سؤال أو تفكير أو نقاش.. كلية الصيدلة هي اختياري، الذي لم أختره كأنها لحظة ميلاد أو موت.

كان ذاك العام عام البدايات..

طارق بدأ المرحلة الإعدادية، ووالدي بدأ في التوسع في الشركة، وافتتح خطوطًا جديدة لإنتاج أدوية، أصبحنا وحدنا من ننتجها ونحتكر تصنيعها على أرض مصر.

في عامي الأول في صيدلة القاهرة، بدأت عمرًا، وأثمرت للمرة الأولى في حياتي بذرة سعادة وأطياف ابتسامات، لم أظن أن جوفي الخاوي قد يثمرها أبدًا..

في التاسعة عشرة من عمري ولدت من جديد، أو ربما ولدت إنسانًا للمرة الأولى عندما علمت أن الثراء والقوة.. النجاح والسلطة، وكل ما تمتعت به عائلة عبد الجواد، عجزت جميعًا عن محو انكسار اليتم، وألم الذكريات.. لكن شيئًا واحدًا ضمد الجراح وجعل من اليتيم رجلًا سعيدًا.. شيء رفع عنقي الذي ظننتني أموت به، وهو متدلٍّ على صدري في سكون..

شيء سكب في روحي حنانًا وجعلني أغفر للأقدار رحيل أمي ويتم أخي.. شيء أشعل في عيني بريقًا، ونفخ في روحي روحًا، تشعر أن لنا بيتًا ونجاحًا وثروة.. شيء فريد يُنسي اليتامى يتمهم، ويعيدهم إلى صفوف الأحياء.

شيء أعاد لقطع الحلوى على لساني حلاوتها؛ لأنه وحده أحلى وأجمل من كل قطع السكر..

شيء ساحر اسمه «الحب»!!

***

كنت في منتصف العام الدراسي الأول تقريبًا؛ حيث بدأت أظهر تفوقي وأتلقى عليه التشجيع من كل أساتذة صيدلة القاهرة، وأيضًا كعادتي كنت بلا صداقات أو علاقات.. كنت أرقب فتيات الجامعة، وألمح أعينهن، وهي تحاول التقرب من شاب وسيم ثري متفوق عف اللسان.. وأزداد دهشة..

النساء في مصر لسن أبدًا نساء الشرقية أو كفر الرضا أو حتى نساء شارع همدان. النساء شيء آخر، بل هو شيء لم أعرفه أنا، وكيف لي أن أعرفه بعد كل ما قصصته عليك؟

في نهاية العام.. كنت قد أصبحت أكثر ثقة في نفسي، وفي نجاحي وشهرتي كأفضل طلاب الدفعة، وأيضًا في نهاية العام بدأت أحقق التوازن في تأرجحي بين الاقتراب من طالبات الجامعة أو العزوف عنهن.

بدأت أدرك أن عزوفي الكامل قد يثير حولي تعليقات، يأباها كبرياء الرجل، واقترابي منهن هو شيء تأباه ذكرياتي وترفضه نشأتي..

تعلمت كيف أكون قريبًا إن أردن محاضرة أو معونة في تجربة أو بحث، وتعلمت أن أكون بعيدًا، كأني في أطراف الأرض إن أرادت إحداهن حديثًا أو حوارًا، يتعدى أسوار الجامعة وأعمالها.. وتعلمت أن هذا يثير جنون المرأة أكثر وأن كثيرًا من طالبات الصيدلة في دفعتي أصبح أملهن الوحيد هو «رؤوف عبد الجواد»، ليس حبًّا سيدتي أو انبهارًا بفضائلي.. لكنها على ما يبدو رغبة دفينة في صدر كل نساء الأرض أن تثبت لنفسها وللنساء حولها أنها استطاعت إسقاط رجل، عجزت عن إسقاطه الأخريات!!

أدركت هذا ووعيته، وزادني هذا عنهن ابتعادًا واقترابا، حتى كان ذاك اليوم الذي أشاد فيه أحد أساتذتي ببحث قدمته.. وعند خروجي من المحاضرة استعدادًا للعودة إلى البيت، سمعت ذاك الصوت الرقيق يناديني باسمي.. حين استدرت وجدتها..

وجه لم أره من قبل، رغم أني علمت بعدها أنها من دفعتي.. وفي كل المحاضرات والمعامل، كانت هناك ترقبني.. لكنها يومًا لم تحاول أن تسقط الرجل الذي أردن إسقاطه جميعًا.

نظرت إلى وجهها الرقيق لأسمعها تقول:

- أنت حفيد الأسطورة؟!

لم أفهم.. بل لم أتوقع أبدًا أن يكون هذا هو السؤال.. كل الأسئلة قبل سؤالها كانت سواء.. كل فتاة كانت تسألني عن شيء دار في محاضرة، أو عن موعد تسليم بحث، أو إجراء تجربة، إلا ذاك الوجه الرقيق فاجأني بسؤال ليس حتى عني أنا..

ورغمًا عني طفت على وجهي ابتسامة كأن رجلًا على الأرض لا يملك أن يقول أو يفعل شيئًا أمامها سوى الابتسام..

كانت تقف بعيدًا، ولم تحاول حتى أن تقترب لكنها عادت تقول:

- هل أنت حفيد منصور عبد الجواد أسطورة الشرقية؟!

هزني ذكرها لاسم جدي.. هزني أن أذكر وجهه الطيب وأراه على وجهها البعيد.. هزني أن أشتم رائحة جلبابه العطرة تهب مع النسائم، التي تتراقص أمام الساقية، التي كان يحب الجلوس إليها.. شعرت بعبرة صغيرة، تطوف في عيني وهززت رأسي لها بالإيجاب كأني أقول: «نعم.. كان ذاك الرجل أسطورة!!».

ابتلعت الدمعة قبل أن تهرب من سكناها وبصوت هادئ أسكنته هي بسؤالها شجنًا بلا حدود، سألتها كأني أسأل السماء:

- من أنتِ؟!

اقتربت خطوة واحدة وقالت:

- أنا زهرة عائلة صفوان!!

***

زهرة عائلة صفوان!!

نعم عرفت كيف تصف نفسها، دون أن تقدم اسمها الحقيقي..

اسمها كان زهرة علي الورداني.. جدتها لأمها هي التي كانت من عائلة صفوان.

خرجت جدتها من الشرقية، وهي تحمل في أحشائها نجلاء والدة زهرتي، وزهرة عائلة صفوان.. خرجت لتترك كل مدن ومحافظات مصر وتستقر في القاهرة.. خرجت لتنجب نجلاء التي أنجبت بدورها تحية، ثم زهرة التي التحقت بالتعليم، وأنهت مراحله؛ لتترك هي الأخرى جميع جامعات وكليات مصر، وتلتحق بكلية الصيدلة في العام نفسه الذي التحقت أنا بها فيه.

لم يكن لها صداقات هي الأخرى.. لم تختر أحد شباب الكلية أو إحدى الكليات الأخرى.. ولدت وشبت ووصلت الجامعة فقط؛ لتختارني أنا دون سواي من كل شباب الأرض، وترميني بسؤال غير أسئلة النساء..

الآن يخيل لي أن قدري أنا وقدرها هما من أخرجا جدتها من أرضها، وهي تحمل أمها بذرة صغيرة في أحشائها فقط؛ لكي تلقي زهرة بجذورها على أرض قلبي الخاوية؛ لتنبت زهرًا وحبًّا وحنانًا وأيضًا ألمًا ودمعًا وفراقًا.. لا أظن أن قصة حب أخرى على الأرض رأته أو عرفته..

أخبرتني كيف تحكي أمها عن الشرقية، وكيف أخبرتها عن قصة الأسطورة منصور عبد الجواد، التي نقلتها عن جدتها فاطمة..

أخبرتني زهرة أنها تتمنى لو تذهب يومًا إلى الشرقية، وأخبرتها أن أجمل من في الشرقية رحلوا.. جدتها وجدي.. أذكر يومًا ترقرقت دمعة في عينيها، وهي تقول إنها عاشت زمنًا، تظن جدتها عاشقة لجدي.. لكنها ما ظنت أن الأرض تدور، والأيام تدور، وتقع هي في عشق حفيده..

أحبتني زهرة وأحببتها.. زرعت على وجهي ابتسامة، وفي قلبي رحمة، أعادت إلى رأسي كل ما قاله لي جدي عن حلاوة العطاء.. وعلمت أن العطاء يعلمك الحب، والحب يعلمك العطاء.

ابتسم حفيد الأسطورة.. ضحك وقهقه، بل وتعلم كم رائع إصدار الضحكات..

كانت زهرة منطلقة، وأصبحت بي أكثر انطلاقًا وصخبًا.. كان في ملامحها كثير من وجه أمي، ولونها وحنانها، أو هكذا صوَّرها الحب لي!!

غيَّرتني زهرة.. لا.. خلقتني من جديد..

أصبحت أكثر رقة مع طارق.. أصبحت أكثر رحمة بسائقنا وأكثر حنوًّا على أبي..

رأيت مع زهرة الڤيلات الصغيرة في بيتنا كأنها ما كانت من قبل.. بدأت أتابع أعمال البناء فيها، وأتخيل زهرة في كل ركن وكل مكان.. هل كنا غير كل العشاق، أم أن كل عاشق يرى نفسه وعشقه شيئًا آخر؟!

بيدي زرعت حوضًا من عصفور الجنة في حديقة بيتي القادم.. على باب البيت، غرست بكفي شجرة ليمون صغيرة؛ لأن زهرة تحب رائحة الليمون وأزهار عصفور الجنة.. علمتني كيف يصبح لعناقي لطارق رائحة، وكيف تهب منه نسائم حانية تدوم ساعات بعد العناق؟!

علمتني زهرة لغة الأزهار، وبعد شهور وبعد انتهاء العام الدراسي وشوقنا الطويل، اتفقنا على لقائنا الأول خارج أسوار الجامعة، بعيدًا عن أسلاك الهواتف والاتصالات..

كان والدها رجلًا صعب المراس، وكنت كثيرًا ما أراه يأتي ليأخذها من الجامعة.. تمنيت لو تقدمني له مرة واحدة، وإن كان بصفة الزميل.. لكنها أخبرتني أنها إن فعلت يومًا، فهذا يعني أن أحرم منها وتحرم مني العمر.

أخبرتني أن قصتي معها بكل تفاصيلها وتطوراتها، تنقل يومًا بيوم إلى أختها الكبرى تحية.. أخبرتني مرة أن تحية كانت ترفض تطور علاقتي بها إلى حب.. لأنها تخاف كثيرًا أن تخطئ الأم، وتذكر القصة أمام والد زهرة، الذي قد يقيم الدنيا ولا يقعدها؛ فتحية لها مع والدها والعشق تاريخ قديم، لم أسأل أي قصة وأي تاريخ.. فالحب لديه إجابة لكل الأسئلة، وزهرة كانت أحلى وأغلى إجابات عمري بأكمله..

اتفقنا على تمضية يوم بأكمله معًا.. رتبنا للقصة كأننا نرتب لسرقة بنك، أو السطو على مبنى المخابرات الأمريكية.. تحية رتبت كل شيء؛ حيث أخبرت والديها أن زهرة ستقضي اليوم معها ومع طفليها الصغيرين.

لا شيء يمكنه أن يثير الظنون.. زوج تحية كان في الإمارات العربية المتحدة، بحكم عمله في إحدى أكبر شركات الاستثمارات العقارية.

علي الورداني لا يزور ابنته أبدًا إلا في المناسبات والأعياد.. ونجلاء والدة زهرة لا تغادر البيت إلا للضرورة القصوى.. أنا أمر على زهرة في بيت تحية، وأعيدها في العاشرة مساء أيضًا هناك لتبيت الليلة معها.. كل شيء رتبت له زهرة وخططت له بدقة وحذر، فأي خطأ قد يكون ثمنه فادحًا وكبيرًا.

أنا أيضًا أخبرت والدي وطارق أني سأغيب يومًا بأكمله عن البيت.. يومًا أقضيه مع أصدقائي، حيث كنا في نهاية الإجازة السنوية لعامي الجامعي الأول.

كنت حديث عهد بالقيادة، فأنا قبل ذاك العام كنت أتنقل وطارق بصحبة سائق البيت، أو أحد سائقي الأحرار إن لزم الأمر.

كنت أعلم إلى أين سآخذ زهرة وإن كنت لَمْ أعلم لِمَ هذا الاختيار؟!

حين وقفت أسفل بيت تحية أنتظرها طغى على رأسي السؤال الكبير..

هل جننت لأصطحب الفتاة الرقيقة، التي أحبها إلى المكان الذي عزمت عليه؟!

نظرت في مرآة سيارتي وعدت أحاول أن أثني نفسي عما نويت، لكن انتفض رأسي وأنا أسمعها تنقر بأصابعها على زجاج نافذتي..

من خلف الزجاج، رأيت وجهها للمرة الأولى خارج أسوار الجامعة.. بدا وجهها في عينيَّ تلك اللحظة أكثر جمالًا وانطلاقًا وجنونًا.. زهرة جميلة.. في عينيها بريق صاخب لا ينطفئ أو هكذا كان.. بيضاء ككل بنات الشرقية.. حانية كأمي ونقية مثلها..

لم تنتظر كثيرًا خارج السيارة، بل مضت بعد تلك النقرات التي نقرتها على نافذتي لتدخل جواري قائلة:

- تحية تريدك.. أين أنت؟!

لحظات حتى فهمت.. لحظات حتى خرجت من سيارتي؛ لأبحث عن أختها بعينيَّ حيث وجدتها تقف بمدخل العمارة التي تسكنها..

كانت تحمل طفلها الرضيع على ذراعيها وتبتسم.. تقدمت نحوها في خجل، ومددت كفي أصافحها فقالت:

- إن حدث شيء سيكون هذا ذنبي وحدي.. لا تجعلني أكره نفسي وأقتلها لومًا..

وصلني بوضوح ما قصدته تحية من كلماتها، لكن الآن.. اليوم أعلم وتعلم زهرة وتحية أننا جميعًا قتلى..

مسكينة تحية.. لابد أن الألم يقتلها أكثر منا جميعًا.. علمت الآن أنها حقًّا أذنبت الذنب الكبير، يوم تركتني ألتقي زهرة، وتركتها تستسلم لقصتنا.. ذنب مازال يثمر آلامًا وأوجاعًا في قلب زهرة وقلبي..

لو علمت أنا يومها أن ما فعلته تحية كان ذنبًا إلى هذا الحد، لما أذنبته معها، ولكن من منا يعلم أو يرى أو يفكر، وهو في حالة حب؟!

انطلقت بزهرة وهي تثرثر وتتحدث كعادتها، وأنا لا أصغي ولا أسمع على عكس عادتي..

بطرف عيني اختلست إليها نظرة..

مجنونة زهرة.. مجنونة كبيرة لديها القدرة على إطلاق عشر نكات وخمس عشرة قصة وعشرين تعليقًا ساخرًا في لحظة واحدة تبقى فيها محتفظة برقة الزهرة ونعومتها.

الآن وأنا أكتب، أفكر كثيرًا هل أحببت زهرة بذاك الجنون لأنها كانت ما لم أعرف كيف أكون.. لا أعلم ولكن حين يصل الحب إلى نقطة ما بعينها، يصبح تفسيره أو تصنيفه هو العبث بعينه.

كانت تثرثر وتتحدث ضاحكة، وهي تصف كيف وقفت تعيد على مسامع تحية ما باتت ليلة بأكملها تلقنه لها عن الحدود والمسافات، التي يجب أن تقف عندها معي، وعن كيف يجب أن تتركني وتعود، دون حتى التفاتة واحدة، وإلى الأبد إن فكرت مجرد التفكير في أن أضع أصابعي على كفها..

هل كانت طفلة في جسد أنثى، أم أنثى في ثوب طفلة؟!

لا أعلم.. لكنها كانت حبيبتي وهذا يجعل منها كل شيء وأجمل شيء.

كان صوت صخب زهرة أعلى كثيرًا حتى من سرعة السيارة، التي تجاوزت المائة كيلو في الساعة، وفي لحظة استدرت إليها وصحت قائلًا:

- زهرة.. ألا تسألين إلى أين؟!

***

إلى أين يأخذ شاب الفتاة التي يحبها ويخرج بها منفردين للمرة الأولى؟! إلى أين يأخذ فتاة جميلة صاخبة منطلقة، ونقية بعد ما يقارب عامًا من الحلم والأمل في أن ينفرد بها؟!

إلى الشرقية.. أخذتها إلى الساقية.. إلى مدفن عائلتنا.. نعم «الجبَّانة» .. سيدتي.. كما يدعوها فلاحو الشرقية.

زهرة لم تسألني إلى أين حتى بعد أن صحت بها.. قالت إنه لا يعنيها أبدًا إلى أين مادامت معي ومادمت معها.

في القبور كان لقاؤنا الأول.. أمام الساقية التي تطل على مدفن عائلتنا، جلست بها في هدوء.. في المكان ذاته الذي كان يجلس فيه جدي «أسطورة الشرقية»، كما كانت تدعوه.. جلست وقلت، في هدوء، وأنا أشير بيدي إلى الجهة اليسرى من مدفن عائلتنا:

- أمي يا زهرة ترقد هنا..

بعدها قرأت الفاتحة، ثم قلت في صوت خفيض:

- أمي.. أقدم لك زهرة عائلة صفوان و.. حبيبتي!!!

أخبرت زهرة عن كل شيء.. أخبرتها حتى عن مسعد اليتيم وقطعة الحلوى وقصة العطاء..

أخبرتها عن جدي وجدها، والصورة الباقية في رأسي منه.

أشرت لها بيدي إلى كل الأراضي الواسعة، التي كانت يومًا لنا، وباعها والدي ليترك الشرقية، كأنه كره الحياة فيها، أو كأنه يهرب من أشباح ليت القدر ما قدر لي أن أعرفها يومًا..

كانت ساكنة هادئة، كأنها تحولت في لحظة إلى قطة صغيرة وديعة، وما كانت أبدًا منذ لحظات أمطارًا وأمواجًا وألحانًا.

رأيتها تتحرك بعينيها من خلف دمعات صغيرة، غلفت عينيها البنيتين الواسعتين، ترقب كل شيء كأنها ترسمه في رأسه، أو ترسم عليه وجودها وحضورها.. وبعد لحظات سمعتها تقول في صوت هادئ حنون ، يخلو من صخبها وانطلاقها وجنونها.. سمعتها تقول:

- رؤوف.. أنا أحبك!!

***

تلك كانت زهرة، وذاك كان لقاؤنا الأول، وكانت كلمة الحب الأولى بيننا.. منها لا مني أنا..

أخبرتني أنها كانت تحلم بزيارة الشرقية.. أخبرتني أنها كانت تتمنى لو تزور أقارب جدتها.. أخبرتني أن جدتها لأمها «فاطمة» تركت الشرقية، وأقسمت على ابنتها والدة زهرة ألا تدخلها، وكيف كان شرطها الوحيد في زواجها من علي الورداني، ألا يلقى والدها أو يخطبها منه.. أخبرتني أن هناك لغزاً تتمنى لو تجوب هي بيوت الشرقية، وتسأل سكانها فردًا فردًا عنه.. لكنه ما عاد يعنيها.

ما عاد السر يعنيها بعد أن أرسل الله لها رجلًا من أرض أجدادها المهجورة.. أرسل لها وحدها من تراه هي أسطورة عمرها!!

هي من وضعت أصابعها على كفي، وأغمضت عينيها وهي تهمس:

- رؤوف.. عدني أن تبقى العمر في عمري...

في السابعة أخذنا طريق العودة إلى منزل تحية، وفي طريق العودة مالت برأسها على كتفي، وما رفعته إلا على أطراف القاهرة..

تمنيت لو أتسلل بأصابعي إلى شعرها أو وجهها.. لكني ما نسيت كلمات تحية ولا وعدي لها.

زهرة وحدها قالت كلمة الحب الأولى.. ووحدها ضمت كفي بين أصابعها.. ووحدها ألقت برأسها على كتفي.

حين وصلنا إلى منطقة روكسي، حيث تسكن تحية وحيث غادرت السيارة، وقبل أن تختفي عن عيني، مددت كفي أصافحها كأني أتزود من أصابعها بلمسة أخيرة، وقلت وأصابعها بين كفي:

- زهرة.. أنت زوجتي!!

***

نعم.. تزوجت زهرة في نهاية عامي الجامعي الأول... تزوجتها في تلك اللحظة، التي أعدتها فيها إلى بيت أختها، بعد يوم قضيناه في مدافن عائلتي بالشرقية..

عدت إلى المنصورية، وأنا أشعر أني ما عدت ابنًا لتوفيق عبد الجواد فحسب ولا أبًا وأخًا لطارق.. لكني عدت وبداخلي فرحة «عريس»، تزوج للتو حبيبة عمره بأكمله..

عدت زوجًا لزهرة، بعد أن أعلنت وأصابعها بين كفي أنها زوجتي، وبعد أن أغمضت عينيها كأنها تعلن موافقتها ورضاها.. أوليس هذا هو الزواج؟! قبول وإيجاب بين طرفين، لا موانع دينية أو شرعية لديهما..

نعم هذا هو الزواج.. الزواج ليس عقدًا أو جنسًا، لكنه توحد روحين وقلبين في مواجهة كل الأقدار.. أصبحت زهرة زوجتي.. منحتها كل شيء وشاركتني كل شيء.. أصبحت عندها وأصبحت عندي الحياة والروح..

ما نسيت كلمات تحية، وما امتدت كفي يومًا نحو جسدها، ولا حتى تجولت بعيني عليه.. الأزواج غالبًا لا يفعلون..

هي لي وأنا لها.. هي مني وأنا منها.. أنا أولى الناس بالحفاظ عليها أمام ربي.. أنا أولى الناس بالدفاع عنها أمام الشيطان، إن عبث برأسها أو رأسي لحظة..

ذاك كان الحب وذاك كان الزواج.. بقيت زهرة حبيبتي وزوجتي النقية، التي لم تُمس حتى يوم الفراق!!

كيف يغسل الحب الصادق قبح الأقدار وظلمها؟!

كيف يمد يده الطاهرة، ويرسم سيفًا ويمسك به في يده البضة، ويوهمنا أنه قادر على مواجهة الأقدار؟!

كل جميل ضعيف.. كل رائع عمره قليل ونهايته موت وضياع..

الحب هو أجمل الأشياء وأروعها على الإطلاق، لهذا هو ضعيف، وعمره وإن طال دومًا قصير..

هل سمعت عن جبل خلقه الله صغيرًا ثم كبر؟!

أبدًا.. الحب الكبير يولد في قلوبنا كبيرًا؛ لهذا تبصره أعيننا وأرواحنا لحظة نلقاه..

لكن حتى الجبال العالية، قد تصبح في لحظة كومًا من الرماد!!

***

كان طارق في نهاية المرحلة الإعدادية، عندما بدأت مشاكله تكبر لتتضاءل أمامها كل قدراتي على إخفائها وعلاجها..

بدأ يتسلل إلى سيارتي، ويجوب بها شوارع المنصورية الخاوية تمامًا في ذاك الوقت.. بدأت أسمعه وهو مازال في الرابعة عشرة من عمره يحادث فتيات ويتبادل معهن أحاديث ونكاتًا لا تتناسب أبدًا مع أعوام عمره..

كانت الدهشة تأكلني، وأنا أسأل نفسي من أين له أن يعرفهن، وكيف يصل إليهن، ونحن محرم علينا دخول النساء إلى البيت أو الشركة التي نعمل فيها في الإجازات الصيفية.. لكن علمت أن طارق يصل إليهن من خلال زملائه.

طارق وسيم خفيف الظل، سريع البديهة، يهتم بأناقته، وجيوبه دومًا زاخرة بالنقود من عمله في الشركة، ومن مصروفه الكبير، ومني إن شاء الزيادة.

كل هذا كان كفيلًا بأن تحبه الفتيات؛ خاصة بعد أن بدأ اسم عائلة عبد الجواد وشركة دوائها يعلو في سوق الازدهار والشهرة..

كنت أحاول معه كثيرًا.. لكنه ما سمعني يومًا، بل دومًا ومنذ طفولته كنت أشعر أنه يسخر مني، ومن تفكيري، وتعاملي مع البشر والمشاعر والأمور.

قديمًا قالوا: «قل لي من صديقك، أقل لك من أنت».

أنا سيدتي علمتني تجاربي أن «قل لي ماذا تقرأ.. ماذا تسمع من موسيقى وأغانٍ، أقل لك من أنت».

كل موسيقاه التي يحب كانت صاخبة مجنونة.. كل الأفلام التي يشاهدها، كانت أفلام العنف والجنس والمخدرات.

أما الكتب.. أما السطور التي نهدأ جميعًا عند تجوُّل أعيننا وأوراحنا عليها.. الكتب.. الشيء الوحيد الذي نختاره بما يحاكي ضمائرنا، ويوافق رؤوسنا.. فلقد كانت وحدها ترفع مؤشر ترمومتر قلقي على شقيقي ووليدي حتى الجنون.

طارق كان يهزأ من كتب الشعر وروايات الأدب.. حتى تلك النصوص الشعرية المقررة عليه دراستها لشكسبير أو تي – إس – إليوت، كان يراها ضربًا من الغباء والتخلف.. كنت أراها وحدها آخر أقراص، يمكن لطارق أن يتناولها ليبقي في روحه على آخر نسائم الحب والإنسانية، وكان يراها شرابًا مرًّا كأنه سم الأفاعي.

طارق لا يقرأ سوى كتب التاريخ وقصص الأثرياء، الذين صنعوا ثروات بلا حدود، ويحلم بشراء جزر وامتلاك طائرات ومراقصة عارضات الأزياء العالميات.. ورغم هذا بقي طارق في قلبي ذاك الطفل الصغير، الذي حملته قطعة صغيرة خرجت، وبقيت وحدها من جسد أمي وروحها الفقيدة.. بقي في قلبي ورأسي لوحة صغيرة بيضاء، كان من الممكن أن تصبح صورة لبحيرة هادئة، ترقص على فضائها طيور بيضاء صغيرة.. لكنني وحدي بحماقتي وموت أمي وجمود والدي، خططت عليها خطوطًا سوداء من ذنوب، لم أغفرها لنفسي لحظة..

بقيت وبقي طارق أيضًا قطعة السكر، التي يضعها والدي في فمه كل مساء مغمضًا عينيه عن كل مؤشرات قسوته وانحرافه.. كأنه هو الآخر يهرب من ذنب حرمانه من أمه، واقتلاعه من بلدته وأهله، الذين ما عدنا لهم سوى ذكرى وقصة تنسى يومًا بعد يوم إلا من رؤوس قليلة.. رؤوس عاشت وأحبت جدي أو والدي.. لكن بقي رأس كبير لم ينسنا.. رأس كبير يختزن قصتنا وماضينا، ويعمل في صمت، ويدبر لنا جميعًا ما يعاقبنا به على أخطاء ارتكبناها بقصد أو دون قصد.. «حسن النوايا» ليست قضيته.. لكن الثأر والألم هما غايته.

ذاك الرأس الذي لا ينسى.. الرأس الذي يضحك ويبتسم، وهو يشحذ سكينه ليطلقه على من يشاء حين يشاء..

رأس اسمه القدر!!

***

القدر أبدًا لا يفاجئنا بصفعاته، بل هو يرسل رسائل صغيرة، وشارات تحذيرية.. نحن وحدنا من نغلق أعيننا عنها إن لم تلاقِ هوانا..

الأيام والأقدار لا تخدعنا.. فلا أمهر ولا أقدر من البشر على خداع أنفسهم..

القدر كان يلوح بأصابعه، محذرًا منبهًا إلى ما تتشكل عليه روح طارق.. لكن أنا وأبي نترجمها طيش مراهق وحرمان يتيم..

القدر أشعل أضواء صغيرة؛ لأرى بها ما ينتظرني أنا وزهرة.. لكنني أغمضت عيني عن كل تلك الأضواء الخاطفة، وأطفأتها بلهفتي عليها وحنوها وتمسكها بي..

لِمَ نتجاهل كل تحذيرات القدر، ونغضب ونلعنه حتى لا يجد أمامه مفر سوى تسديد ضرباته الكبرى؟!

الأقدار لا تصنع أيامنا.. وحدنا من نصنع أقدارنا!!

في العام الجامعي الثالث، كان يجب أن أفتح عينيَّ اللتين أغلقهما الحب جيدًا، عندما حدث ذاك الصدام الرهيب بيني وبين والدي.. في ذاك العام، كانت بداية تدريبات طلبة الصيدلة العملية.. كان يجب أن نقوم بالتدريب العملي.. إما في الصيدليات، أو في إحدى شركات ومصانع الأدوية.

أخبرت زهرة أنها ستتدرب معي في مصانع الأحرار وشركاتها.. هل كان من الممكن أن أترك زوجتي، تتدرب بعيدًا عني وعن ما يملكه زوجها وعائلته.. في الأعوام الثلاثة بالكلية، وفي قاعات المحاضرات وردهات المباني وأروقة المعامل.. كان كل زملائي من الطلبة والطالبات، يتركون المقعد المجاور لها إن جلست عليه، أو لي أنا إن جلست عليه زهرة الورداني.. أخبرت والدي أنني سأحضر زميلتي معي إلى التدريب العملي في شركة الأحرار.

مازالت صيحة الرفض الهادرة، التي أطلقها تزلزل روحي، وتحملني ألف ألف شعور بالذنب تجاه زهرة..

صاح توفيق عبد الجواد هادرًا ألا امرأة تدخل مصانع الأحرار..

أخبرته أنها ليست فتاة عادية.. أخبرته أنها حبيبتي.. إنها المرأة التي سأتزوجها فور تخرجي في الجامعة.

كان صعبًا على قلبي ورأسي ورجولتي أن تذهب زهرة، تتلقى تدريبها العملي في صيدليات الغرباء ولا تأتي إلى مصنع الأحرار معي.. شعرت أن هذا سيجعلني أبدو أمامها ضئيلًا صغيرًا بلا قيمة أو كلمة.

حاولت كثيرًا مع والدي.. حاولت وصحت أخبره أن فتاتي وحبيبتي لها أصول شرقاوية.. لم أخبره أبدًا أنها حفيدة صفوان... ولم يسألني هو أيضًا أو حتى يمنحني الفرصة لأخبره بعائلتها أو تاريخها..

هو رجل الجمل القصيرة والسهام الصغيرة القاتلة..

عبد الجواد أعلن يومها أن حبيبتي أو زميلتي أو حتى زوجتي، إن كنت تزوجتها، لن تطأ قدمها يومًا مكانًا سوى البيت.. سوى فراشي وغرفة الطعام..

النساء محرمات على صرح هو بالروح والعمر بناه.. النساء في لحظة تأتي على الصروح أرضًا..

وقف والدي يومها يقسم بأنها لو خرجت من احشاء بهيجة أمي لا من الشرقية.. لو كانت شقيقتي ما سمح لها بدخول المصنع.

وضع توفيق عبد الجواد يومها كفيه على كتفيَّ ليهزني في عنف صائحًا:

- رؤوف.. لا تدع امرأة تحطم كل شيء.. أحبَّها كما تشاء.. تزوجها.. أنجبْ منها.. لكن لا تدع امرأة ترافقك في عمل أو قرار أبدًا حتى بعد موتي..

كنت تائهًا زائغ العينين، وهو يهزني في قوة.. كان يريدني أن أفهم الدرس، وكنت أنا فقط أفكر فيما أقول لزهرة وكيف أتركها تخرج وحدها دوني إلى التدريبات العملية..

لم أحاول حتى أن أكون شجاعًا، وأخبره أنها حفيدة وديع صفوان لأني أذكر عدم ارتياحه له.. لكن هذا هو حال العشاق والحمقى، الذين يغمضون أعينهم عن شارات القدر، ثم يلعنونه حين يُسقطهم بعد تجاهلها، مضرجين في دمائهم!!

كانت زهرة تخطط لتدريبات الصيف في مصانعنا.. وكانت أيضًا توقن بأنها ستلتحق بالعمل فيها بعد تخرجنا.. كنت أحلم بأن يتغير موقف والدي منها.. لكن بعد ذاك اليوم الصاخب، علمت أن الأحلام هي ذاك الشيء، الذي لا صلة له بالواقع..

الأحلام هي تلك السماء التي نطيل النظر إليها؛ حتى تختلط الرؤى في أعيننا، ونظن أننا نخطو عليها، وأن بإمكاننا أن نحتويها بين أصابعنا فقط لو مددنا يدنا نحوها.. ولكن سيدتي مع أي صيحة تأتينا.. مع أي صوت ينادينا، نفتح أعيننا ونضع أقدامنا على الأرض؛ لأنها وحدها خلقت للخطى.. فلا السماء تطال ولا الأحلام تتحقق!

عندما وضعت قدمي على أرض الواقع.. عندما فتحت عينيَّ، أخبرت زهرة في هدوء أنني لن أقوم بالتدريبات في مصانع الأحرار، بل سأخرج معها إلى الصيدليات أو في أي شركة أخرى.. أخبرتها أن والدي لا يريد أبدًا أن يكون أول احتكاكه مع عروس ابنه على أرض العمل..

كنت أخشى غضبها.. كنت حقًّا أخاف دهشتها وتكسّر خططها.. لكن فوجئت بزهرة تبتسم قائلة:

- لم أكن أعرف أن والدك حكيم إلى هذا الحد.

انطلقت كعادتها تشرح لي أنها هي الأخرى كانت تتمنى ألا تذهب معي.. أمسكت زهرة بكفي بين كفيها يومها، وهي تقسم أنها غرقت في هوى والدي وهوى حكمته..

أغمضت عينيها هي الأخرى عن شارات القدر التحذيرية، خلقت لنفسها أعذارًا، ورسمت تبريرات لتبقى السماء أرضها وأرضي، التي نظن أن بإمكان أصابعنا أن تضمها متى شئنا..

لو أنها ثارت.. لو أنها سألت، لثرت أنا أكثر وسألت، وانفجرت ووفرت على قلبي وقلبها مشهد النهاية الدامي..

حمقى كل العشاق.. حمقى كل من يظنون السماء أرضهم..

هي رسمت من توفيق عبد الجواد بطلًا وحكيمًا، وأنا رأيتها أكثر رقة ونقاء من حبات المطر.. لم نكن نعلم أننا بتجاهلنا لإشاراته كنا نستثير جنون القدر أكثر وأكثر..

***

خرجت زهرة لتلقي التدريبات الصيفية وحدها في صيدلية مجاورة لبيتهم، وخرجت أنا إلى مصنع أدويتنا..

هكذا أرادت زهرة.. فأنا يجب أن أهتم فقط بالتركيبات الصناعية Pharmacolgy ، وهي علم الأدوية وتأثيرها على الجسم؛ لأنني على حد قولها لن أعمل يومًا في صيدلية، ولن أفكر في شيء سوى إكمال مسيرة عائلتنا، التي بدأت تقترب من احتلال المراكز المتقدمة والصفوف الأولى، بين جميع مصانع وشركات الأدوية المصرية..

كنا نمضي ساعتين يوميًّا في سيارتي في الشارع الخلفي للصيدلية، التي تعمل بها.. نادرًا ما كنا نتحرك بالسيارة خطوة خطوة..

الخطوة معناها أن أنشغل عنها بالقيادة والبحث والتفكير عن وجهتنا.. الخطوة معناها أننا قد نتأخر عن والدها، وعن موعد العودة إلى المنزل؛ حيث يجب أن تكون على باب الصيدلية لحظة وصوله، وإلا قامت الدنيا وما سقطت إلا على رأسها ورأسي!!

دومًا تحكي عن كل ما حدث في يومها، وأنا أحكي عن كل ما سيحدث في أيامنا القادمة.. وحدها تتسلل بأصابعها إلى كفي، لحظة دخولها سيارتي، ولا أترك أنا كفها إلا حين يحين موعد لقائها بوالدها علي الورداني!!

كنت دومًا أعدُّها لحياتها في بيت المنصورية.. كنت دومًا ألقي لها تلميحات عن جموح طارق وقسوة والده.. وكانت دومًا تردد أن بيت المنصورية وسكانه أرض بكر، ستزهر وتثمر عندما تلمس تربتها كف امرأة لأول مرة..

كانت دومًا تؤكد أن بيت المنصورية مهمتها الكبرى، التي لن تفشل فيها أبدًا..

كانت تقسم أن الحب والحنان وحدهما ينقصان طارق؛ ليصبح شيئًا آخر، وهما أيضًا ما سيجعلان من توفيق عبد الجواد رجلًا آخر..

صدقتها.. كنت مؤمنًا بها.. بحنانها وجنونها.. بانطلاقتها وسكونها.. كنت مبشرًا ومستبشرًا.. لم أتوقف لحظة أسأل نفسي فيها أي حب وحنان من فتاة ضئيلة صغيرة، يغسل عن رأس والدي ما لم يستطع حب بهيجة أن يفعله..

أي حب وحنان تدخل به عاشقة حمقاء كزهرة، يمكنه أن يصنع من طارق شيئًا، لم يستطع حبي أنا وجنوني وجنون والدي أن يفعله..

أغمضت رأسي وأسلمت عينيّ ورأسها لوهم الحب وخديعة الأحلام ورأيت معها ما لا تراه عين الحقيقة يومًا..

كنت في ردهات مصنع الأدوية، أتحرك صباح كل يوم من أيام الإجازة الصيفية.. أتابع تصنيع الأدوية، وأكتب التقارير عن تأثير كل مادة فعالة بها على جسم الإنسان بنشاط عملاق جبار، فأنا تحت تأثير الحب والحلم والوهم واقع حتى الثمالة وحتى النخاع..

كنت أتحرك في قوة كنسر وهي معي.. تسكنني.. تمد شراييني بما تعجز عنه أدوية الأرض ومقوياتها.. تغسل روحي بما تعجز عنه أمطار الدنيا وشلالاتها..

زهرة كانت تغذي عروقي بالحب، وتحقن جسدي بمخدر الوهم الكبير..!

***

متى جُنّ آدم عليه السلام بالتفاحة؟! متى أصبحت هاجسه وحلمه وكابوس أيامه؟!

متى أصبحت التفاحة في عينيه أحلى وأغلى من جنات عدن؟

عندما حُرِّمت عليه..

هذا هو حال آدم، وكل من خرجوا من ظهره وجاءوا من بعده.. إن أنا أطلت الحديث عن زهرة.. إن أنا أسهبت في وصفها، وتشدقت أكثر مما ينبغي بنقائها وجمالها ورقة جفونها.. اغفري لي سيدتي؛ فنحن نجن بالأشياء بعد أن نفقدها، ونصبح جميعًا شعراء ورواة، نخط القصائد عن روعتها، فقط بعد أن نحرم منها وتُحرّم علينا.

بلغنا أنا وزهرة ذروة العشق والجنون، بعد تخرجنا في الجامعة.. قد لا تصدقين أننا، أنا وهي، حصلنا على نفس المجموع ونفس التقدير.. كان ترتيبي الثالث على الدفعة، وكانت هي الثالث مكرر.. أنا لم أسجل للدراسات العليا، فطريقي في مصانع الدواء كان واضحًا، ومقعدي فيها كان في انتظاري..

في عام الخدمة العسكرية، فعل القدر فعلته الكبرى.. طار بنا إلى قمة الهوى لا ليسعدنا، ولكن لنهوي بعدها ويكون ارتطامنا أكثر دويًّا وإيلامًا!!

ذاك العام سافر زوج تحية إلى الإمارات، وأيضًا صاحَبَهُ والد زهرة بعد تقاعده للعمل هناك..

علي الورداني ما عاد موجودًا لتخافه زهرة.. تحية التي تحبني وتحبها وتحب قصة هوانا، أصبحت وحيدة في بيتها، وبحاجة إلى وجود زهرة معها..

كنت أتوجه يوميًّا لأمضي ساعات قليلة في سلاح الخدمات الطبية، الساعات نفسها التي تقضيها هي في تكليف الخدمة الاجتماعية في وزارة الصحة.. ساعات نقضي بعدها كل يوم ساعات طويلة معًا..

لم نترك شارعًا في القاهرة دون أن نباركه.. لم ندع شجرة دون أن نرسم عليها بصمات أصابعنا.. لم ندع زهرة دون أن نهديها قبلة، ولم أكن أدع أنا زهرتي إلا في العاشرة مساء لتعود إلى بيت تحية، وأعود إلى بيت المنصورية حيث نتبادل الرسائل الإليكترونية، أو عبر هواتفنا الصغيرة.

عاشق كبير.. عاشق صادق ذاك الذي اخترع أجهزة الكمبيوتر، وأجهزة المحمول.. عاشق بل وأراهن أنه كان يسكن بعيدًا عن محبوبته.. عاشق أراد لكلماته أن تصل إلى عينيه قبل أذنيها..

كنا نتحادث دومًا في طريق عودتي إلى البيت، ونتبادل الرسائل وأنا في فراشي، وهي تستعد للنوم في فراشها.

كانت رسائل زهرة دومًا قصيرة.. لكنها تخلق وسادة وحكاية وأسطورة..

أذكر أنها مرة أرسلت تقول:

«هلا غادرت جفوني، لأعرف كيف أغلقهما وأنام؟!».

أذكر يومًا لم نستطع أن نلتقي فيه؛ لأنها اضطرت للبقاء في البيت مع أبناء تحية، التي اصطحبت أمها إلى الطبيب.. أذكر ذاك اليوم.. تلك الرسالة الصغيرة، التي بقيت أعوامًا على هاتفي لا أمحوها..

قالت زهرة يومها:

«من يظنون الحروب والفقر والموت هي الألم ما عرفوا الفراق ليلة..».

ليلة يا سيدتي كانت عندي وعندها أشد ألمًا من الحروب والفقر والموت..

أتخيل المجهول، وهو يقهقه ضاحكًا، عندما كتبت حروفها تلك.. أتخيله يستلقي على الأرض من شدة سخريته وضحكه وهو يعد لنا ليالي طويلة من الفراق..

في نهاية عام خدمتي العسكرية، وبعد أن انتهى طارق من أداء امتحانات الثانوية العامة، وحيث كنا جميعًا ننتظر..

هو ينتظر دخوله إلى الجامعة وأنا أنتظر حصولي على شهادة إنهاء الخدمة، وبدء العمل، وخطبتي لزهرة، والتي وعدني والدي بإتمامها يوم جلوسي على مقعدي في الشركة، وعند عودة زوج تحية وأبيها في إجازتهما السنوية..

كانت هناك ليالٍ قليلة وليالٍ غير ليالينا تنتظرها وتنتظرني.. ليالي قليلة بإمكانها أن ترسم وتلون كل ما تبقى من ليالي العمر..

الليلة الأولى بدت في بداياتها ككل الليالي.. على باب تحية تركتها، وعلى باب بيت المنصورية أغلقت الخط، بعد أن اطمأنت على وصولي.. على شرفتي كنت أقف، وعلى وجهي ابتسامة من رسالة، جاءتني من زهرة تأمرني فيها بالدخول إلى فراشي، ولكن ما كان من الممكن أن أنام، وأنا أعلم أن طارق ما عاد إلى البيت بعد..

كنت أعلم أنه كعادته يتجول بسيارة المنزل في شوارع المنصورية الخاوية.. كنت أعلم أنه يقودها دومًا في الليل، بعد استغراق والدي في النوم.. لكن اعتياد الخطأ قد يجعله صوابًا بعض الأحيان.. اعتيادي لفعلته تلك جعلته أقرب إلى الروتين، ولكن ما لم أعتده أبدًا أن أنام دون عودته..

من شرفتي، وقبل أن أجيب على رسالة زهرة رأيته يدخل بالسيارة.. كدت أستدير وأدخل إلى فراشي.. لكن رسالة أخرى دق جرس وصولها من زهرة، جعلتني أبقى لأفتحها، وقبل أن أفعل رأيت طارق يحوم حول السيارة ويتحسسها بكفيه بطريقة مريبة، أثارت في قلبي ظنونًا، جعلتني ألقي بهاتفي في جيبي الصغير، دون حتى أن أفتح رسالة زهرة، وأتابع ما يفعله..

رأيته يركض ليحضر إناءً كبيرًا به ماء، محاولًا أن يغسل بعض أجزاء من جسم السيارة.. كان يتحرك في عصبية وجنون.. كان كفأر مذعور.. تارة يفتح أبوابها، ويدخل إلى مقاعدها الخلفية.. وتارة أخرى يعود لغسل الأجزاء الأمامية ذاتها.

فقدت السيطرة على نفسي، وأنا أراه يلقي بقطعة القماش، التي كانت في يده بعيدًا ويلطم رأسه في جنون..

ركضت إليه في جنون أكبر.. صرخنا كثيرًا.. هو ينكر، وأنا أسأل ولا أفهم أو أتلقى منه أي إجابة..

فتحت باب السيارة الخلفي؛ علني أجد ما كان يبحث عنه.. وجدت بقايا سجائر، وأخرجت من أسفل مقاعدها قطعة نسائية صغيرة.. كان في السيارة امرأة وعلى مقاعدها الخلفية نزعت ثيابها.. لكن لِمَ تركت هذه القطعة؟! ولماذا يقف هو مذعورًا؟! ولماذا يحاول أن يغسل هيكل السيارة الخارجي؟! ماذا يغسل عنها؟!

حاول طارق الإفلات من كفي.. حاول بكل مراوغته، التي أعرف مهارتها ودناءتها.. لكن ما كان من الممكن أبدًا أن أتركه..

ما كان من الممكن أبدًا أن أستسلم لتلك القصص الواهية، التي ادعى فيها أن بعضًا من أصدقائه أخذوا السيارة ساعات، وأعادوها له على تلك الحال.. طارق كان يعلم جيدًا ما الذي يبحث عنه، وما الذي يحاول إخفاءه؛ مما يعني أنه كان شريكًا في كل ما دار..

على البعد رأيت قطعة القماش التي ألقاها بعيدًا، وأنا أراه يلطم رأسه من شرفتي.. عندما التقطتها وجدت عليها آثار دماء حمراء.. صرخت في جنون.. هل كانت عذراء واغتصبوها.. لكن من يغتصب امرأة على هيكل السيارة الخارجي، إن خلعوا عنها ملابسها على المقاعد الخلفية..

سقط طارق منهارًا بعد ما يقارب الساعة من مراوغات دنيئة.. معترفًا..

كان هو وصديق له، ومعهما غانية صغيرة التقطاها من منطقة العجوزة.. ضاجعها طارق بينما كان صديقه يتولى القيادة في شوارع المنصورية، التي يعرفها طارق جيدًا، وحين حان دور صديقه تولى هو القيادة تاركًا صديقه معها على المقعد الخلفي..

شقيقي الذي لم يتم التاسعة عشرة من عمره، يضاجع غانية ومعه طفل آخر في طرقات مظلمة، وأنا.. أنا الذي شارفت على إنهاء خدمتي العسكرية لم تلمس شفاهي شفاه امرأة هي حبيبتي، التي لم أفارقها رغم أني اختليت بها ساعات طويلة أكثر من خمسة أعوام.

قبل أن أفيق من أفكاري تلك، سألته عن سر الدماء فصرخ يخبرني أنه صدم رجلًا بجوار بيتنا في أحد الشوارع البعيدة..

أماتني ما سمعت، وما أحياني منه سوى بكاء طارق وانهياره الكامل، عندما أخذ يردد أن الرجل مات.. مات منذ أكثر من ساعات ثلاث..

أين كان طارق ساعات ثلاث، والجريمة لا يفصلنا عن أرضها سوى دقائق خمس؟!

المجنون عاد بصديقه والغانية من حيث جاء بهما..

لطمته في جنون وأنا أصيح:

- تترك رجلًا يصارع الموت لتعيد غانية وفاجرًا إلى بيتهما..

طارق كان يبكي وهو يصيح:

- الرجل مات.. مات..

رفض طارق أن يأتي معي إلى مسرح الجريمة.. رفض أن يصاحبني، بل رجاني كثيرًا ألا أذهب.. لكنني أمسكت بعنقه بين كفي، وزججت بجسده المرتعش إلى السيارة، وأدرتها في جنون إلى حيث وصف لي..

حين وصلنا رأينا الجسد ملقى في المكان ذاته، الذي أخبرني به طارق.. غادرت السيارة وتوجهت إليه.. أمسكت بكفه بين أصابعي، أبحث عن نبض، وإن كانت نبضة صغيرة خافتة..

شعرت بانتفاضة كفه بين أصابعي.. صحت أنادي طارق أخبره أن الرجل مازال حيًّا رغم دمائه، التي كست أسفلت الشارع الأسود..

طارق خرج من السيارة، وتقدم وهو يصيح مرتجفًا:

- لقد مات.. لا تحاول.. هو ميت.

أطلقت الكف الضعيفة من بين أصابعي، وأنا أصيح:

الرجل لم يمت.. احمله معي.. سنأخذه إلى أي مستشفى.. لم يمت يا طارق..

لكن طارق لم يجب.. كان يركض كالمجنون، وهو يصيح مرددًا:

- مات وأنا لن أذهب معك..

حاولت أن أركض خلفه.. حاولت أن أعود به.. لكن تلك الكف الضعيفة رأيتها تلوح لي، وبصوت باكٍ ضعيف سمعته يقول:

لا تترك الذئاب تنهش جسدي.. أرجوك..

كيف حملت ذاك الجسد وحدي.. كيف احتملت أنات الألم الهادرة، التي انطلقت منه، وأنا أرفع ساقه المتدلية الغارقة في دمائها، والتي كانت متهتكة حتى أنني خشيت أن تسقط عن جسده..

لا أعلم كيف حملته.. لا أعلم كيف احتملت ذاك الأنين، الذي كان يمزقني.. لكني بآيات الله كنت أستعين.. بكلمات جدي التي كان يوصيني بها لحظة ولادة أمي لطارق: «يارؤوف.. قل يا رحيم»!!

على مقعد السيارة الخلفي، الذي فارقته غانية منذ ساعات وضعته، وأنا أردد «يا رحيم» ..

انطلقت بسيارتي إلى اللامعلوم..

كان الرجل يفيق وأسمعه يتألم، وأستدير إليه كأني أرجوه ألا يتحدث.. كنت تائهًا.. كأني ما عشت يومًا على أرض مصر، ولا أعرف فيها شارعًا أو مستشفى..

كنت أبكي في جنون، وأنا أصيح من أسأل.. من يساعدني.. من يخبرني ماذا أفعل وأين أذهب؟!

كانت كفي مضرجة بدمه وتراب الأرض، وكانت رأسي لا شيء فيها، سوى أنات ألمه وصرخات طارق وكلمة جدي «يا رحيم» ..

دون وعي مني، تحسست جسدي، وأخرجت الهاتف الصغير لا غيرها أعرفه.. لا غيرها ألجأ إليه.. فمن صنعت الفرحة وحدها، تمسح الدمع وتعبر بي الأزمات..

فتحت زهرة الخط، وهي تقول في لوم:

- هو وقت النوم والرسائل فقط..

صحت في جنون أستغيث بها.. نعم.. استغاث الرجل بفتاة شابة نائمة في فراشها، لا تملك سيارة تأتيني بها، أو رجلًا يصاحبها.. لكن ما كان لي على الأرض سواها وسوى قلبها..

أخبرتها في جنون، وصاحت كأنها ألف رجل تقول:

- توجه به إلى مستشفى الهرم. هو أقرب نقطة لك. اسمع.. قد يقبضون عليك.. حتمًا سيظنونك الفاعل.. لا تقل كلمة.. لا تقل كلمة واحدة..

ستجدني عندك، ربما قبل أن تصل..

هل تشاهدين الرجال في الأفلام والروايات، يمنعون المرأة التي يحبونها عن الخروج ليلًا وحدها لتساعدهم؟! ألم تقرئي مثلي في ألف رواية عن رجل في موقف صعب يقول لامرأته التي يحب: «ابقي مكانك.. أنا رجل، وسأعلم ماذا أفعل»؟!

في الواقع.. في الحقيقة.. في اللحظات العاصفة المؤلمة، وفي العشق الصادق.. الرجل طفل صغير.. الرجل الذي بداخلي صاح قائلًا:

- زهرة.. لا تتركيني!!

***

لم يكن معي نقود.. لم يكن معي حتى تحقيق شخصية أو رخصة قيادة.. السيارة التي صدمت بهاء كانت باسم والدي، ولا يقودها سوى سائقي المصنع أو سائق البيت..

لم يكن معي سوى خوفي وهاتفي وحبي.. حين أخذوا بهاء وركضوا به إلى حيث لا أعلم.. حين جاء أمين الشرطة الموجود في المستشفى، يخبرني أنه متحفظ عليّ، وأنني لن أغادر المكان إلا إلى قسم الشرطة.. وقفت في ردهة المستشفى أفكر.. لا طريق أمامي سوى الاعتراف بأنني أنا من صدم الرجل بسيارته.. طارق لا يحتمل أن يُتهم.. هو حتى لا يملك رخصة قيادة.. بل أيضًا تركه ساعات على أسفلت الطريق الخاوي المظلم.

نعم.. سأخبرهم أنني أنا من فعلها.. لن أتركهم أبدًا يقتادون طفلًا إلى السجن، ولكن أين هو ذاك الطفل؟!

تركني وحدي.. لم يحادثني مرة على هاتفي..

مسكين هو خائف يرتعد وحده الآن.

وعدت أنظر حولي في جنون..

أنا وحدي.. ماذا أقول لوالدي.. بماذا أبرر له خروجي بسيارة المنزل.. هل يصدق؟! وإن لم يصدق، هل يعترف له طارق بالحقيقة؟!

أبدًا لن يفعل.. كنت أعلم أن طارق لن يعترف بما فعل، حتى وهو يقف أمام مرآته..

من يحضر لي بطاقة هويتي؟!

لا أريد أبدًا أن يعرف أحد ما حدث.. ولكن هل يمكن إخفاء الأمر إن اقتادوني إلى قسم الشرطة، فحتمًا سيكتشف والدي غيابي، وإن لم أمنحهم بطاقتي الشخصية سيتم استدعاؤه..

كنت تائهًا.. أتمنى لو أختفي من على الأرض، وأُلقى في السجن أعوامًا؛ حتى لا أثير حول طارق الشبهات، وإن كان أمام والدي ووالده..

أمين الشرطة ذهب يبحث إمكانية استجواب المصاب، وأنا في ردهة المستشفى، أقف كالتائه الضال حتى رأيتها تسرع بخطواتها نحوي، وهي تهتف باسمي..

دموع كثيفة سقطت من عيني، وهي تركض نحوي، وأنا كمسمار صدئ مرشوق في مكاني..

حين أصبحت زهرة تقف أمامي، وأنفاسها المتقطعة تلهث في جنون.. رأيتها بعينين لا ترى ولا تفهم مما تراه شيئًا.. رأيتها تفتح ذراعيها، وتضمني إليها في جنون كأني أنا مَنْ أخرجوه مِنْ تحت عجلات السيارة..

ذاك كان العناق الأول بيننا بعد خمسة أعوام من العشق والهوى..

كان العناق الأول في ردهة مستشفى الهرم.. العناق الأول والكبير، وأنا أبكي بين ذراعيها، كأني عصفور، ضربته رياح وفاجأته أمطار، وهو على غصن صغير يغرد..

كان عناقها جميلًا حانيًا، تسللت معه رائحتها إلى صدري وقلبي؛ لأهدأ وأبصر وأفهم..

حين حاولت الابتعاد عني، عدت إلى صدري أستبقيها..

أريد لأنفاسي أن تتلون برائحتها، وأريد لرئتيّ أن تتنفسها لأطرد منها غازات الخوف والألم السامة التي اجتاحتني..

على البعد، كان هناك رجل عجوز يقف داخل جلبابه يرقبنا.. علمت بعدها أنه حارس العقار، الذي أرسلته تحية معها، عندما عجزت عن منعها من الخروج ليلًا وحدها..

استعدت هدوئي.. استعدت بصري وبصيرتي، وتعلمت في تلك اللحظة أن عناق من نحب وأنفاسهم تحيي فينا ما تطيح به العواصف ومفاجآت الأقدار..

عناق من نحب، هو جبيرة الأعناق المكسورة!!

أخبرتها أني أحتاج حافظتي، وأني إلى القسم سأُقتاد.. أخبرتها أن عليها أن تلقى طارق وتحضر لي من عنده بعض النقود وإثبات

شخصيتي.. عندما رفعت حاجبيها في دهشة، تسألني ألا يحضر ليكون معي أو على الأقل ليحضر كل ما أحتاجه..

أجبتها أنني أنا من لا يريده أن يكون موجودًا.. فقد لا يحتمل أبدًا أن يكون وهو الفاعل..

وحدها زهرة قالت:

- مازال هناك أمل!!

إلى أمين الشرطة ذهبت.. ووضعت في يده بعض الأوراق المالية، وهي تخبره ألا شيء نريد، سوى أن نبقى ونسأل المصاب.. ففي شهادته نجاتي..

أشعلت النقود حماس الرجل، وبعد أن أخبره الأطباء بإرجاء استجوابه إلى حين خروجه من غرفة العمليات.. إلا أننا وجدناه ينهض بكل الحماس والشهامة من مكانه، وهو يقول:

فلنحاول أن نأخذ أقواله قبل إجراء العمليات.. من يدري قد يموت وتموت معه الحقيقة..

لم أكن متفائلًا من تلك الخطوة.. كنت أشعر أن المصاب قد يلصق التهمة بي؛ خاصة وهو يعلم أن قاتله أحضرني، وأني بالتأكيد من أقربائه أو أصدقائه..

حين دخل بنا أمين الشرطة إلى غرفة الطوارئ، كان بهاء نصف غائب.. وحين حاول إيقاظه بشيء من القسوة نهرته أنا؛ إشفاقًا على ألم الرجل الذي مازالت أناته تمزق أضلعي..

بهاء فتح عينيه وسمعت زهرة تتحدث إليه.. سمعتها وصوتها مبلل بالدموع، تعتذر له وتخبره أنه يجب أن ينقذني من السجن والاتهام، كما أنقذته أنا من الموت..

بهاء كان خده مبللًا بالدمع.. لكن على وجهه ابتسامة صغيرة مريرة..

أمسكت بكفها، وقلت في حسم:

- كفى يا زهرة..

عدت أنظر إلى دموعه، وقلت في اعتذار صادق:

- لا تتحدث.. لا تقل شيئًا.. كن بخير أولًا.. أرجوك..

نظر بهاء في وجه زهرة، وعاد يبتسم ابتسامته الصغيرة المبللة بالدمع، استدار ينظر إلى أمين الشرطة قائلًا:

- هذا العاشق أنقذني من الموت.. السيارة التي صدمتني كانت سيارة نقل هرب سائقها.. امنحني الأوراق لأوقعها لك..

لم ينقذني بهاء.. ما أنقذني هو حب زهرة..

كان بإمكانه أن يتهمني.. كان من حقه أن يقول إني مع الجاني.. عدت إليه.. لكن عشقها وصوتها المبلل بدمع الحب والخوف جعله يشفق على عاشقها..

حين رفع كفه المرتعشة يمسك بالقلم الذي وضعه رجل الشرطة في يديه، أمسكت أنا بكفه الأخرى قائلًا:

- أبدًا لن أتركك!!

***

تعلمنا أنا وزهرة في تلك الساعات أشياء قليلة، قد يستحيل على أيام الدهر بأكملها أن تعلمنا إياه، إن لم نمر بتلك التجربة المريرة..

تعلمنا أن من يمدون أيديهم ليأخذوا منا هم أكثر الناس خداعًا لنا..

أمين الشرطة لم يتعاون معنا فقط من أجل النقود، ولم يتركني هناك لإنسانيته أو ثقته في براءتي من إصابة بهاء.

أمين الشرطة ذاك عندما كتب بياناتي، وعلم أني مجند في الخدمة العسكرية.. كان يعلم ألا سلطة للشرطة عليّ، وأن الشرطة العسكرية وحدها من تلقي القبض على مجنديها.. لكنه وعندما توسم ثرائي.. أراد أن يزايد عليه بقدر ما يستطيع..

تعلمنا أنا وهي أن كل رجل، لابد أن تكون معه امرأة، وأن كل امرأة لابد أن يكون معها رجل.. ولكن فقط إن كان كل منهما يملك شفرة الآخر، وإلا كان وجودهما معًا هو الجحيم.. وكان خسارة العمر الكبيرة!!

تعلمنا أيضًا أننا في لحظة، قد يتوجب علينا أن نتخذ قرارًا كبيرًا ومصيريًا، حتى إن لم يكن اتخاذ القرار من حقنا..

بعد ساعات من دخول بهاء إلى غرفة العمليات خرج الطبيب يطلب توقيعنا على قرار الأطباء ببتر ساقه..

صرخت رافضًا التوقيع.. من أنا لأفعل؟ من أنا لأقرر نزع جزء من جسد رجل لا يعرفني؟!

لا وقت هناك لاستدعاء أحد أقربائه أو عائلته.. جيوب بهاء كانت خاوية إلا من محفظة صغيرة، بها بطاقته الشخصية وبعض النقود، وصورة لامرأة جميلة..

زهرة أمسكت بذراعي بين كفها من جديد، وصاحت قائلة:

- رؤوف.. إنه وليدك.. أنت من أنقذته.. هل تفهم؟ هو وليدك..

أمسكت بالقلم، ووقعت على قرار إزالة ساق وليدي، الذي ذبحه أخي وأحيته الأقدار على يدي..

***

مع خيوط الفجر، كان يجب أن أعود لأذهب إلى مركز التجنيد؛ حيث يستحيل تغيبي عن التوجه إليه..

ذهبت وبقيت زهرة مع بهاء.. وعدتني أن تتصل بي عندما يفيق، وأيضًا أن تتصل بعائلته، عندما تحصل منه على أي بيانات..

لم يكن طارق نائمًا عند عودتي.. لكنه كان متدثرًا بغطاء فراشه في غرفته..

كان تائهًا خائفًا، وكان والدي قد استيقظ لأداء صلاة الفجر؛ ليستقبلني في ثورة عارمة، يطلب معها تفسيرًا لاختفائي واستخدام سيارة المنزل..

أخبرته أن أحد زملائي في التجنيد استغاث بي، وأن أخاه الأكبر أصابه حادث أليم، اضطروا معه إلى بتر ساقه، وأن كليهما فقير لا يملك ثمن العلاج..

كنت أتحدث وطارق ينظر إليّ دون ذاك الذعر الذي كنت أتوقعه..

كيف لم تدمع عيناه، عندما سمع ببتر ساق ضحيته؟!

كيف لم ينهَرْ أو يعترف حتى أمام والده؟

من أين للقلوب القاسية بقسوتها وجمودها؟ هل حقًّا تسري في عروقها دماء كتلك التي تنساب في عروق زهرة، أو حتى عروق بهاء الذي جعلته دمعاتها يتنازل عن كل حقوقه وألمه وانكساره، مدعيًا أنها سيارة نقل هرب بها سائقها؟!

لو فقط أعلم من أين للقساة قسوتهم ما تألمت ولا بكيت يومًا.. ولربما ما كتبت إليك حرفًا مما أكتبه الآن!

توفيق عبد الجواد رغم كل شيء يثق في كل ما أقول ويعلم أني لا أكذب، رغم أني يومها كنت أفعل..

والدي وإن كان يحب أخي أكثر، إلا أن ثقته الكبرى كانت دومًا فيَّ أنا.. والفرق بين الحب والثقة أيضًا كبير..

توفيق عبد الجواد أعلن أن كل مصاريف علاج المصاب ستصرف من الشركة.. جميعها وحتى يوم خروجه وبعدها، إن عجز عن العمل من جديد..

هو نقي.. طيب.. كريم، ولكن لا أدري لماذا شعرت، في تلك اللحظات، أن والدي كان يعلم أن حبيبه وأثيره وحده من حرم المصاب ساقه وعمله.. وربما حياته بأكملها!!

***

أحببت بهاء.. أحببت هدوءه واستكانته.. أحببت كبرياء حزنه حتى عندما علم ببتر ساقه..

سقطت دمعة صغيرة على وجنته، ثم قال:

«لا مفر من قدر» ..

أخبرته أن بإمكانه أن يقاضي طارق إن شاء.. بإمكانه أن يطلب أي تعويض يريد.. أخبرته أني سأصارح والدي بالحقيقة، بل أخبرته أننا أثرياء فوق ما يتصور، وأن بإمكانه أن يطلب مليون جنيه إن شاء..

تلك الدمعة التي رأيتها تسقط من عينيه لحظة علم بفقدان ساقه، جعلتني حقًّا أتمنى لو يطلب أي شيء، يشعر أن به تعويضًا عن كل ما حدث..

هل تعلمين ماذا قال سيدتي لحظتها؟!

بهاء قال في ابتسامة مريرة صغيرة:

- شيآن على الأرض لا تعوضهما الأرض نفسها بكل ما فيها.. شيآن إن فقدتهما لا تكفيك فيهما أرواح البشر جميعًا..

العافية والحب!!

***

جاءت منى زوجة بهاء إلى المستشفى في اليوم الذي أفاق فيه.. جاءت لنجدها أجمل من الصورة، التي كان يحملها لها في حافظته..

لم ترتمِ بين ذراعيه.. لم تبلل كتفيه بقطرات دمعها.. بل جاءت في دهشة، تنظر إلى ساقه المبتورة، كأنها ترسم قرارًا أو تكتب مصيرًا..

لن أطيل في هذه القصة، ولكن سأخبرك أني ذهبت إلى بيتها مرات عديدة.. ذهبت ومعي زهرة، وذهبت مرات أخرى وحدي..

أخبرتها أن بهاء سيعود كما كان.. أخبرتها أنها شهور، وسيصبح بإمكانه أن يستعين بساق معدنية، وحين ينهي التدريب عليها سيعود كما كان..

رجوتها أن تكون معه.. أخبرتها أني سأخصص لها مبلغًا شهريًّا لها وحدها.. كدت أبكي، وأنا أرجوها ألا تكسر قلب رجل، بعد أن كسرته الأقدار في عافيته.. لكنها في نهاية كل المحاولات قالت في جفاء، إن ساق بهاء ليست أول جزء يبتر من جسده.. بهاء مبتور العقل في عينيها منذ أعوام..

قالت في جرأة إنها تعلم أني أنا من صدمته بسيارتي، وأن تنازله عن حقوقه حماقة، لن تغفرها أبدًا حتى إن غفرت له ضياع ساقه..

قالت منى الجميلة إن الرجل عندما يقبل أن يتسول حقه، ويأخذه في صورة حسنة لا يصبح رجلًا!!

أقسمت لها بأنني لست الفاعل.. أخبرتها أنني أفعل ما أفعله لأن بهاء رجل نقي رائع، أجمل ما فيه عقل وقلب، لن تجد مثله أبدًا.. ولكنها بعد كل الزيارات والمحاولات، أخبرتني أنها ستتخذ قرارها، ووحده بهاء سيعلم ذاك القرار بعيدًا عني وعن زهرة..

في آخر مرة دخلت بيتها، أوصدت خلفنا الباب قائلة:

- لا تحضرا هنا مرة أخرى.. فأنا لا أريد رؤية مزيد من الحمقى!!

في اليوم التالي، نظر بهاء إلى عينيّ، وسألني هل أفعل له ما يدخل على قلبه السرور.. عندما ابتسمت أخبره بأن يطلب ما يشاء، وأنني سأنفذه في الحال قال في هدوء:

- تحضر غدًا بعد عودتك من التجنيد، ومعك أي صديق لك، وأيضًا معك المأذون.. لقد طلّقت منى، وأريد أن أوقع ورقة الطلاق لتستلمها وتسلمها لها..

وكان ذاك درسًا آخر تعلمناه أنا وزهرة معًا..

الحب والوفاء أشياء تباع.. لكنها أبدًا لا تشترى!!

***

لم تترك منى شيئًا في شقة الزوجية.. لم تترك حتى مقعدًا صغيرًا.. لم تترك له وسادة أو غطاءً يلقيه على جسده وساقه المبتورة.. لم تترك له كوبا صغيرًا يغسل بمائه دمعاته، إن دخل البيت ووجده على ذاك الحال..

خابرتني بعد أسابيع من الطلاق؛ لتعلن أنها تريد كامل مستحقاتها من نفقة ومؤخر صداق.. أخبرتها أنها هي من طلبت الطلاق، ولا تستحق من بهاء مليمًا واحدًا، لكنها ضحكت تلك الضحكة الرقيقة الجميلة، وقالت القانون معها.. القانون سيمنحها كل حقوقها..

أكملت منى تعلن أن بهاء لا يملك مؤخر صداقها، ولكن هي تملك أن تودعه السجن بساقه المبتورة.

ذهبت إليها في الإسكندرية.. دفعت لها كل ما أرادت، وأخذت منها توقيعها في الشهر العقاري على استلامها لكل شيء..

أذكر يومها عندما استلمت الأوراق في يدي أني تنهدت في ألم، وقلت في رأسي ربما كان والدي على حق في خوفه وكراهيته للنساء..

أمي وزهرة ليستا أبدًا كل نساء الأرض..

وحدي أجريت اتفاقًا مع مالك العقار، الذي كان يقطنه بهاء... سلمته البيت، وأخذت منه مبلغًا زهيدًا أكملت عليه أضعافًا أخرى وحررت عقد إيجار لشقة في منطقة الهرم، مكونة من غرفتين في الدور الأرضي، وقمت بتأثيثها أثاثًا بسيطًا، ولكنه كامل، فيه كل ما يحتاجه رجل له ساق ونصف..

رجل سلبته الأقدار ما لا يمكن شراؤه، كما قال، بكل كنوز الأرض.. العافية والحب!!

أصبحت كل المصروفات تسحب من خزانة الشركة، وبعلم والدي الذي لم يتردد لحظة في اعتماد مصروفات «المصاب»، كما كنت أقدمها.. لكنه ما سأل يومًا عن اسمه، ولا طلب يومًا زيارته أو رؤيته..

أيقنت أن طارق في تلك الليلة أخبره، وأيقنت أنه يعلم كل شيء.. لكنه مازال مثلي لا يريد الاعتراف بفشله وفشلي في تربية وحيدنا..

طارق نجح في اختبارات الثانوية العامة، وقبلت أوراقه في الطب البيطري لمجموعه الذي لم يؤهله للصيدلة أو الطب البشري..

أصبح كل ما يربطهما بالمصاب هو أوراق النقود، التي يصرفها والدي من ميزانية الشركة، كأنها صك غفران، اشترينا به جريمة طارق وصمت أبي!!

***

أنا وزهرة أحببنا بهاء.. أحببنا معلم اللغة العربية والشاعر الرقيق، الذي رغم كل ما حدث له، إلا أنه كان يبارك حبنا ويراه ضمادة، يضعها على ساقه المبتورة وقلبه المكسور..

كنا معه عند خروجه إلى بيته الجديد.. كنا معه أثناء التحضير للساق التعويضية، وعند جلسات التأهيل.. كلما سقط على الأرض، رفعته كف زهرة.. وكلما استبد به اليأس، طلبت منه أن يتماسك؛ فهي تريده أن يكون إلى جوارها وجواري في حفل خطبتنا، الذي قارب موعده بانتهاء خدمتي العسكرية، واقتراب عودة والدها وزوج أختها في أول عطلة لهما..

لم نعد نجوب شوارع القاهرة أو متنزهاتها في لقاءاتنا.. أصبح بيت بهاء هو عش لقائنا اليومي..

غالبًا ما تحضر زهرة معها بعض الأطعمة، التي قامت هي أو تحية بطهوها.. حتى تحية كانت تحادث بهاء أحيانًا وتحادثني..

قرأ بهاء علينا الكثير من أشعاره، وأشعار من يحبهم من الشعراء..

أخبرنا عن أعوام، قضاها في هوى منى، وكيف لم تتزوجه إلا بعد أن ادخر وأنفق كل ما طلبته وأرادته..

لم أسمعه يومًا يذكرها بألم أو ندم..

أذكر أن زهرتي قالت يومًا في غيظ إنها لا تستحق شيئًا من كل هذا الحب وحديث الذكريات..

بهاء يومها أقسم أنها تستحق الأكثر. بهاء قال إنها منحته أعوامًا وحبًا لن ينساه..

قال إن لكل متعة ثمنًا، وإن المتع كلما زاد جمالها غلا ثمنها.. كيف يغضب من دفع الثمن، بعد أن استمتع بما اشتراه؟!

زهرة في عنادها واندفاعها، صاحت تقول إنها أعوام مهدورة وحب زائف، لا يستحق لحظة من لحظات عمره الذي مضى معها، ولا لحظة من لحظات عمره الحاضر، وهو يذكرها..

زهرة قالت في ألم:

- نحن ندفع أرواحنا ودماءنا فقط لمن يستحقون!!

أنا لا أنسى كيف طفقت عبرة من عين بهاء يومها ليقول:

- يا زهرة.. قطعة الحلوى التي تذوب شفاهنا من حلاوتها لها ثمن، والسكين التي نشتريها لنغمدها في صدورنا أيضًا ندفع ثمنها، ما دامت وحدها من الحياة تريحنا!!

***

لماذا أخفت تحية عن أمها قصتي مع زهرة؟!

لماذا لم تخبرها أني حفيد الأسطورة، كما كانت أمها تطلق على جدي؟! لأنها خافت من علي الورداني وقسوته.. خافت أن يمنع زهرة عن إكمال دراستها، كما فعل مع تحية، يوم وقعت في حب زميل لها في الجامعة، فقام بتزويجها إلى يوسف مندور رغمًا عنها.. هل لأن تحية أرادت أن تكمل زهرة دراستها الجامعية، التي منعها عنها والدها؟ أم لأنها أرادت أن ترى قصة حب تكتمل، ولا ترى قلبًا آخر يموت وينزع منه الحب، كما مات قلبها، وذبح هواها في تلك السن الصغيرة؟!

هذا ما كانت ترده زهرة لي دومًا، كلما سألتها عن سر تعاطف تحية الكبير معنا، واشتراكها في تنظيم لقاءاتنا، واستمرار حبنا بعيدًا عن عينيْ والدها، أو معرفة أمها خوفًا أن تخبر يومًا والدها بالقصة فتنتهي النهاية نفسها..

كانت زهرة دومًا تخبرني أن قصتي معها أصبحت عقدة تحية، وهي أيضًا مفتاح شفائها من جرحها القديم..

أنا اليوم، أؤكد أن تحية ما أخفت قصتنا عن أمها خوفًا من علي الورداني، أو هاجسًا من قصة هواها القديم.. لكنه القدر رسم في رأسها ذاك الطريق؛ لتصبح نهايتي أنا وزهرة غير كل النهايات..

عندما انتهى الشهر الرابع من بداية عملي في شركة الأدوية، كان يوسف مندور وعلي الورداني قد قاربا على العودة؛ لقضاء أول إجازة لهما في مصر، بعد أكثر من عام في دولة الإمارات العربية.. كان ذلك أيضًا بعد انتظام طارق في الطب البيطري، واستلام زهرة لعملها كمعيدة في صيدلة القاهرة؛ لتبدأ دراساتها العليا..

أخبرنا بهاء أن تحية ستفاتح والدتها في تقدمي لأختها؛ حتى تخبر علي الورداني عند عودته التي كانت – آنذاك - بعد أقل من أسبوع.. أخبرناه أن تحية لن تخبر أحدًا أبدًا عن قصة الحب، التي جمعتني أنا وزهرة خمسة أعوام؛ فهي ترى أن جذور والدها القادم من الصعيد قد تشعل جنونه مرة أخرى، رغم إيمانها أني عريس لا يُرفض، عكس ما كان عليه زميلها الذي حُرمت حبه، وحُرمت من إكمال دراستها الجامعية بسبب قصتها معه.

زهرة، وهي تودعني تلك الليلة، أخبرتني أنها ستأتيني في الغد بتفاصيل دهشة وفرحة والدتها، عندما تعلم أن ابنتها اختارت حفيد أسطورة الشرقية، دون رجال الأرض جميعًا!!

تلك القصة وحديثنا عنها واستعدادنا وسعادتنا بها جاءت كقطرات مطر، طال انتظار صحراء قلوبنا لها..

كانت تشعل الأماني وترسم البسمات على قلبي وقلب بهاء، الذي بدأ يعتاد ساقه المعدنية، والتحق بالعمل في مدرسة قريبة من منزله في منطقة الهرم. أصبح هو الآخر يتدرب على الرقص بساقه المعدنية ليرقص في حفل خطوبتنا وزفافنا.. أصبح يرسم تصميمات كثيرة لبطاقات الدعوة، ويعد قائمة بالموسيقى والأغاني التي تعزف في زفافنا القادم..

علمت وتعلمت معه كم هو رائع أن يكون لك صديق حقيقي، يسعد من قلبه بما يسعدك، ويركض ليعدَّ لك كل ما يلزمك، وإن كان بساق ونصف..

أخبرت والدي أني سأُعلمه باقتراب زيارتنا لخطبة زهرة..

أومأ برأسه بالقبول، دونما اهتمام كبير.. لكنه بعدها بلحظات سألني:

- هل هي الفتاة نفسها التي أردت إلحاقها بالتدريب معك في المصنع؟!

أجبته في هدوء:

- نعم.. هي وحدها من أردت، ومن سأتزوج!

لاحت ابتسامة مريرة صغيرة على وجه والدي لا أنساها.. كأنه يسخر من سذاجة حبي وتعلقي بفتاة خمسة أعوام..

ابتسامة ساخرة صغيرة، لم يكن هو أو أنا نعلم أن حرائق كبيرة ستندلع بعدها.. حرائق لم أكن أعلم أن رمادها سيبقى، ليضرم حرائق أكبر وأكثر توحشًا، بعد أكثر من عشرة أعوام!!

كيف بدأت النهاية؟ وكيف ولدت؟!

كما نموت.. كما يولد طفل ونمنحه الحب والحنان ويكبر؛ ليرسم على ملامح والديه تجاعيد العناء والخوف عليه، ثم في لحظة يسقط ميتًا مقتولًا برصاصة صغيرة، لا يشتري ثمنها زهرة أو قمحة سمراء..

كم من آمالٍ بنيناها على ذاك الحب.. كم من أحلامٍ عشناها.. كم طفلًا أنجبناه.. كم بلدًا زرناه.. وكم عناقًا تبادلناه؟!.. ولكن لكل حلم.. لكل طفل.. ولكل عناق نهاية!!

كانت بداية النهاية في ظلمة الليل.. تمامًا كليلة حادثة بهاء وطارق تلك.. وكأن كل الأقدار السوداء لا تولد إلا في الظلام، كأنها أشباح يقتلها الضوء، أو هي من تقتله..

جاءني صوت زهرة على الهاتف ممزقًا هادرًا، يعصف بكاؤها بروحي.. دقائق طويلة مرت قبل أن أفهم شيئًا.. دقائق ليت عمرها كان أطول، فالحيرة دومًا أكثر رحمةً من الحقيقة والألم!!

زهرة أخبرتني في جنون أن تحية أخبرت والدتهما بأن رجلًا سيتقدم لخطبتها عند عودة المغتربين.. أخبرتني أن أمها كانت سعيدة؛ فزهرة في عينيها وعيني والدها تأخرت في الزواج؛ حيث رفضت كثيرين؛ تعللًا بدراسة الصيدلة وصعوبتها..

حبيبتي من بين دمعاتها أخبرتني أن والدتها ابتسمت ابتسامة كبيرة، عندما أخبرتها تحية أن المتقدم له أصول من الشرقية، بل قالت إن دمعة رقيقة ترقرقت في عينها بعدها، وهي تخبرهما أنها ربما تتوكأ على ذراع زهرة وزوجها، وتدخل الشرقية التي ما رأتها، ولا وطئت قدمها أرضها يومًا.. زهرة أخبرتني أن ابتسامة أمها جعلتها تريد أن تسعدها أكثر فصاحت تخبرها أني حفيد الأسطورة، الذي طالما حكت هي عنه لهما وعن حنانه وعطائه لكل أهل الشرقية، نقلًا عن أمها ..

لماذا تبكي زهرة إذًا؟! لماذا كانت ترتجف على سماعة الهاتف كطائر ذبحوه وما أجهزوا عليه؟!

زهرة علا نحيبها، وهي تصف كيف لطمت أمها كوب الشاي في جنون، عندما علمت أني حفيد منصور عبد الجواد، وصاحت أنها تقتل زهرة، ولا تزوِّجها أحدًا أيًّا كان من أفراد عائلة ذاك الرجل الطيب!!

***

ألم يقل المولى عز وجل في كتابه الكريم:

(﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (1))؟

نعم ولكن أنى للحمقى والسذج أن يفهموا؟!

وهل هناك على الأرض من هو أشد حماقة وسذاجة من العشاق؟!

انهارت تحية تمامًا في الليلة التالية.. سقطت تبكي معلنة قصة هوانا أنا وزهرة لوالدتها..

أخبرتني زهرة أنها كانت تبكي، كما لم ترها تفعل يوم فارقت حبيبها أو عندما منعها والدها عن الجامعة.. أخبرتني أن أمها جنت هي الأخرى، عندما علمت بأن خلف الخطبة قصة حب عمرها أكثر من خمسة أعوام..

سقطت نجلاء والدة تحية وزهرة لينقلوها إلى المستشفى، ورفضت زهرة حتى أن أكون معهم.. وحده شقيق زوج تحية ذهب معهم..

أصبحت شبحًا يأتي ذكر اسمه على الأخضر واليابس في قلب الأم!!

تحب جدي.. ذكرت اسمه لبناتها نقلًا عن والدتها، وأسمته أسطورة الخير والعطاء.. ورغم هذا يرتفع معدل السكر في دمها، وتفقد وعيها، عندما تعلم أن حفيده يهوى ابنتها ويطلب الزواج منها..

لغز ظننت أن فك طلاسمه فيه النجاة..

فكرت كثيرًا، وأنا أقف على باب المستشفى، الذي رقدت فيه الغائبة عن وعيها.. أنتظر خروج زهرة إليّ..

عندما رأيتها تتقدم نحوي حيث أقف، شعرت أني ضئيل صغير عاجز.. يوم فعل شقيقي فعلته تلك، كانت زهرة عوني وسندي، وحين سقطت أمها أقف بعيدًا عنها، أنتظر خروجها هي لا ذهابي أنا إليها..

عندما وقفت أمامي ورفعت عينيها المختبئتين تمامًا خلف أنهار دمعها، لم أستطع حتى أن أفعل ما فعلته هي ذاك اليوم.

وحدها ارتمت على صدري، وهي تجهش في بكاء حاد مرير، لا أذكر أني رأيت أو سأرى يومًا في ألمه ومرارته.. مشطت شعرها بأصابعي..

شعرها؟!

هل أخبرتك عن شعر زهرة ولونه؟!

كان في تلك الأيام قصيرًا يقف على كتفيها.. كان مموجًا لم أرها يومًا تلجأ إلى مصفف شعر؛ ليجعله ناعمًا مسترسلًا، كما تفعل باقي النساء والفتيات..

هل أخبرتك منذ بداية القصة كم هي زهرة جميلة.. دعيني الآن أخبرك أن تلك الدموع.. تلك الحسرة التي كانت تبكي بها جعلت عينيها وأنفها الدفين في صدري وكل ملامحها أجمل ألف ألف مرة..

كانت تدفن رأسها في صدري، ثم تبتعد وتردد:

- يجب أن نعلم الحقيقة.. لماذا تكاد أمي تموت؟! لماذا يا رؤوف.. لماذا؟!

«لماذا يا رؤوف؟!»

أقسى الأسئلة.. أمرُّ الأسئلة هي لماذا .. خاصة إن سألها أحدنا لنفسه.. تركت زهرة ذاك الصباح، وأنا مثلها لا شيء أبدًا في رأسي سوى كلمة صغيرة تسحق أضلعي جميعها.. «لماذا»؟!

خابرني والدي في طريق عودتي.. كان غاضبًا ثائرًا لتأخري عن العمل.. بقيت ساعات النهار، ممزقًا بين تقارير الأدوية وردهات المعامل، واطمئناني على زهرة ووالدتها كل حين وآخر..

في نهاية اليوم، توجهت إلى مكتب والدي، وبعد حديث قصير أخبرته أن والد زهرة سيصل أرض مصر بعد أيام، ثم قلت أسأله:

- هل تذكر أني أخبرتك مرة أنها من الشرقية؟!

أومأ والدي بكل هدوئه برأسه بالإيجاب، وشحذت من صدري أعمق أنفاسي، وأكملت قائلًا:

حبيبتي حفيدة وديع صفوان.. هل تذكره؟!

***

(1) سورة المائدة : آية (101) .

نعم.. كنت أعلم أنه يذكره، وكيف لا يفعل إن كنت أنا رغم طفولتي، مازلت أتذكر امتعاض ملامحه وانقباضها كلما رآه يزور جدي..

كيف لا يذكر، وأنا باق حتى اللحظة لا أنسى كيف خرج به بعيدًا عن سرادق العزاء، وعاد وحده يكسو وجهه ألم الأرض..

أغمضت عيني عن كل هذه المشاهد، وأخفيت صلة زهرة، ولم أعلنها بسذاجة وحماقة العشاق، فكيف أسأله إن كان يذكره..

إن أرسل لك القدر شارة تحذيرية صغيرة لا تغمض عينيك وتدعي الغباء، فهو بها يبرئ نفسه من سفك دمك القريب.. ولكن إن نحن حقًّا استجبنا فمن أين تأتي الأرض إذًا بقصصها ورواياتها ودمع سكانها؟!

كأن أفعى سامة وثبت إلى وجه والدي الهادئ.. لم أر قبل تلك اللحظة أو بعدها حتى اليوم حدقتيْ عينين تهتزان وترتجفان كما رأيتهما في وجه أبي.. كانت أصابعه ترتعش، وهو يستند بها على حافة مكتبه الكبير الأنيق ليقف وكل قطعة في جسده تنتفض.. رأيته يخرج مفاتيحه من جيب ملابسه، ويحاول أن يصوب مفتاح «الشانون» الخاص به في الثقب..

كانت يده ترتجف كجسده وكقلبي، وقلب زهرة، حين رأيتها على باب المستشفى.. أخرج ملفًّا صغيرًا عاد به إلى مكتبه، وأخذ يقلب في أوراقه، وهو يقول في صوت مبحوح ضائع:

- زهرة علي الورداني.. علي الورداني.. والدها من محافظة أسيوط.. ظننتك تهذي، أو ظننتها تدعي قصة الشرقية لتحبها أنت أكثر!!

كان يقرأ بيانات زهرة وعائلتها.. تاريخ تخرج والدها.. مقر عمله.. عائلته.. تحركاتها وتحركات تحية أختها.. حتى قصة حبها واسم حبيبها القديم، عرفته من بين شفتيه..

متى جمع عنها كل هذه البيانات؟! وكيف لم يرد في هذه البيانات اسم أمها.. نجلاء وديع صفوان؟!

عاد يردد في ذهول:

- علي الورداني من أسيوط!!

لكن يبدو أن توفيق عبد الجواد لا يرى النساء ولا يهتم بهن، حتى في تحرياته عن عروس ابنه الأكبر!!

قلت كأني أبكي:

- هو جدها لأمها...

رأيت والدي يلقي رأسه بين كفيه، كمن يسقط في أغوار بئر سحيق.. في لحظة تخيلته يسقط هو الآخر كما سقطت نجلاء.. تخيلته محمولًا وقلت كأني أبكي:

- ما القصة؟ أخبرني أرجوك..

كانت كل ملامحه فجأة خلف أصابع كفيه العريضتين، كأنه يحاول استعادة شتات روحه والسيطرة عليها..

عندما رفع وجهه، كانت في عينيه دمعة لا تسقط.. لكنها تشتعل استعدادًا لإضرام حريق كبير.. وفي هدوء قال عبد الجواد كلمته:

- هي محرمة عليك مادمتُ حيًّا.. والله وحق رحمة أبي وأمي إن سمعتك تكرر هذا الاسم قتلتها أو قتلت نفسي!!

***

ألم تكن زهرة وحدها غايتي؟ أما كان زواجي بها وحده أملي وقضيتي؟ تحول كل هذا في لحظة.. تبدل كل هذا وأصبح أملي وغايتي، بل وتحدي العمر هو أن أعلم «لماذا؟!».

هناك أسئلة يجب ألا نبحث عن إجاباتها.. هناك أسئلة في حياتنا، وهناؤنا أن نموت نحن وتحيا هي بعدنا بلا إجابة.. لكن نحن دومًا نتعلم بعد فوات الأوان!!

عاد والدي كأن شيئًا لم يكن.. لم أجرؤ حتى على إعادة فتح ملف القصة معه.. لكن بقيت نساء ثلاث خلفي لا يكفكفن دمعهن.. تحية مازالت تبكي.. وكلما بكت ورجت أمها أكثر، بكت الأم من جديد لتبكي تحية خوفًا من تكرار سقوطها وعودتها إلى المستشفى.. زهرة حبيبتي أيضًا كانت تبكي، وبهاء يبكي لبكائها، والجميع لا يكف عن ترديد السؤال ذاته «لماذا؟!».

في لحظة قررت أن أعرف لماذا.. قررت لأن القدر وحده قرر أن ينهي القصة.. ربما طالت عليه، وبدأ يملنا ويملها.. أو ربما كان جمال ونقاء ذاك الحب أكبر مما تحتمله الأقدار، التي غالبًا ما تتزود من ألم وبكاء البشر بزادها وقدرتها على مواصلة رحلتها..

أيًّا كان السبب، فلقد جاء ذاك الصباح الذي نهضت فيه من فراشي.. كأن يدًا خفية لا أعرفها أيقظتني ووضعتني داخل ملابسي، وقادت بي سيارتي للمرة الأولى نحو بيتها..

حادثت زهرة لأطمئن أنها في عملها.. سألتها عن والدتها، وأخبرتني أنها بخير.. لكنها في غرفتها ترفض زيارة تحية لها، كما رفضت الإقامة في بيتها هربًا من بكائها، وإن كان دون أسئلة..

أوقفت سيارتي أمام البناية القديمة، وفي مصعدها شبه المتهالك، رأيت وجهًا غريبًا كأني لا أعرفه.. وجه رجل لا أعلم كيف جاء، وهل مجيئه حقًّا كان بمحض إرادته، أم أنه سيق إلى تلك البناية بيد مجهولة، وحدها ترسم كل شيء، ونظن أننا نحن من نرسم الخطى ونحددها..

في مرآة المصعد، رأيت وجهي وجسدي الذي حملته الأقدار بأقدامي، أنا، إلى منزل نجلاء وديع صفوان!!

***

جميلة نجلاء كابنتيها.. جميلة حتى عندما كسا الذعر والدهشة وجهها، وهي تراني على باب بيتها، أقف وأعلن رغبتي في الدخول والحديث معها.. كادت تغلق الباب.. لكنها تركت مقبضه من بين كفيها، حين قلت كلمتين جعلتاها تفقد السيطرة والتركيز.. قلت لها:

- أنا رؤوف.. رؤوف عبد الجواد!!

لم تراوغني كثيرًا.. ربما كانت تريد إلقاء العبء الكبير عن كاهل قلبها، أو ربما كان القدر أيضًا هو من سكب الحروف من بين شفتيها..

جلست على مقعد في صالة البيت المتواضع، الذي ولدت فيه زهرتي وكبرت.. كأنها ولدت فقط لأقتلها، ويحيي مولدها قصة ما كان يجب لها أن تعلن أو تعود من الماضي.

قالت نجلاء إن والدتها فاطمة، رحمها الله، تزوجت وديع وأحبته في جنون، فهو كما أخبرتها أمها وسيم وخبير بشئون النساء، لكن بعد الزواج وقبل نهاية العام الأول.. علمت أن زوجها على علاقة آثمة بزوجة الرجل، الذي يحبه سكان البلدة بأكملها.. الرجل الذي ساعد والدها على نفقات زواجها من وديع، بل وصديقه الحميم..

قالت نجلاء إن أمها كانت تخبرها كيف علمت أن زوجها كان يلتقي المرأة في بيتها، في الساعات التي كان يقضيها الزوج في الاعتكاف بالمسجد، أو تفقد أحوال كل سكان البلدة وتقديم العون لهم..

فاطمة واجهت زوجها بعد أن تبعته يومًا إلى بيت المرأة، ورأته يدخل، وهو ملثم الوجه..

نجلاء كانت تنتفض، وهي تتحدث وعيناها لا تراني.. أضافت وهي تبكي أن وديع صفوان اعترف لزوجته الشابة أن علاقته بالمرأة بدأت منذ أعوام، وأنه لا يستطيع الانقطاع عنها أبدًا..

تلك الخائنة هي جدتي.. وكان جد زهرة هو الرجل، الذي كان يضاجعها في غياب جدي وحبيبي منصور عبد الجواد..

ليست أفعى واحدة تلك التي تجولّ سمها في دمي.. مئات الأفاعي والعقارب شعرت بها تفترسني.. كأن جدتي التي لا أعرفها هي أمي.. هي زوجتي.. هي أختي التي تمارس الزنا أمام عينيّ..

شعور لا أفهمه حتى اللحظة ذاك الذي اجتاحني.. شعور بكراهية سوداء عميقة نحو وديع صفوان وابنته، وحتى حفيدتيه.. كأنهم جميعًا ضاجعوها أمام عيني..

قلت كأني أتلوى ألمًا:

- وكيف عرف والدي أنا بالقصة؟!

أعاد السؤال نجلاء من ذهولها لتسألني في جنون أكبر.. كيف علمت أنا أن والدي يعلم..

المرأة قالت من خلف دموعها إن أمها لم تخبرها أبدًا أن منصور عبد الجواد كان يعلم..

فاطمة لم تطق أبدًا أن تحيا مع الرجل.. لم تطق أبدًا أن ترى وجه جدي، وهو يدخل بيتها ليزور صديقه بعد تلك الليلة..

فاطمة هربت من الشرقية بأكملها، ونجلاء بذرة صغيرة بين أحشائها.. هربت بعد أن ذهبت إلى جدتي ورجتها باكية أن تكف عما تفعله لا رحمة بها، ولكن رحمة برجل يحيا كملك بين البشر.. رجل قد تعاقبها السماء على خطيئتها في حق طهارته ونقائه عقابًا كبيرًا، قد لا تحتمله أبدًا..

فاطمة أخبرتها أن جدتي ما استجابت، بل هددتها أنها إن فعلت وحكت حرفًا واحدًا، ستقلب الأرض على رأسها..

كانت نجلاء تحكي كأنها تهذي بفعل حمى شرسة، تفترس قلبها وعقلها.. لكنها عادت تتوقف عن الحديث لتسألني من جديد:

- من أخبرك أن والدك يعلم؟! أمي لم تخبر أحدًا سواي، عندما كبرت وبدأت ألح عليها في السؤال عن والدي وعن بلدتنا وأقربائنا.. أخبرتني أن والدي ما بحث عنها يومًا، ولا فكر حتى في الحضور إلى القاهرة؛ حيث يعلم أن لها عمًّا مقيمًا بها منذ أعوام..

نجلاء كانت تردد في جنون:

- «لا يمكن لوالدك أن يعرف شيئًا»..

أرخيت عينيّ في الأرض، كأني لا أستطيع أبدًا أن أنظر بهما إلى امرأة، قام والدها بمضاجعة جدتي أعوامًا في الحرام، وهي زوجة لجدي

وأم لوالدي.. أخبرتها عن كلمات والدي..

أخبرتها كأني أرددها وأعيدها على نفسي وهو يقول إن زهرة محرمة عليَّ مدى العمر، وإن اللحظة التي أتزوجها فيها أو حتى أذكر اسمها، هي لحظة يقتل فيها والدي إما نفسه أو ابنتها..

نجلاء، بعد صمت لحظات، أخبرتني أن والدها كان يتسلل من جوار زوجته في ليال كثيرة؛ ليذهب إلى بيت جدي عند زيارته للقاهرة أو طنطا لزيارة مساجدها وأضرحتها..

نجلاء قالت إن والدي كان طفلًا ينام في غرفته، وإن أمها كانت دومًا تبكي وهي لا تتخيل أبدًا أن تحيا مع زوج دنيء، يعلم أن صديقه سافر يصلي، بينما هو يضاجع زوجته، وابنها ينام في الغرفة المجاورة..

هل رآها والدي في طفولته تلك؟ هل أخبره أحد؟!

لا.. لم يخبره أحد..

توفيق عبد الجواد رأى أمه رؤي العين وسمعها بالأذن.. هذا وحده يفسر قسوته مع بهيجة.. هذا وحده يفسر كراهيته لكل النساء، وهذا أيضًا يبرر رفضه لزهرة..

رفعت عينيّ أنظر إلى نجلاء.. لم أرها جميلة كلحظة دخلت.. رأيتها شيطانًا أتمنى لو أسحق ضلوعه بين أصابعي.. أليست ابنة الرجل الذي لوثني ولوث والدي..

من قال ألا ذنب لها؟ من قال إنها هي وبنتيها لا يحملن بذور الدناءة والوضاعة عن أبيهن؟! ولكن هل تخلو منها دمائي، وأنا حفيد الزانية؟!

خدعها وديع.. جدتي كانت طيبة رقيقة ساذجة.. خدعها الذئب الوضيع.. هي عائلة ملوثة مسمومة.. فاطمة لم تهرب خجلًا أو ترفعًا.. هي مثله.. ارتوت بمائه الملوث، وأصبحت مثله، هي وابنتها وحفيدتاها..

نجلاء كانت تبكي في ألم وصمت.. دموعها كانت تسقط أمام عينيّ، وأنا أشعر أني أتمناها لو تبكي أكثر..

الرجل يبقى رجلًا يا سيدتي!!

الرجل أحمق قد يقبل أن تكون كل النساء غانيات إلا نساء عائلته.. وحدها نساء لا تقبل عنده المقايضة!!

كنت كالجريح.. نسيت الحب.. نسيت زهرة.. نسيت كل شيء إلا أني أمام امرأة، لوث والدها رحم جدتي، وسمم رأس أبي وذبح فيه الحب والثقة، وجعل منه ومني رجالًا مشوهين بصور غائمة مشوشة عن الحق والطهر والفضيلة.. دون وعي.. دون تفكير.. بجنون الجريح وهذيان المحتضر أخذت أردد:

- هو حقير.. وضيع.. خدع المسكينة.. خدعها!!

سحقتها الكلمات أم أعادتها إلى الحقيقة، التي حاولت هي أيضًا الهرب منها..

هل أرادت أن تقتلني بتلك الجملة الأخيرة، التي قالتها، أم تراها كانت تستجديني؟

لا أعلم، وما عاد من الممكن أن أعلم.. نجلاء ماتت بعدها بأعوام، كما علمت مؤخرًا..

ماتت دون أن أعرف أي شيء كانت تعنيه، عندما علا صوتها بالبكاء بعد كلماتي القاسية.. الدنيئة، لكن جملتها مازالت حتى اللحظة تقتلني دون قطرة دم واحدة.

ابنة وديع صفوان قالت، وهي تهذي ببكائها:

- رؤوف.. والدك قد يكون أخي!!

***

حللت اللغز.. عرفت السر.. لكن الثمن كان كبيرًا..

تركت تلك السيدة، بعد أن بكت كثيرًا وهي ترجوني ألا أخبر أيًّا من ابنتيها بما عرفت..

رحمها الله.. لو انتظرت لحظات لانكفأت أنا أقبل قدميها، وأرجوها ألا تخبرهما هي..

عاهدتها أني لن أفعل، وأن كلمة مما سمعتها منها.. لن يعرفها مني أحد حتى صعود روحي إلى السماء، وألتقي جدتي وأسألها: لِمَ فعلت بنا ما فعلته؟! لم يكن عهدي لها إشفاقًا بزهرة ولا رحمة بتحية.. لكنه كان كبرياء رجل يرفض أن تنظر في عينيه من أحبته، وهي تعلم أن امرأة من عائلته أسلمت جسدها لرجل من عائلتها..

لو كان الوضع معكوسًا.. لو كان جدي منصور هو الذي ضاجع فاطمة ربما اختلف الوضع!

مازالت شرقيتنا تحكمنا.. مازال غباؤنا الذكوري يسيطر علينا..

نعم.. أعلم أن الله لا يفرق بين رجل وامرأة مارسا الرذيلة والحرام، لكن مازال في أعماق كل شرقي نعامة حمقاء غبية، ترى إثم المرأة وسقوطها أكثر إهانة ودناءة من سقوط الرجل..

ولدت وأموت شرقيًّا!!

توجهت ذاك الصباح من سكن نجلاء وزهرة في جسر السويس إلى مصانع الأحرار، بمدينة السادس من أكتوبر، ولا شيء يدور في رأسي سوى سؤال غريب، لم أظن يومًا يأتي وأسأل نفسي..

كيف أحببت زهرة؟! ماذا رأيت فيها؟!

في لحظة بعد كل العشق.. بعد كل الحب وأعوام الانتظار وشجرة الليمون، التي غرستها بيدي على باب بيتها، تحول كل شيء إلى لا شيء!!

كل شيء مقبول.. وكل النساء يمكن أن أرضاها إلا زهرة!!

كيف يمكن أن أتزوجها؟ كيف يمكن أن أضمها إلى صدري، دون أن أرى وديع صفوان، وهو بين ذراعيْ جدتي العاريتين؟!

كيف يمكن أن أضم تحية أو ابنتيها، وهن من سلالة وديع صفوان؟! هو الجحيم بعينه..

لكن إن كان هذا هو شعوري، فما هو إذًا شعور والدي؟ وكيف أرتضيها له؟! كل ما أريده هو أن أنساها.. أنساها كأن لم تكن.. لكن هناك خطايا يمر العمر، دون أن ننساها أو تنسانا!!

عند وصولي إلى المصنع، ذهبت إلى مكتب والدي.. أخبروني أنه في المعامل يتفقد بعض عينات الأدوية.. قبل بحثي عنه وجدته يدخل مكتبي.. مسكين توفيق عبد الجواد.. مسكين رغم هيبته وجبروته وثرائه..

بداخل هذه الملابس، وخلف هذه الملامح، طفل كسير ذليل، رأى أمه عارية بين ذراعي رجل غير زوجها..

مسكين كل رجل تكتب له الأقدار امرأة تطيح بعنقه بخيانتها له..

نظرت إليه كأني أود لو أستميحه الصفح؛ لأني أثرت تلك القضية، وأعدت ذكر اسم من ذبحه، وذبح جيلًا ذهب، وجيلًا ليس مقدرًا له أن يولد!!

أنا حركت الخنجر في صدر والدي، بل أصبحت مثله أحمل في صدري ذات السكين..

كانت المرة الأولى في عمري بأكمله، التي أسمعه فيها يعنفني على التأخير وعلى أداء عملي في قسم الكواليتي دون انزعاج أو حزن..

للمرة الأولى يومها شعرت أن توفيق ما عاد والدي، بل أصبح هو الآخر طفلًا كسيرًا يتيمًا، يستحق الرثاء والشفقة..

اعتذرت عن تأخيري ووعدته بالبقاء في مقر الشركة حتى انتهاء العمل، وإن بقيت فيه لليوم التالي..

قبل أن يغادر مكتبي، صحت أقول له:

- هل أخبرتك يومًا أني فخور بك جدًّا وأني حقًّا أحبك كثيرًا!!

***

قالت شهيرة يومًا إن أضعف النساء وأكثرهن رقة تتحول في لحظة إلى وحش كاسر، إن كادت تفقد أحد اثنين: وليدها أو حبيبها!!

هي على حق!!

زهرة الرقيقة بعد يومين فقط من عجزي عن الرد على مكالماتها، أصبحت صقرًا هائجًا لا يهدأ..

كنت أتمزق قطعًا صغيرة كلما رأيت رقمها على هاتفي.. كنت أرى على شاشة الهاتف صورة جدها، وهو يغازل جدتي ويطارحها الغرام، ووالدي خلف الباب يبكي في ذل وقهر!!

كنت أذوب ألمًا وضعفًا، وأنا أقرأ رسائلها، التي جميعها تبدأ بتلك الكلمة، التي أطاحت برؤوسنا جميعًا..

لماذا؟!

لماذا تبتعد يا رؤوف؟ لماذا تظن أني سأستسلم؟

لماذا ندع أمي تقتل فينا الروح والحلم؟!

لماذا؟!

نعم.. الأيام تدور والتاريخ يعيد نفسه..

شهيرة بالأمس، وعندما قمت بذبحها هي الأخرى ما قالت لي سوى «لماذا» ؟!

يومان من الألم والرسائل.. حتى كانت الليلة الثالثة حين حادثني بهاء في منتصف الليل، وقال هامسًا:

- رؤوف.. أرجوك احضر حالًا!!

***

هي من فتحت لي الباب.. هي بعينيها الحمراوين، المغسولتين بأنهار غزيرة من الدمع والألم..

كان خلفها حقيبتان مغلقتان، وضعت فيهما زهرة كل ملابسها..

وقفت أمامها كالمصلوب.. بحثت بعيني عن بهاء فلم أجده..

ألقت بجسدها على صدري، انتفضت تبكي بكاءً مريرًا خنق أنفاسي، جعلني أشعر بضآلتي وقسوتي، ولكن من أين لي بالرحمة، وأنا حفيد تلك المرأة؟!

حاولت كثيرًا أن أهدهدها.. حاولت أن أضمها، بل حاولت أن أبكي بين ذراعيها.. لكن ما كان يسكنني سوى سؤال واحد... أهكذا كانت جدتي ترتمي على ذراعي وديع صفوان؟!

كانت ترتعش.. كانت تعاتب وتسأل، وتقسم أن الأرض بأكملها لو وقفت مع والدتها ضد هذا الحب، ما امتثلت ولا خذلته أو خذلتني..

صاحت من بين دموعها، وهي على صدري تقول:

- رؤوف.. بهاء خرج يبحث عن مأذون.. أخبرني أنه سيوقظه من نومه ويعود، ومعه شاهد آخر.. لم يعد هناك حل آخر.. إلا أنت.. إلا أنت!!

ابتعدت عنها، وأخرجت هاتفي، وخابرت بهاء قائلًا:

- عد إلى البيت حالًا.. لا تحضر معك أحدًا.. هل تفهم؟!

أمسكت بذراع زهرة في قسوة وغضب الجريح، الذي ذبحوه، وما أجهزوا عليه.. نظرت إلى عينيها الجميلتين، اللتين جفت دمعاتهما في لحظة، وقلت أطيح برأسينا معًا:

- زهرة، لم أعد أريد الزواج منك.. هل تفهمين؟!

***

هناك لحظات لا تمحى.. هناك كلمات لا تنسى، وهناك نظرة عين من عين من أحبونا وقتلناهم، يمضي العمر، وهي عن أعيننا لا تغيب..

الآن وأنا في منتصف العمر تقريبًا.. الآن وبعد رحلة طويلة مع الحب، مع المتعة ومع الظلم.. وحتى بعد أعوام السجن والفراق..

الآن أقسم أن نظرة من عين امرأة جريحة هي أكثر ألمًا من كل هذا، وأطول عمرًا وبقاء منه في الروح..

لو أن زهرة بصقت في وجهي تلك اللحظة.. لو أنها صفعتني أو أمطرتني بكل سباب الدنيا، لكان عندي أرحم من تلك النظرة..

نظرة خاوية.. كلها ألم ودهشة وخيبة أمل..

الكلمات تُنسى والحروف تُمحى.. لكن نظرة عين امرأة جريحة كسيرة منحت حبًا ووفاء وألمًا، وخذلها من رأته يومًا فوق البشر، هي خنجر يبقى العمر في الخاصرة!!

***

هل أتشدق وأتلاعب بالحقائق والكلمات، وأخبرك أني اشتريت قلب أب ورضاه؟!

هل أحاول أن أصنع من نفسي في عينيك رجلًا، وأخبرك أني فضلت الحفاظ على عهدي لامرأة يعلم الله وحده إن كانت عمتي أم لا؟!

لن أفعل.. ما فعلته لم يكن شفقة بوالدي.. ما فعلته لم يكن رأفة بوالدتها.. أنا تخليت عن زهرة، وحطمت قلبينا لأني شرقي أحمق.. لأن ألياف العصبية مجدولة بتراث غبي، ليس له في الدين أو الشرع جذور..

تراث يجعل من المرأة غانية فاجرة إن سقطت، ويجعل من الرجل فريسة لا صيادًا..

نعم.. لو كان منصور هو من غازل فاطمة، وارتكب معها الزنا، أعتقد أن قسوتي على زهرة، وقسوة والدي على أمه كانت ستصبح شيئًا آخر..

***

لم تحادثني زهرة مرة بعدها.. لكنها أيضًا لم تتركني.. على بريدي الإليكتروني.. كنت أجد منها رسائل قصيرة متقطعة.. سطورًا قليلة في حجم الرصاص ولها تأثيره..

كتبت مرة تقول:

«لا ألوم نفسي على ذاك الحب الكبير الذي أحببته لك.. لُمْ أنت نفسك على هذا الكره الأكبر!!».

مرة أخرى كتبت تقول:

«من لا أَركض في دمه.. لا أُسكنه عروقي!!».

وفي إحدى الليالي وقبل خطوط الفجر الأولى أرسلت تقول:

«والله ما انكساري عليك.. أنا انكساري على قلبي، الذي رآك يومًا فوق البشر أجمعين»..

آخر رسالة أذكرها كانت أقساها جميعًا؛ حيث أرسلت تقول:

«الرجولة والصدق والوفاء أشياء تباع في لحظة، لكنها تبقى أشياء لا تشترى..

حقًا.. ليس كل ما يباع يشترى!!».

رسائل كثيرة قصيرة، لم أجرؤ يومًا على الرد عليها..

كانت أيامًا مريرة.. أيامًا أفقت فيها من كرامة الشرقي المهدورة؛ ليصحو العاشق بداخلي.. استيقظ يشتاق إلى زهرة.. إلى صوتها.. كلماتها.. ملمس كفيها الناعمتين.. نكاتها وجنونها.. رائحتها في بيت بهاء، وعلى صدري، وفي أنفاسي.

كنت أحيانًا أنثني على كبدي وأتمزق دمعًا وبكاء كبكاء والدي يوم رحيل أمي.. كبكائنا أنا وهو يوم رحيل جدي.. بكاء يقطر ندمًا وألمًا..

سقطت بين طرفي مقص حديدي صدئ.. أحد أطرافه الشوق والحب، والطرف الآخر الخجل والشعور بالدناءة، وأيضًا رصاصات زهرة على بريدي الإليكتروني!!

***

لم أرَ زهرة يومًا بعدها.. كأنها اختارت أن تترك لي نظرتها الأخيرة، تطاردني أعوام العمر..

حاول بهاء كثيرًا أن يفهم أو يسأل.. لكنه أدرك، بعد شهور، أن الصمت والابتعاد عن الحديث في تلك القصة وحده ما يمكن أن يكون..

كنت كلما دخلت إلى بيته، دمعت عيناي رغمًا عني، وأنا أرى مقعدها خاويًا أو أسمع صدى نكاتها، أو آثار أصابعها على صحن أو كوب شربت منه، قبل أن تتركني في ظمئي ووحدتي..

أفنيت نفسي في معامل شركتنا.. مزقت روحي بين عينات الأدوية وموادها الخام..

طويت صفحة من عمري كان فيها امرأة وابتسامة..

قبل نهاية العام الأول من فراقنا، حادثتني تحية ذات ليلة.. لم أقاوم.. لم أتردد أبدًا في الرد عليها.. كانت تبكي.. أخبرتني أن زهرة ستتزوج.. أخبرتني أن زفافها بعد خمسة أيام من صديق لزوجها، يعمل في السلك الدبلوماسي..

كانت تبكي وتهذي.. ترجوني أن أنقذ زهرة من الزواج برجل لا تحبه، وأن أنقذها من فراق أختها؛ لأنها ستمضي العمر تجوب البلاد مع زوجها..

أشفقت على تحية كثيرًا، وهي تسألني هل أعلم ذل امرأة وانكسارها، وهي في طريقها إلى بيت وجسد رجل لا تحبه!

شعرت أنها تتحدث عن نفسها، عن حياتها.. تمنيت لو أسألها هل تعلم هي ذل رجل وانكساره عندما يترك امرأة أحبها كل الحب لرجل آخر..

كانت تبكي، وكنت مثلها أرقب دموعًا غزيرة، تنساب في صمت من عينيّ.. لكن لا هي رأتها، ولا أنا بها أطفأت حيرتها!!

كان بهاء إلى جواري في السيارة، بعد الأيام الخمس يسألني لماذا اصطحبته إلى نادي المشاة بمصر الجديدة؟! ولماذا نقف بالباب؟ وماذا ننتظر؟!

بعد ساعة من انتظارنا تقريبًا، وقفت سيارة مزدانة بباقات زهر، وحين تعالت أصوات الطبول والمزامير رأيناها.. رأينا عروسًا تخطو إلى جوار عريسها في الطريق إلى الداخل..

بهاء صاح يتهمني بالجنون.. كان يظنني جئت أفسد زفافها بحماقة أخرى..

كانت جميلة.. رغم بساطة ثوب عرسها.. رغم وجهها الخالي من الابتسامة، إلا أن عنقها كان عاليًا في كبرياء المظلوم، الذي له أمام الله دين يعلم أنه لن يضيعه!

غابت عني أصوات الدفوف.. غابت كل الوجوه في تلك اللحظة، وتذكرت كلماتها، وتمنيت.. تمنيت لو أركض إليها وأصرخ.. إنها تسكن في عروقي وتركض في دمي ركض كراته وركض غبائي وضعفي وانكساري..

حين غابت زهرة هي وكل من معها داخل مكان الاحتفال، رأيت تحية وحدها تقف في الشارع، وتستدير حولها كأنها تبحث عني.. ما رأتني وما عرفتني، فقد اخترت سيارة لا تعرفها، واخترت الوقوف في ركن مظلم أرى فيه كل شيء، ولا يراني فيه أحد..

رأيتها تنكس رأسها بعد لحظات، وتمضي إلى الداخل، وسمعت بهاء يقول في ألم:

- إن كنت تبكي بهذا الجنون.. فلماذا؟ لماذا أحضرتنا هنا؟! إن كان لديك سبب قوي لا تريد الإعلان عنه يجعلك تحطم قلوبنا جميعًا، فأي سبب يجعلك تحضر، وتحضرني هنا الآن؟!

أدرت محرك السيارة، وانطلقت أقودها قائلًا:

- يا صديقي ليس كل من يبكي رحيمًا.. أنا أردتك أن تشهد قسوة ودناءة رؤوف عبد الجواد!!

في طريق العودة، أغمضت عيني وتمتمت:

- زهرة.. أنت طالق!!

***

للزهر فصل واحد.. وتبقى فصول العمر الباقية بلا أزهار..

موسم الزهر انتهى.. غابت زهرتي، كأنها ما نبتت قط على أرض أيامي.. كأن والدي ما عرف يومًا بالقصة.. كأن بهاء هو الآخر ما رآها يومًا ولا استند إلى ذراعيها أيامًا وأيامًا، قبل أن يقف على ساقه التعويضية.. كأنها ما كانت..

طارق التحق بالطب البيطري، وخصص له والدي ثلاثة أيام في الأسبوع، يحضر فيها إلى مصنع الأحرار..

كان واضحًا أن طارق سيبرع في التسويق.. هو متحدث لبق خفيف الظل، سريع البديهة.. لديه قدرة كبيرة على احتواء جليسه، وإن كان كلاهما يحمل للآخر سكينًا خلف ظهره!!

أنا كعادتي أو كما أصبحت عادتي، بعد انقضاء موسم الزهر، قليل الحديث.. كثير التأمل.. أرقب عينات الدواء، وأتابع الكشف عليها وتوقيع كشوف صلاحيتها ومتابعتها، حتى خروجها في أوانٍ وقوارير لأيدي المرضى والصيدليات..

كانت تهاجمني الذكريات كثيرًا، ويطاردني الشوق أحيانًا أخرى، لكن نبت بداخلي شعور كبير بالزهد في كل النساء، وشعور أكبر بأن ما فعلته كان هو الخيار الوحيد..

زهرة ستسعد في زواجها.. نقائها.. طهارتها.. عدل ربي وربها يكفلون لها السعادة..

ضعفي واستغفاري ورحمتي بوالدي، وحدها، كانت عزائي وعكاز أيامي..

العمر يمضي والأعوام تنساب من بين أصابعنا إن كانت هادئة.. نحن لا نقف ولا نفكر إلا حين تهب العواصف..

أعوام مرت هادئة راكدة، لا شيء فيها ينمو، سوى ثروتنا وأرصدتنا..

هناك رجال لا يكتفون بامرأة واحدة، وهناك رجال لا يستطيعون الحياة إلا مع امرأة واحدة.. وأيضًا هناك رجال لا امرأة يستطيعون الحياة معها..

وديع صفوان كان رجلًا لا يكتفي بامرأة واحدة.. والدي الطيب الجريح رجل، لم تستطع أمي رحمها الله أن تجعله يحيا ويتذوق معها الحياة..

نعم الرجال في حبهم ووفائهم أنواع.. أنا كنت من نوع آخر.. أنا رجل عاش أعوامًا طويلة مع امرأة لا يراها.. امرأة يحملها في قلبه، وألقته هي من قلبها.. امرأة أرسلت لي بعد شهور من زفافها آخر كلماتها قائلة:

أغادر مصر.. بعد لحظات، أغلق فيها هذا البريد إلى الأبد..

أشكرك رؤوف علمتني ما لا يمكن لرجال الأرض أن يعلموه لامرأة.. علمتني كيف أحب بجنون، وكيف أكره بجنون أكبر!!

رؤوف:

أنا النسيان بعدك في انتظاري.. أما أنت، فالندم سيسكنك بعدي أبد العمر!!

***

خمسة أعوام مرت وتسربت من عمري، دون أن أشعر بها..

خمسة أعوام كأن الأيام والأعوام مقياسها العواصف لا النسمات..

خمسة أعوام شعرت فيها بطارق يجوب قلوب وأجساد عشرات الفتيات والنساء.. شعرت به يرى نفسه أكثر ذكاء وتفوقًا في إدارة مصنع الأحرار وشركاته، رغم أنه مازال طالبًا في الجامعة في ذلك الوقت..

بدأ طارق يتحدث عن الذكاء العملي والاستثماري، كأنه يتهمني بالغباء الكامل..

أصبح يتهمني بالجنون، كلما أصررت على استيراد مواد الدواء الخام، التي يقوم مصنعنا بتصنيعها من الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية.. كان يطالب باستيراد البدائل القادمة من الصين والأرخص ثمنًا والأقل فاعلية..

كنت أرى الدواء سلعة، يحرم فيها البحث عن الأوفر والأرخص.. الدواء كالحب لا يجوز فيه الرخيص..

رخيص الدواء لا يشفي ألم الجسد.. ورخيص الحب لا يشفي ألم الروح.. لكن كيف لطائش مثل أخي أن يعلم ألم الروح أو الجسد؟!

كانت خلافاتنا كبيرة، وكان والدي يتأرجح أحيانًا بين الرغبة في مزيد من المكاسب المادية، وبين مبادئ، أعلم علم اليقين أن جذورها في رأسه ضاربة.. لكن طارق بمهارته يجعله يتشكك في وجوب الثبات عليها.

طارق الطالب الذي يعمل أيامًا قليلة في شركة الأحرار، أصبحت أرصدته أكبر من أرصدة من يقضي اليوم بأكمله في مصنعها.. لم يكن هذا ليغضبني وما حاولت تفسيره كثيرًا..

ظننت أنها نفحات كريمة من والدي، تضاف إلى راتبه الكبير المساوي لراتب المتفرغ..

كان طارق يشتري حتى ملابسه الداخلية من أكبر دور الأزياء.. كان حريصًا على أن تكون سيارته، عندما حصل على رخصة القيادة، من أكثر السيارات لا غلوًّا فحسب، لكن أكثرها جذبًا للأبصار، كأنها إعلان عن شاب ثري.. لكنني كنت مطمئنًّا اطمئنان والدي إلى أنه أبدًا ليس أحمق.. لا امرأة ولا رجل على الأرض بإمكانه أن يسلبه شيئًا.. طارق عشقه الأول والأكبر نفسه، قبل وفوق الجميع..

يبدو أن الإنسان، عندما لا يجد في أول أيام حياته من يستحق الحب الحقيقي، يحب ذاته وينشأ على حبها حتى النهاية.. أنا عندما وجدت رصيدي الشخصي يسمح لي بشراء سيارة فارهة لم أفعل..

اصطحبت بهاء ذات يوم إلى «جزيرة الذهب».. جزيرة كان القانون عنها غائبًا في تلك الأيام، التي غاب فيها القانون والعدل عن أرض مصر كلها..

أمام هيكل خرساني لمنزل من دور واحد، وقفنا، ونظرت إلى بهاء أقول: «بيت الأحزان والأسرار»..

اشتريت ذاك المبنى، وأسندت إلى بهاء متابعة عمال التشطيب والدهانات.. أردت أن يشعر بهاء أنه مازال على العمل قادرًا، وأردته أيضًا أن يجد ما يستثمر فيه وقت فراغه..

رفض بهاء في البداية تمامًا أن يأخذ أجرًا نظير متابعة الأعمال وعمليات شراء المواد اللازمة.. لكنه فعل في النهاية، بعد مناقشات طويلة وعديدة أشرت فيها إلى أنني أسكن بيت والدي، ولا أدفع فيه مليمًا من مصروفاته.. ورغم هذا فأنا أتقاضى عن عملي في شركاته راتبًا كبيرًا، أكبر حتى من راتب مدير، مضت عليه أعوام طويلة في المجال ذاته..

لم أر بهاء سعيدًا كما رأيته في تلك الأيام.. كان يحادثني في مقر الشركة عشرات المرات؛ ليخبرني بما تم، وما يجب أن يتم..

بدأت أدخر من جديد، وطلبت للمرة الأولى من والدي قرضًا كبيرًا، يخصم من راتبي الشهري، ومن الأرباح السنوية..

أردت أن أشتري شيئًا آخر، أصل به إلى بيت الجزيرة، عند انتهاء العمل منه وتأثيثه.. منحني والدي القرض، واشتريت «لنش» أقرب ما يكون إلى يخت صغير، مجهز بكل ما يتمناه مالك يخت أو لنش..

فقدت امرأة وعشقت النيل.. أضعت حبًّا طاهرًا رائعًا، واقتنيت بثمن فراقها وشقائي وعملي بيتًا ولنشًا صغيرًا، أتجول به كل يوم إما وحدي أو بصحبة بهاء..

كان يثرثر كثيرًا، وأيضًا كانت تنتابه نوبات صمت طويلة، كنت أشعر فيها أن كلينا يفكر في شيء جميل، كان يومًا بين يديه وضاع إلى الأبد..

على ظهر اللنش الأبيض، وفي لحظات الصمت، وبالتحديد عند لحظات سقوط الشمس، وهي تعلن يأسها كل يوم عن حرق الشرور والغباء والتقاليد البالية في رؤوس البشر.. عند تلك اللحظات، التي تقرر السقوط فيها في قلب النيل لتغسل عينيها عن كل ما رأته منهم، منذ لحظة إشراقها، وحتى يعاودها الأمل، فتشرق في الصباح التالي من جديد.. كانت هناك دومًا لحظات صمت، أرى فيها عيني بهاء

– كعيني - تغرقان في حزن كبير كأننا نسأل...

كيف ضاع منا الحب؟! أي ذنب أذنبه بهاء لتتركه مني بتلك القسوة؟! وأي ذنب اقترفته يداي أنا لتتركني زهرة، وهي تكرهني بعد أن أحبتني يومًا ذاك الحب الكبير؟!

***

«لديَّ كتاب صغير.. أكتب فيه حين أنساك.. كتاب ذو غلاف أسود.. لم أخط فيه كلمة بعد!!».

يوم قرأت كلمات «فيرناندو بيسوا» هذه، بحثت طويلا حتى وجدت مفكرة سوداء، صفحاتها صفراء صغيرة كذاك الخريف، الذي يسكن أعوام شبابي.. اشتريتها ووضعتها على مكتبي في شركة الأحرار، وبقيت أعوامًا بعد رحيل زهرة، أتمنى لو أكتب حرفًا لا كلمة كما تمنى قائل الكلمات..

لم أنسها ولم تغب عن رأسي يومًا..

لماذا سيدتي يُتهم الرجال بالقسوة والنسيان دومًا؟! لماذا تظن النساء أن الوفاء أنثى، وقد خُلق في قاموس اللغة مذكرًا؟!

والله ما نسيتها يومًا، ولا كرهتها لحظة، كما أخبرتني قبل سفرها في رسالتها تلك..

والله سيدتي ما غفت عيني ليلة إلا على دعوة صادقة من قلبي، لها بالخير، ولي بالمغفرة والرحمة..

لم أكن أذكر ملامح زوجها في لحظات الزفاف تلك. كانت عيناي على زهرة وحدها.. لكن كثيرًا ما تخيلته يضمها.. يقبلها، ورغم قسوة تخيلاتي إلا أني دومًا كنت أتمنى لو يضمها أكثر ويقبلها أكثر..

هل كان من الممكن أن أترك توفيق عبد الجواد يذبح مرتين.. مرة بيد أمه ومرة أخرى بيد وليده؟! هل حقًّا كلمة كان هي أكثر كلمات اللغة قسوة ودناءة؟!

ما كان لا يكون مرة أخرى أبدًا، وإن حاولنا إعادة نسخه أو نقشه على عروقنا نقشًا!!

***

كانت هدية تَخرُّج طارق لي كبيرة، لا أنساها رغم أن هداياه توالت بعد ذاك اليوم كثيرًا.. مازلت أذكر أنها جاءت بعد تخرجه، وإعفائه، هو و دفعته بأكملها، من الخدمة العسكرية بشهور..

كان صباحًا خريفيًّا هادئًا عندما اكتشفتها..

قام بتزوير توقيعي بمنتهى المهارة والدقة على أوراق اعتماد استيراد مادة خام لدواء، نقوم بتصنيعه في شركتنا.. قام بالتوقيع باسمي على استيراد عينات قمت أنا برفضها بعد فحصها.. أمسكت بالأوراق بين يدي وانطلقت كقذيفة مجنونة إلى مكتبه.. حين دخلت وصرخت ولوحت بالأوراق، لم تهتز في جسده شعرة واحدة صغيرة..

شقيقي الصغير وابني وضحيتي أخرج من جيب بنطاله سيجارة، قدمها لي بعد أن أشعلها في هدوء قائلًا:

- إلى متى رؤوف؟ إلى متى لا ترى عيناك إلا ما تريد أن تراه، لا ما هو قائم بالفعل؟! الصين تكتسح العالم بتقدمها وصناعاتها.. الصين ليست شبحًا أو عفريتًا.. اطرد أنت أشباح وعفاريت السذاجة من رأسك.. لماذا يحلو لك أن تسلم أعناقنا دومًا لمن يطئونها بأقدامهم؟! لماذا تعشق أن تقتسم نقودنا مع من يريدون الإجهاز عليها، وتكره من يضيفون لها أرقامًا وأصفارًا؟!

أنا لا أكره الصين أبدًا.. لا أرفض ما تنتجه.. هناك مواد وأدوية ومعدات لا نستوردها إلا منهم.. لكن هناك درجات للمواد الخام، تتدرج في فعاليتها وصلاحيتها.. مازال الحب والدواء عندي لا يخضعان للمقايضة والربح والخسارة.. هل حقًّا يراني طارق أحمق أم أنني بالفعل أحمق؟!

لا أعلم.. ما أعلمه أن صراخنا وعراكنا طال حتى وصلت صيحاته مكتب والدي، الذي ما أخبرته بشيء عند تدخله وسؤاله..

ألغيت الاعتماد من البنك، وأوقفت استيراد الشحنة بعد خسارة مادية، تحملتها وحدي أمام أبي.. فكيف أخبره أن وليدنا في أول شهور عمل رسمية له بعد التخرج، قام بتزوير توقيع أخيه؟!

شعرت بخنجر يغرس في أعماقي من هدية طارق .. بقيت أسابيع أستعد للسفر إلى چينيف في رحلة عمل، وأنا أشعر بالخوف من أن أترك طارق وحده في المصنع، رغم تعهده لي بألا يكرر فعلته..

بقيت أسابيع أتألم.. وفي ليلة سفري ذهبت إلى غرفته.. أخبره أني في الصباح أسافر، ولا أريد أبدًا أن أفعل دون أن أخبره أننا لسنا بحاجة إلى مزيد من النقود، فأرصدتنا أصبحت ملايين.. نحن فقط بحاجة لمبادئنا القديمة، واقتراب أحدنا من الآخر..

وحدي شددت ذراعه وضممته إلى صدري، أكرر عليه ما عشت أعوامًا أقوله.. أحبه.. هو أخي.. هو طفلي، وهو أيضًا ضحية قصصي وحماقاتي الطفولية البعيدة..

عندما ضمني شقيقي علمت أنه على حق.. أنا لا أرى فيمن أحبهم إلا ما أريد رؤيته فقط.. ما رأيت ولا أرى في شقيقي، الذي ذبحتني هداياه، وأضاعت من عمري أعوامًا إلا طفلًا صغيرًا، مازلت أحمله بين ذراعي، بعد رحيل أمه وأمي!!

قد يكون طارق أصاب في كلماته تلك.. لكنه أخطأ خطأ كبيرًا في نصفها الأخير..

أنا لم أسلم أعناقنا لأحد.. لم يطأ رقابنا أحد بحذائه سواه..

أنا سيدتي من جزَّ عنقيْ امرأتين، أسلمتاه كل شيء..

وحدي نحرت عنقيْ امرأتين، لا أشهى منهما ولا أغلى!!

نحرتهما رغم أنني من أجلهما نحرت عمرًا وروحًا ودمًا!!

***

في الطائرة.. في رحلتي تلك لا أدري لماذا تذكرت ذاك الدفتر الأسود، الذي اشتريته بعد عبارة فيرناندو بيسوا تلك.. عندما اقتربت عجلات الطائرة من لمس الأرض السويسرية، تمنيت لو أعود وأخط على سطوره كلمة..

نعم.. أريد أن أنساها.. أريد أن أنسى زهرة، وأقتلعها من صدري.. لكن أحيانًا في اللحظة التي نتمنى فيها النسيان، تغمس الأقدار أرواحنا في الذكرى أكثر!!

بعد انتهاء اجتماعات العمل، وفي نهاية الأسبوع.. في تلك الأيام التي تموت فيها الحياة، في كل الشوارع الأوروبية، وبالأخص چينيف، حتى تكاد تشعر ألا أحياء فيها سواك..

نصحني أحد سكان البلدة بقضاء اليوم على متنزه بحيرة «لومو»، التي تقع في لوزان..

ذهبت إلى لوزان.. توجهت إلى «أوشي».. أغمضت عينيَّ، وسبَّحت بقدرة الله، وأنا أرى أجمل بحيرة تفصل تلك المدينة الجميلة عن فرنسا..

في تلك اللحظة بالتحديد تذكرتها.. في تلك اللحظة تمنيت لو أنساها، أكثر من أي يوم في عمري.. أريد أن أتحرر منها.. أريد أن أحب وأضم امرأة غيرها إلى صدري..

خمسة أعوام من الفراق.. خمسة أعوام من اجترار الذكرى، وبقايا الصور والكلمات.. دعوت الله، وأنا مغمض العينين أن أنساها.. أن يرسل لي امرأة أحبها.. شعرت في تلك اللحظات بشوق إلى الحب والرحمة.. إلى النسيان..

كان المتنزه المطل على البحيرة كبيرًا رائعًا، يعج بزواره وأطفاله الذين يركضون.. كنت أراهم وأنا مغمض العينين، وروحي في طلبها للنسيان غارقة..

صوت ارتطام قريب، وصوت امرأة بعيد، يقول في خوف:

«رؤوف»..

أفاقني الصوت.. فتحت عيني، وقبل أن ألتفت بحثًا عمن يناديني، وجدت تحت أقدام المقعد الذي أجلس عليه طفلًا صغيرًا، سقط من دراجته الصغيرة الملقاة إلى جواره..

نسيت الصوت الذي ظننته وهمًا قادمًا من رأسي.. انحنيت أساعد المصاب الصغير، وأقف به هو ودراجته.. لكن عاد الصوت يقترب قائلًا:

- رؤوف.. رؤوف..

هي زهرة.. وهذا الصغير الذي نهض عن الأرض كان طفلها.. لم تكن تناديني، فما كانت تراني، وهل ترى أم سقط ابنها عن دراجته أحدًا أو شيئًا سواه؟!

ذاك كان اسمه الذي نادته به..

حين التقت عينانا.. حين ترك طفلها يدي، وتعلق بذراعها لم تضمه.. لم تسأله إن كان بخير.. كانت غائبة في النظر إلى عيني..

هل رأت الدمعة التي شعرت بها ترقص بين جفنيَّ؟!

هل سمعت صرخات الدهشة التي انطلقت من عروقي؟!

هل حقًّا تسلل إلى صدرها دخان حرائق ندمي، التي اكتويت بها خمسة أعوام؟!

نظرت إلى ماء البحيرة الأزرق، وبحثت بعيني عن زوجها.. عن أبناء آخرين لها.. عن شيء أقوله أو آخر أكتمه في صدري..

لا شيء سوى أنها جذبت كف صغيرها، وانحنت تلتقط دراجته، ومضت به بعيدًا دون حتى كلمة واحدة!!

تلك اللحظة التي التقت فيها عينانا.. تلك اللحظة التي وقفت أرقبها تخطو بعيدًا عني.. تلك النظرة التي كانت تشتعل كرهًا وغضبًا.. كيف أنساها؟

كيف تكره امرأة رجلًا إلى ذاك الحد، الذي رأيته في عينيها، وتطلق اسمه على طفلها؟!

مازلت حتى اليوم لا أفهم!!

ولكن هل هناك رجل على سطح الخليقة بإمكانه أن يدعي أنه فهم امرأة يومًا؟!

***

خمسة أعوام لم أرها يومًا صدفة على أرض مصر.. ولكن لِمَ ظننت أنها عادت إلى مصر، بعد خروجها منها؟!

وحدي من ركب الطائرة وعاد.. وحدي من تمنى النسيان والرحمة، فقهقهت الأقدار من سذاجتي، وقادتني إلى بلدة غير بلدة العمل والاجتماعات فقط، ليسقط طفلها ودراجته تحت مقعدي..

سافرت لألتقيها ولتخبرني عيناها أنها حقًّا تكرهني..

أنا أيضًا من عدت إلى وطني، ودخلت مكتبي في الشركة بعد رحلتي تلك، وقبل حتى أن أرتشف قهوة الصباح، تحسست الدفتر الأسود الصغير في مرارة..

الرحمة التي يسميها البشر تجاوزًا «نسيان» ليست أبدًا مشاعًا للجميع..

إلى العمل عدت.. إلى المعامل وحديث القناني والعينات.. إلى لمسات المواد الخام وأوراق العقود والاعتمادات.. لم يكن ألمي حبًّا وشوقًا فحسب، بل كان شعورًا بالذنب في حقها وحقي.. شعورًا يشعرني أن عقاب القدر لي هو أن يبقى دفتري الأسود خاليًا من سطر أو كلمة أو حتى حرف واحد..

قدم لي والدي أكثر من رجل له ابنة يتمنى لو يزوجها لي.. ألمح لي أكثر من مرة في كبرياء أن الوقت قد حان لأن أسكن البيت، الذي انتهت كل الأعمال فيه.. لم أستجب أبدًا لتلميحاته، ولم أحاول حتى أن أبدي فهمي لها رغم وضوحها..

نحن لا نحدد الوقت ولا نصنع القرارات..

حمقى من يظنون أنهم صناع القرار.. القدر وحده يضع القرار على لساننا، أو بين أصابعنا وأمام أعيننا..

عامان تقريبًا مرّا على الفراق، وبعد ذاك اللقاء، الذي سافرت له دون أن يكون لقاء!!

عامان جاء بعدهما صباح عاصف ماطر غائم، لم تر شبيهًا له سماء القاهرة أعوامًا طويلة!!

في لحظة، استدرت إلى نافذة مكتبي، أنظر في ذهول.. ورغم أنها كانت حوالي العاشرة صباحًا، إلا أن السماء أظلمت وغسلت بأمطارها كل شيء في وحشية، لم أرها حتى في بلاد أوروبا وأمريكا..

في صباح يناير القاتم ذاك، دخل سكرتير والدي مكتبي، فنحن كما تعلمين محرم علينا عمل النساء والآنسات لدينا.. دخل يخبرني أن صيدلانية من طرف أحد أصدقاء والدي جاءت تلقاه.. لكنه ما وصل بعد وأنها طلبت لقائي..

خرج والدي معي ذاك الصباح من البيت.. كيف وصلت أنا، ولم يصل هو رغم أنه لم يتأخر يومًا على موعد لديه؟!

طلبت الصيدلانية أن تلقاني أنا، ولم تستطع أن تنتظر والدي، رغم أنها علمت أنه في الطريق، كما أخبرني السكرتير..

هي الأقدار سيدتي عندما تشاء، ونظن أننا نحن من نكتب ونمحو السطور..

حين فتحت الباب بعد تلك الطرقات الخفيفة، لم تتقدم خطوة واحدة نحوي.. وقفت الزائرة تنظر في ذعر إلى هجوم الأمطار الوحشي على زجاج نافذة مكتبي الكبير.. كان شعرها ثائرًا مبتلاً حول رأسها.. أنفها كان أحمر اللون من قسوة البرد والانفعال، الذي كان واضحًا على ملامحها.. بقيت ثوانيَ أرقبها، وأنتظر أن تخطو داخل المكتب، وهي أبدًا لا تحول عينيها عن أمطار الزجاج الصاخبة..

شعرت في لحظة أنها تنتفض بردًا.. شعرت أنها تكاد تبكي خوفًا، وهي ترى نفسها بعيدة في ظلمة كهذه..

في لحظة شعرت أني أرى امرأة..

كم عامًا سيدتي لم أر فيها امرأة سوى زهرة؟! كم عامًا، كانت كل النساء فيها أجسادًا تخطو بلا رؤوس أو ألوان؟! أعوام الفراق كلها لم تجعلني فيها امرأة أراها أو أشعر بها سوى تلك الخائفة المشدوهة، التي يقطر شعرها قطرات ماء صغيرة، وينتفض أنفها الأحمر الدقيق في خوف..

شعرت أني أريد أن أدفئها، وإن كان بين ذراعي.. أريد أن أطمئنها وأعدها أني لن أتركها، قبل أن تهدأ الأمطار وتعاود الشمس ظهورها على سماء يناير تلك..

سمعتني أقول:
- أنت مبتلة.. ستمرضين..
رأيتني أخطو خارج مكتبي وأتقدم نحوها.. طلبت منها نزع معطفها ورأيت عينيها تعودان من ذهولهما، عندما التقت عينانا رأيت عينيها.. كان لونهما غريبًا، لا هو بالبني ولا هو أيضًا بالرمادي.. كان ينطلق منهما صوت جلي أعرفه، وبقيت أعوامًا أصارع ذراعيه..
كان في عينيها حزن وشوق.. كان في عينيها شيء كطفل يبحث عن ذراعين.. شيء كأرض تبحث عن سقيا.. في عيني تلك الزائرة رأيت شيئًا من نفسي..
سرت بها نحو المقعد، وجلست أستمع إليها، وهي تحاول استعادة سيطرتها على نفسها..
تحدثت كثيرًا وطويلًا.. تحدثت في جمل متقطعة مرتبكة عن دواء تنتجه شركتنا.. دواء لعلاج مرض الصرع، قالت إن الدواء ليس دواءً، بل قطعة من الحلوى، يكاد يخلو تمامًا من المادة الفعالة..
قالت إنها تبرهن على صحة ما تقول بتقرير معامل Natacar المركزية.
رغم دهشتي وعلمي أن هذه المعامل لا تحلل أبدًا أي دواء، دون تكليف من جهة رسمية، إلا أني صدقتها وتعاطفت معها..
صدقت زائرة غريبة، جاءت في يوم ماطر، ونسيت أني أنا بيدي من أوقّع وأتابع موادنا الخام ومطابقتها للمواصفات، حتى لحظة تغليفها ووضعها في أوانيها.. صدقتها كأني منذ أعوام أعرفها وكأنها أخرجت لي أوراقًا معتمدة من المعامل المركزية تؤكد صحة كلماتها وحروفها..
استدعيت أحد العاملين الذين أثق فيهم، وطلبت منه أن يعيد تحليل علبتين من دواء الصرع، ولم أكتفِ بهذا.. بل وكأنني حقًّا تأكدت من صحة ما قالت أصدرت له أمرًا بوقف تداول كل الكميات، التي طُرحت في الأسواق حتى ظهور نتائج التحليل.
سيدتي لم أفعل هذا حبًّا فيها، أو هيامًا بامرأة جعلتني أبصر بعد أعوام من الغشاوة والعزلة والوحدة..
والله كنت أنتفض غضبًا وإشفاقًا على كل مريض، يأخذ دواء يخلو من المادة الفعالة.. كنت أصدقها وأثق في كلماتها، كأني منذ الأزل أعرف نزاهتها وصدقها.. أذكر أني طلبت منها ألا تخبر والدي شيئًا إن حضر والتقته.. لم أشك لحظة أنها قد ترفض.. لم أشك لحظة أنها قد تظن بي الظنون، فلا معنى لما طلبت سوى أني أعلم بفساد الدواء، وأخشى مساءلة والدي واكتشافه للأمر..
كنت أثق في تلك الزائرة بقدر ما كنت عليها أحنو وأشفق..
حين وصل والدي، وحين نهضت تتبعه لتذهب إلى مكتبه، ابتسمت قائلة:
- أنا شهيرة عبد الرحمن..
اسمها شهيرة.. كيف لم أسألها طوال اللقاء؟! كيف لم تخبرني؟! وفقط قالت اسمها في حضرة والدي!
هل شعرنا أن أحدنا يعرف الآخر، أم شعرنا أن من جمعتهم الأمطار والأقدار ليسوا أبدًا بحاجة إلى حروفٍ واسماء، يعرِّفون بها بعضهم البعض؟!
لا أعلم.. كل ما أعلمه وأذكره شيآن... الأول أني بقيت أنتظر انتهاء لقائها بوالدي..
وكنت أعلم وأثق أنها لن تخبره شيئًا..
انتظرتها لأخبرها أن سائقًا سيذهب معها بسيارتها إلى باب بيتها.. انتظرتها لأضع حول جسدها معطفها، وأمنحها مظلة تضع تحتها رأسها الجميل، وعينيها اللتين حتى اللحظة لا أعرف اسم لونهما..
هل تعلمين ما الشيء الآخر، الذي فعلته بعد لقائها وخروجها؟!
من زجاج نافذتي، رأيتها تخطو تحت المظلة التي منحتها، والسائق يخطو أمامها..
بعد أن غابت الزائرة عن عيني، رأيت أناملي تتسلل من كفي إلى دفتري الأسود، وكتبت أقول:
يا دفتر النسيان الخاوي.. أخطّ عليك أول سطوري..
أنا اليوم رأيت امرأة!!

***

يبدو أن هناك قوانين سماوية تحكم كل شيء.. لكننا نظن أشياءنا وحدنا لا تخضع لها..

الحسنات تمحو السيئات في قانون السماء.. والكلمات، تمحو الكلمات إن سكنت مكانها، ويبدو أن النساء وحدها تمحو وجهها نساء أخريات.. رأيت شهيرة.. سكنت رأسي وغسلت بسكناها ذاك الجرح القديم، وغابت نظرة زهرة التي طاردتني أعوامًا خلف لون عيني شهيرة، الذي حتى هذه اللحظة لا أعرف له اسمًا بالتحديد..

بقيت أيامًا أتساءل هل أحبتني شهيرة، كما أحببتها في اللحظة ذاتها؟ وهل إن فعلت حقًّا كان ذاك لتمحو اسم رجل آخر ونظرة كراهية لعينة، طاردتها هي الأخرى زمنًا..

شهيرة لم تعرف قبلي رجلًا.. حبيبتي التي تعمل معيدة في كلية الصيدلة بعين شمس، وتستعد لإنهاء رسالة الماچستير.. قلبها كان بكرًا كقلب زهرة يوم أسكنتني إياه.. يبدو أن الحب الأول في قلب النساء وحده يحمل الخنجر، ووحده يسدد الضربة القاضية..

جاءت نتيجة معامل شركتنا.. دواء الصرع الذي ننتجه ليس سوى قطع سكر صغيرة.. يكاد يخلو تمامًا من المادة الفعالة.. حملت التقارير إلى مكتب والدي، الذي ماج بالغضب، يتهمني أنا وطارق بالتقصير والتخاذل في عملنا..

من كان عليه أن يحمل الذنب هو أنا.. فأنا المسئول عن الجودة، وأنا وحدي من يبيح توقيعه على الأوراق استخدام المواد الخام..

عندما راجعت كافة الأوراق كان توقيعي عليها سليمًا.. عندما أعدت بنفسي فحص العينات كانت أيضًا جميعها سليمة.. لكن جميع المادة الموجودة في الشركة التي أخذت منها عينات عشوائية، والتي في طريقها إلى تصنيع المزيد من الدواء، كانت المادة الخام بها تقل نسبتها عن خمس بالمائة، مما هو مفروض ومقرر.. المادة الخام الموجودة والمستوردة.. ليست أبدًا المادة التي وقعت على أوراق استيرادها..

هل هو خطأ من الشركة المصدرة؟! هل هو حقًّا سوء تخزين؟! كان يجب أن أتتبع كل الخيوط.. لكن عندما بدأت إلقاء شباكي حول الحقيقة، حال وقوعي في شباك الحب عن استكمال الرحلة..

أرسلنا إلى الشركة الألمانية نخبرها بفساد المادة الخام، التي وصلتنا منهم وأرسلوا لنا كميات بديلة؛ فعمر تعاملنا معهم وسمعة معاملنا كانت فوق الشبهات والتأجيل..

أوقفنا توزيع جميع قناني الدواء المطروحة في الصيدليات، وتم سحبها من الأسواق، وأصبح المصنع يعمل دورتين مضاعفتين، بعد وصول المادة الخام من ألمانيا؛ لسرعة إعادة طرح الدواء في الأسواق..

أرسلت لنا الشركة الألمانية أحد خبرائها لمعاينة المواد الخام الفاسدة على أرض شركتنا؛ لنعلم بعد شهور أن المادة الخام الموجودة في مصانعنا ليست أبدًا التي أرسلتها الشركة الألمانية..

لغز كبير.. تم استبدال المادة الخام، إما من على أرض الجمارك بعد الإفراج عنها، وقبل وصولها إلى مقر الشركة، أو تمت سرقتها بالكامل من المخازن، واستبدالها بالمادة التي بقينا شهورًا، نعمل بها وننتج منها أدوية لاتسمن ولا تغني من جوع..

لغز كبير لم نصل إلى حله.. لكن كل ما فعله والدي هو تغيير طاقم كبير من العمال ومستخلصي الأدوية من الجمارك، وأيضًا طاقم الأمن بأكمله، الذي يقوم على حراسة مصانعنا ومخازنها..

ما كان من الممكن أن نصل إلى أصل القصة.. والدي كان حائرًا، يأكله الشك والشعور بالذنب، وطارق كان متشفيًا، يصر على أن التلاعب جاء من حلفائنا في ألمانيا، ويدعي أنهم هم المخطئون؛ لهذا أرسلوا لنا المادة البديلة بتلك السرعة.. لكنهم لسذاجتنا

- حسب نظريته - أرسلوا الخبير ليصدر تقريره بأن ما لدينا ليس أبدًا من هم أرسلوه..

كان هجومه وحشيًّا، ورغم أنه كان مرفوضًا وليس مقبولًا، إلا أنه نجح في أن يجعل الشك يلعب في رأس والدي، الذي قرر السفر إلى ألمانيا والاجتماع بشركة أخرى منافسة لحليفتنا؛ تحسبًا لأي خديعة كما قال..

في اليوم التالي لحضور شهيرة، وبعد ظهور نتيجة المعامل، حادثتها واجتمعت بها في وجود والدي، حيث أخبرناها أن الخطأ طفيف، وأن الدواء تم سحبه من الأسواق، وسيتم طرح كميات أخري بديلة له في أقرب وقت..

لم تكن شهيرة تبحث عن قضية أو فضيحة.. كانت هادئة متزنة، بل أسعدها كثيرًا أن تعالج القضية ويتم تدارك الخطأ...

أذكر في ذلك الصباح أنها جاءت أنيقة جميلة.. شعرها لم يكن مبتلاً كاليوم السابق.. عيناها لم تكونا خائفتين.. لكن من خلف أمطار الأمس رأيت فيهما شيئًا يقول إنها أيضًا رأتني، وأنها تريدني كما أردتها..

قاومت بعض الشيء.. قاومت وأنا أخشى أن أقول لها كلمة، أو أتبعها إلى سيارتها.. فقد تظنني عابثًا، أو أريد شراء صمتها وسكوتها بقصة عابرة.. لكن عندما رقبتها من نافذة مكتبي تخطو نحو موقف السيارات البعيد، ركضت في جنون خلفها..

هل كانت تلك ساقيَّ، أم هي ساقا القدر كنت أركض فوقهما؟!

لا أعلم، لكن عند وصولي إليها كانت تستدير باتجاهي، وهي تحمل بين كفيها تلك المظلة التي منحتها إياها بالأمس..

كانت ستعود بها إلى الداخل.. لو أني انتظرت، لجاءتني هي وحدها وابتسمت سعيدًا لا أريدها أن تشعر أنها من سعت إلى رؤيتي..

أريد لهذه الشابة الجميلة أن تشعر أني أنا من ركضت خلفها وسعيت إليها..

مددت كفي ألتقط المظلة التي بين يديها، وعاودت النظر إلى عينيها كأني قررت أن أخوض رحلة كبيرة، أحاول فيها الوصول إلى اسم لهذا اللون، الذي لم أر في جماله وسحره أبدًا.. عينان أسكنتاني في حدقتيهما وأسكنتهما أنا دمعًا لن يفارقهما إلا بكِ إن شئت..

في تلك اللحظة سيدتي وضع القدر على لساني أولى كلماتي قائلًا:

- هل تسمحين لي بدعوتك على العشاء؟!

***

إلى العشاء ذهبت معي.. إلى المقاهي خرجت معي.. إلى أماكن كثيرة لم أفكر يومًا في اصطحاب زهرة إليها، فالمكان الوحيد الذي كانت تقصده معي زهرة، هو المكان الذي لم أجرؤ يومًا على دعوة شهيرة إليه..

بهاء رفض لقاء شهيرة، رغم ثقتي في سعادته الكبرى بظهورها في حياتي.. ضمني إلى صدره في سعادة، يوم أخبرته أني رأيت امرأة، وأني كتبت اسمها في دفتري الأسود، ونسيت بها زهرة كما نسيتني..

بهاء ابتسم يصحح لي أخطائي قائلًا: إن النساء تنسى رجلًا يحبها.. النساء تنسى، وقد تخون رجلًا يعاشرها ويحيا معها، ويعمل من أجلها، ومن أجل إرضائها.. لكن لا امرأة على الأرض تنسى رجلًا تركها، حتى وإن كرهته.. بهاء قال يومها إن الصواب بعينه نسياني لزهرة.. لكن هو أبدًا لن ينساها.. لا يريد لامرأة أخرى أن تجلس على مقعدها في بيته، أو تحاول الإمساك بذراعه، إن هَمَّ بالسقوط..

أخبرته أن شهيرة قد تصبح زوجتي وأمًّا لأبنائي، فهل يمتنع أغلى أصدقائي عن رؤيتها وصداقتها؟! شعرت في تلك اللحظات أن بهاء يشك في زواجي من شهيرة، فإن أنا لم أتزوج زهرة بعد كل ذاك الحب، وتلك الأعوام.. فأي شهيرة على الأرض أتزوج؟!

أردته حقًّا أن يلقاها.. تمنيت لو يتحرر من زهرة، ويجد امرأة أخرى.. لكن بهاء اختتم حديثه معي ذاك معلنًا أن نسياني لزهرة هو أفضل ما أقدمه لها لتحيا حياتها وتضمد جراحها مني، ويبقى وفاؤه هو لها ولذكراها ولرائحة عطرها في بيته كل ما يستطيع تقديمه، تكفيرًا عن ذنب صديقه الذي رآه يومًا رجلًا بلا ذنوب!!

***

أخذت شهيرة إلى بيت أسراري.. إلى صدري ضممتها.. بين شفتيها وقعت بشفاهي عهدًا، ظننته عهد العمر، ولكن كما ينتهي العمر في لحظة تكسر العهود في ثوان!!

نعم.. نسيت زهرة.. نسيتها وهل ينسيك الحب إلا الحب؟!

بيدي وقفت مع أحد عمال الزراعة في حديقتنا، أرقب نقل شجرة الليمون التي غرستها على بابي منذ أعوام..

أبدًا لن أترك شجرة زرعتها لامرأة تظلل بيت أخرى.. أخبرني المزارع أن نقلها ونقل حوض زهرة عصفور الجنة قد يؤتي عليهما، فالأشجار حين تضرب بجذورها في الأرض تموت إن اقتلعناها، وإن كان ذلك لزراعتها في جنة غناء...

ماتت شجرة الليمون بعد أسابيع.. كأنها حين نقلناها علمت، وأدركت أن تلك المرأة التي من أجلها زُرعت لن تأتي أبدًا..

حماقة إن فعلت.. حماقة إن قتلت شجرة الليمون تلك.. ولكن أليس الحب وعهود الوفاء حماقات أكبر، ورغم هذا نبكي إن غابت الحماقات، وغاب عنا إتيانها زمنًا؟!

أخبرت والدي عن رغبتي في الزواج من شهيرة زائرة المصنع، وصاحبة قضية دواء الصرع.. أخبرته أنني أحببتها، وأخبرني أنه بحاجة إلى أيام قليلة يعلن بعدها قراره...

كنت أعلم أنها أيام يجري فيها تحرياته عنها وعن عائلتها...

أبدًا لم يقلقني الأمر.. شهيرة لا جذور لها في الشرقية، أو هكذا ظننت حتى ليلة زفافنا..

هل أحدثك عن تلك الليلة؟!

هي الأخرى جاءت في الظلام.. كأنها جاءت لتبرئه من تهمة الأحزان والأشباح.. الليل ليس ظلمة.. الليل ليس ظلامًا إلا على من سكنت الوحدة قلوبهم، بعد خلوها من الحب والرفقة..

أعددت لتلك الليلة شيئًا آخر.. أعددت لتلك الليلة، بمساعدة بهاء، شكلًا آخر ولونًا آخر..

بهاء رفض أن يحضر حفل الزفاف.. بعد عناء ونقاش طويل، علمت أنه لا يريد أبدًا أن يرى طارق أو يجتمع به.. أخبرني أنه حتما سيلتقي شهيرة يومًا، ولكن ليس أبدًا يوم الزفاف..

كأن عائلة عبد الجواد تحتفل بمولدها من جديد.. كنا جميعًا رغم الثراء والشهرة بحاجة إلى فرحة.. إلى حفل نعلن فيه أننا سعداء..

حفل الزفاف كان في «ماريوت القطامية».. دعونا أكثر من ألف مدعو.. العروس ووالدها اكتفيا بدعوة أقل من مائة وخمسين فردًا..

ربما كانت شهيرة وعائلتها من السعداء، أو هي فعلًا كانت؛ لذا لم يكونوا أبدًا بحاجة إلى إعلان صاخب، يدعون فيه ذاك العدد الكبير ليشهدوا مولد سعادتهم مثلنا..

حتى طارق، كانت الفرحة تزغرد على وجنتيه، وجاءه وحده ما يقارب مائتي مدعو من أصدقائه وصديقاته..

عندما أطلت شهيرة في ثوب عرسها، كانت صارخة الجمال.. كل قطعة في وجهها وجسدها كنت أراها تطلق صفارة وترنيمة..

عندما وقفت أرقبها تتأبط ذراع والدها الرائع مدحت عبد الرحمن، وتهبط معه درجات ذاك الفندق الكبير، شعرت أن كل درجة تلمسها قدماها في طريقها إلى ذراعي، كانت تتحول تحت حذائها إلى حقل أخضر تنبثق منه باقة من الزنبق الأبيض.

وللمرة الأولى منذ عرفت شهيرة.. منذ التقيتها.. منذ ضممتها وقبلتها، تذكرت وجه زهرة، وهي في ثوب عرسها.. كان في وجهها شيء حزين، وابتسامة مبتورة وخطوة كسيرة، رغم كبريائها وعنقها المرفوع..

عدت أنظر إلى وجه شهيرة النابض اللامع وقدميها الساحرتين، اللتين تحيل رخام الأرض إلى حقول، وأغمضت عينيّ أستغفر ربي عما فعلته بزهرة.. لكنه وحده يعلم أن فراقها قتل في روحي جزءًا لن ينبض أبدًا.. وحده يعلم أنه خلقني بشرًا، والبشر أضعف من رحمة الإله وصفحه..

حينما منحني مدحت كف شهيرة؛ لألتقطه بين أصابعها واضعًا على جبهتها قبلة.. في تلك اللحظة الصغيرة، أخذت على نفسي أمام ربي عهدًا إن أنا أخطأت في حق زهرة.. إن أنا قتلت فيها الابتسامة؛ لأني لم أستطع أن أعصي والدي، وترفعت عن وضع خنجر جديد في ضلوعه،

فتويتي واستغفاري هي الوفاء لهذه الفتاة الرائعة، التي أعادتني إلى الحياة من جديد.

سأمنحها كل ما تمنيت أن تمنحه لي أمي وزهرة وكل نساء الأرض..

لن أنتظر أن تداويني.. لن أنتظر أن تمطرني هي بالحب والحنان.. أنا من سيعطيها كل ما أخذت وما حُرمت وتمنيت لو أحياه يومًا.. العطاء هو الدواء!!

هل بإمكانك أن تتخيلي شعور مذنب، يرى ذنوبه غطت سطح الخليقة، ومنحوه في لحظة صك غفران، يأخذه إلى الجنة والطهر؟! كيف ترينه يمسك بصك غفرانه ذاك؟!

طارق وجدتي وزهرة كانوا خطايا لا ذنب لي فيها.. لكنها غطت سطح روحي وحنايا طفولتي وشبابي.. شهيرة كانت صك الغفران الأبيض، الذي وضعه مدحت عبد الرحمن بين أصابعي.. خطوت بها إلى قاعة الزفاف.. جلست إلى جوارها، وأنا ممسك بيدها، فخور بتطهري وخروجي من سواد الخطايا والألم إلى أرض الحياة والحب من جديد..

ترك والدها قاعة الاحتفال بعد أقل من ساعة.. تركه ليذهب إلى عقد قران زياد شريكهم في الصيدلية، التي يملكونها، والذي يعتبره ابنًا له وتعتبره شهيرة أخًا لها.. تمنيت لو لم يختر الليلة ذاتها؛ ليتزوج ويكون معها ومعي في حفل زفافي، فهو شاب طيب حنون رأيته أكثر من مرة في الصيدلية، ورأيت بقلبي كم يحبها حب الأخ والصديق.. لكن هو القدر أن يتزوج في الليلة ذاتها..

شعرت بانتفاضة في كف شهيرة، عند ظهور أحد أصدقاء والدي المقربين.. شعرت بعينيها تتسعان وعمي عثمان القرنشاوي يهنئها في صخب، وهو يلومها على عدم دعوتها إياه..

نعم فاجأني كثيرًا أن أعلم أن القرنشاوي هو خال شهيرة، الذي لم تدعه إلى الزفاف.. لكنه جاء إليه بدعوة من والدي صديقه.. عندما سألتها كان صوتها يتهدج من انفعالها لرؤيته هو وأبنائه...

شعرت بها تتألم، وهي تعلن أنها ما كانت ترغب يومًا في رؤيته أو الاجتماع به.. أخبرتني شهيرة أن خالها ذبحها يومًا، وما كانت تود أن تراه يوم زفافها..

لكل منا في حياته قصة أليمة.. لكل منا سكين خفية، تبقى العمر في حقيبة ذكرياته.. سكين نظن أنها تنسانا وننساها.. لكن وإن خبأناها أو اختبأنا منها هي دومًا تعيد شحذ نصلها بشراسة، لتعاود الظهور في لحظة، نعتقد نحن فيها أنها غابت عنا وإلى الأبد...

كانت سكين شهيرة خالها وعائلته التي أخبرتني قصتهم بعدها.. استولى على ميراثها الكبير بالتزوير..

عثمان القرنشاوي أحد أكبر أثرياء الشرقية وإقطاعييها، والذي يملك كفرًا بالكامل، سرق نصيب أخته وأخفى اسمها عمدًا عن الأوراق الرسمية؛ ليصبح وحده مالكًا لهذه الثروة، حارمًا منها شهيرة التي منعها والدها عن مقاضاته وفضيحته؛ إكرامًا لذكرى أمها الراحلة..

كل الوجوه الطيبة التي نظنها فوق الخطأ والخطيئة قد نعلم في لحظة أنها في الذنب غارقة..

والله ما أحببت أحدًا كما أحببت عثمان القرنشاوي، وإن يومًا سألوني من في أصدقاء والدي أراه للملائكة أقرب، ما قلت سوى اسمه..

ربما كانت جدتي في صورة ملاك هي الأخرى..

أحيانًا تكون الوجوه الطيبة الحانية هي أكثر وجوه تخبئ خلفها حقائق مشوهة، لا تمت للجمال أو الطهر بصلة..

أحبب شهيرة أكثر، عندما قصت قصة خالها.. أشفقت عليها أكثر واحترمت والدها وأجللته..

عندما راقصتها في نهاية حفل الزفاف، وقبل انطفاء الأضواء وعودة المدعوين، كل إلى داره، ضممتها بكل قوتي إلى صدري، ووضعت على وجنتها الناعمة قبلة صغيرة قلت كأني أتلو قسمًا عظيمًا أمام الله وخلقه أجمعين:

- شهيرة.. إن استولى القرنشاوي على ميراثك، فأنا أضع اليوم كل ما أملكه بين يديك.. إن أبكاك الظلم مرة، سأحييك بالحب والوفاء كل يوم ألف مرة.. أنا معك أريد أن أولد وأحيا وأموت..

هل تعلمين بمَ أجابت شهيرة؟ هل تعلمين ماذا قالت تلك العروس الجميلة؟!

شهيرة رغم الموسيقى والأضواء وعيون خالها وأبنائه وباقي المدعوين، تكورت على صدري، وقالت:

- وحدك ثروتي وجاهي ورجلي.. أنا بك أحيا، ومن أجلك يا رؤوف إن شئت.. أموت!!

حبيبتي لأنها من ظهر رجل شريف جاءت.. لأنها من سلالة نقية خرجت حفظت عهدها.. لكن لأني من سلالة ملوثة، خرجت.. وحدي من بيده بعد حين قتلها!!

***

ضمني طارق إلى ذراعيه يودعني، فوحده سيعود إلى بيت المنصورية، وبكى مدحت عبد الرحمن والد شهيرة رغمًا عنه وهو يودعها، ومن خلف كتفيها نظر إلى عيني كأنه يرجوني أن أترفق بها وأسعدها..

لم تكن شهيرة ابنته الوحيدة فحسب.. كانت حلمه وعشقه وبقايا زوجته التي كانت أيضًا عشق عمره، حتى لحظة رحيلها منذ أعوام، وهي تغفو بين ذراعيه في هدوء..

أما أخبرتك أن هناك نظرات، نراها في أعين بعض البشر تبقى العمر تنبض في أعيننا.. والله.. رغم شوقي ولهفتي على شهيرة في ليلة زفافنا تلك، إلا أنني، وبعد تلك الدمعة والنظرة، تمنيت لو أتركه يأخذها إلى بيته مرة أخرى.. لكنها هي أيضًا كانت في لهفة كبرى إلى صدري وجسدي وحبي..

شهيرة ما شعرت بدمعة أبيها رغم حبها الكبير له.. تركت ذراعيه وعادت تمسك بكفي في لهفة، تسربت إلى نبض قلبي وعروقه..

حين دخلنا غرفة الفندق، وحين ألقت بنفسها بين ذراعيّ من جديد، حين منحتني شفاهها، شعرت بلهفة جسدها وظمأ روحها.. تمنيت لو أسكنها وهي مازالت في رداء عرسها.. لكن قاومت نفسي وطلبت منها أن تبدل ملابسها لأننا سنترك الفندق..

دهشة الأرض أطلت من عينيها الثائرتين.. مازلت أذكر أنها أمسكت بذراعي، وهي تسألني أين نذهب، والفجر قارب على الظهور.. إلى أين نخرج ونحن جلّ أملنا أن نبقى وحدنا ويغلق خلفنا باب.

لم أشأ أبدًا أن يكون لقاؤنا الأول على فراش عتيق، لامسه ألف جسد وألف قصة.. أخذت شهيرة إلى بيت الجزيرة، بعد أن أرسلت رسالة إلى بهاء، أخبره أننا في الطريق إليه..

بهاء أشعل لنا شموعًا كنا أنا وهو أعددناها.. حين حملتها ودخلت بها لم تصدق ما رأته عيناها.. رأيتها بين ذراعيَّ تنتفض من جديد.. رأيت شهوة العذراء إلى جسد الحبيب ترقص ألف رقصة ثائرة.. لكن ورغم أن شوقي لها كان أكبر، ورغبتي في سكناها كانت أشهى.. إلا أنني ما أخذت حبيبتي إلا بعد أن شهدنا مولد الشمس من رحم نهر النيل..

أردتها أن تشهد معي مولد لا غياب الشمس.. أردت الشمس أن تشهد مولد حب وزواج، يبقى العمر كما بدأ.

هدأت شهيرة.. هدأت أوصالها، وهي تجلس معي أمام بيت الجزيرة.. حين فتحت الشمس عينيها، وخرجت من كبد السماء، أغمضت أنا وشهيرة عيوننا، عائدين إلى البيت الصغير..

لم تنتظر هي أو أنتظر أنا دخولنا غرفة النوم.. لم يعد فينا صبر يكفي للوصول إليها.. كأن الشمس أشعلت فينا الشوق من جديد..

كم كانت شهيرة شهية جميلة، وكم كنت في ظمأ إلى الجمال والبهاء..

عندما ولدت المرأة بين أصابعي، خشيت عليها من الألم.. لكنها ضمتني إلى صدرها في قوة كأنها تخبرني أن ألم مولدها لا يطفئه إلا السكن إلى صدري..

أنا وشهيرة سيدتي تعلمنا أن الجنس إن لم يكن حبًّا.. إن لم يكن لقاء قلبين، وتراضي روحين، فلا ضرورة أو معنى له بين الزوجين.. الدقائق القليلة التي يقضيها الرجل داخل امرأة إن لم تكن هي الجملة الأخيرة في قصيدة حب طويلة، فهي سكين تذبح ولا تثمر..

والله ما ضممت شهيرة يومًا إلى صدري بعدها، ولا أخذت شفتيها أو جسدها، إلا بعد أن أشعر أني أنهيت كل تعابير الحب ورسائله، وما بقي سوى هذه الجملة الأخيرة نكتبها معًا؛ ليغفو أحدنا على ذراع الآخر، ونصحو مع شمس جديدة، وقصيدة جديدة قد نكتب في المساء جملتها الأخيرة، أو نغفو ونحن في كامل نشوتنا من سطورها البهية!!

***

عندما يجتمع الحب والثراء غالبًا ما تكون المشكلات قليلة؛ خاصة وإن كان التعقل والحكمة رفيقين لهما.. شهيرة كانت ناضجة حكيمة، معتدة بأنوثتها وكبريائها إلى أقصى درجة يتخيلها الرأس..

في الطائرة، وفي طريقنا إلى باريس بعد زواجنا بأيام، قضت ساعات الرحلة الخمس، وهي تحدثني في هدوء عن مسئوليات كل منا، التي يجب أن يعيها ويلتزم بها؛ ليبقى هذا الزواج بالوهج والتألق ذاته..

أخبرتني أنها تعلم أن لحظات صعبة، قد تمر بنا من شدة الإرهاق، الذي قد تتعرض هي له أكثر مني، ورغم هذا فهي تؤمن أن عملها في الجامعة والصيدلية وإعدادها لرسالة الدكتوراه لن يقل أهمية أبدًا عن مسئوليتها تجاه والدها وأخي، أو تجاهي كزوج وحبيب ورجل..

كانت تتحدث كأنها تقف أمام مدرجات طلبتها في صيدلة عين شمس.. كأنها أبدًا ليست العروس، التي كانت تنتفض بين ذراعيّ منذ ساعات حبا وشوقًا ورغبة.. أمسكت بكفها، أخبرها أن زواجنا لا يجب أبدًا أن يناقش بكل هذه الجدية، ونحن مازلنا في يومنا الرابع..

الرائعة الحكيمة أخبرتني أن الحب، هو أوْلى العلاقات بكل الجدية والموضوعية عند مناقشته والتفكير فيه..

لا أنكر أبدًا أن عينيّ رأتها بعين أخرى في تلك اللحظة، وأن رأسي انحنى لها احترامًا، كما ينحني حبًّا وغرامًا، وأنا أقبل كل قطعة في جسدها..

الحب مسئولية وإبقاؤه ونجاحه عمل شاق مرهق.. لكننا نأبى أن نعترف، ثم نسقط في الشكوى عند ضياعه..

على الطائرة وضعنا حلولًا لكل ما تصورناه من مشكلات.. كيفية التنقل بين المنصورية؛ حيث نسكن، وبين مصر الجديدة حيث الصيدلية والجامعة ووالدها.. تحدثنا حتى عن دور كل منا، إن أفقد الإرهاق أحدنا السيطرة على أعصابه.

أخبرتني شهيرة أنها ستحترم ثوراتي وغضبي، وأنها تتوقع أن أمنحها دقائق وربما ساعات، تتحرر فيها من عصبيتها بعد التنقل والإرهاق وأوراق الامتحانات، ومنافسات الأساتذة غير الشريفة أحيانًا والمتسلطة كثيرًا..

أخبرتني أن أحدنا لا يمنح قلبه ونقوده وعمره؛ من أجل إسعاد الآخر.. لكنه من أجل نفسه يفعل!!

هي تمنحني الحب لتأخذه مني، وأمنحها الحنان لتضمني ذراعاها..

أذكر أني وضعت إصبعي على شفتيها المكتنزتين الرائعتين، وأخبرتها أن مدينة باريس تشرق تحت قدميها، وأني معها وبين يديها أسلمت اسمي وروحي، وأريدها أن تنسى كل شيء، إلا أننا فوق مدينة الحب والنور نطير..

عندما لامست أقدامنا شوارعها... عندما تجولنا وتعانقنا وركضنا، رأيت شهيرة أخرى أحببتها أكثر.. لم تكن تبحث عن المطاعم الفارهة، ولم تحاول قط أن تشتري في جنون النساء كما أسمع.. كانت حكيمة متزنة، بل مازلت أضحك وأنا أتذكر كيف رفضت تمامًا أن تدعني أدفع لهداياها، التي اشترتها لوالدها وزياد وعروسه..

حبيبتي أصرت أن تدفع ثمن هداياهم من مالها الخاص ومعه ثمن هديتين رائعتين لوالدي وطارق..

الحب فن وباريس مدينة الفنون رأت بنا حبًّا لن ترى مثله، ربما عصورًا قادمة.. إن حملتك الدروب يومًا إلى تلك المدينة، أوصيك أن تفتحي رئتيك وتتنسمي فيها رائحة الحب والفن وشهيرة..

هناك نساء هن العطر وأنفاسهن هي النسيم الحاني، الذي يلف أرض البلاد وسماءها..

يومًا تمنيت لو أصطحب شهيرة في القطار إلى لوزان السويسرية..

يومًا تمنيت لو أصطحبها إلى بحيرة «لومو»، التي دعوت الله تحت سمائها أن يهبني الحب والنسيان..

تمنيت أن أخطو إلى جوارها في تلك البلدة الجميلة، وأن تضع شهيرة كفها على ماء البحيرة الأزرق؛ ليصبح أكثر جمالًا وزرقة.. تمنيت أن أشهد تلك السماء أني وجدت امرأتي، وباركني النسيان بيده ووهب لي أبهى نساء الأرض.. لكن تذكرت امرأة التقيتها هناك..

خشيت أن أراها مرة أخرى.. ما خشيت نظرة الكراهية تلك، ولا خشيت أن تشعر زوجتي بشيء.. لكني منعت نفسي وحبيبتي عن الذهاب إكرامًا لزهرة.. كنت أظنها تحيا وتقتات على أمل وحدتي وشقائي وندمي.. ما أردتها أبدًا أن تتألم، إن لاقتنا صدفة ووجدتني سعيدًا بهدية

ربي..

الله يغفر ويعفو.. لكن يبدو أن النساء أبدًا لا تفعل..

***

نعم النساء تغير كل شيء!!

مع شهيرة، أصبحنا عائلة كبيرة، كل من فيها يحب الآخر..

عمي مدحت أصبح صديقي وصديق والدي.. زياد الرجل الرائع أحببته وأحب زوجته وابنتيه، كأنهما قطعة عتيقة من روحي ولدت بها.. حتى طارق بدا لي أكثر حبًا والتصاقًا بالبيت وبشهيرة وعائلتها الكبيرة..

رغم حدة والدي وجفائه في شهور الزواج الأولى، إلا أني كنت أشعر بمولد بسمة على روحه.. كانت سعادته وفخره بشهيرة وجمالها وحكمتها جلية واضحة، حتى في لحظات غضبها، من تعليق يطلقه أو رجاء لها يرفضه.

ظننت أنا أن شجرة الليمون التي ذبحتها سامحتني.. تصورت أن السماء ما عادت تستجيب لأنين فروعها، التي حملوها مع بقايا مخلفات عائلة الأحرار.. لكن حتى الأشجار يصل صوت تظلمها إلى السماء.. وربما لهذا نهانا الدين عن قطعها؛ خشية أن تطاردنا لعناتها، ويحل بنا حكم العدل في قتلها..

شهور ونحن نغفو في سعادتنا.. شهور ونحن نظن أن زمن الحزن ولى، وأشرقت مواسم الرحمة والغفران..

«ستصبح أبا»!!

يوم قالتها شهيرة، رقصت عروقي بهجة، وسجدت لربي شكرًا وامتنانًا وفرحة..

«نريده ذكرًا.. يكفي بيتنا امرأة واحدة».. يوم قالها والدي على مائدة الطعام، التي تجمعنا كل يوم، تسللت بشفاهي إلى أذني شهيرة هامسًا:

«إياكِ والإصغاء إليه.. أريدها أنثى»..

لكن حتى الأقدار كانت تنصاع لرغبات توفيق عبد الجواد في ذاك الوقت.. في الوقت الذي علمنا أن القادم هو رائد جديد، ينضم إلى عائلة الأحرار علمنا أن عزة زوجة زياد هي من تحمل في أحشائها أنثى، وعلمنا أيضًا أن شهيرة تعاني من متاعب صحية كبيرة، تعرض حياتها وجنينها للخطر..

فقط عند الاقتراب من الموت، نعلم من نحب، وإلى أي مدى نحبهم..

عندما سقطت شهيرة في الصيدلية ذات يوم، حادثني زياد وهو يكاد يبكي يخبرني أنها تنزف، وأنها ترفض الذهاب إلى مستشفى.. حينما صاح باكيًا يرجوني أن أسمح له بحملها إلى المستشفى رغمًا عنها سمعته يقول:

- هل تعلم معنى نزفها وانتظار وصولك؟! شهيرة قد تموت يا رؤوف.. قد تموت..

ركضت تلك اللحظة.. ركضت كما لم أركض يومًا من قبل.. ركضت وهاتفي معلق بين أصابعي، أرجوه أن يفعل ما يراه لينقذها، وأني في طريقي إلى المستشفى..

في زحام الطرق وأبواق السيارات وصياح السائقين والعابرين، كانت هناك غمامة على عيني.. كان هناك دمع ساخن يحجب عنها الرؤية..

أنا لا أريد أطفالًا لا أعرفهم ولم أرهم.. أنا إلهي أريد امرأة عرفتها ورأيتها، وهي تمحو آلامًا وذكريات ما ظننتها يومًا عن روحي تغيب.. أريد امرأة بين ذراعيها، وحدها، صفحت عن جدتي واستغفرت لها..

في ذاك الطريق المزدحم إلى مستشفى كليوباترا بمصر الجديدة، حيث أخذها زياد تذكرت طارق لحظة مولده، وخشيت أن تذهب شهيرة كما ذهبت أمي.. كنت أصيح خلف مقود السيارة، في عنف، وأنا أردد:

- يا رب.. لا أريد أطفالًا.. إن كان الموت مقدرًا، فليكن موتي أنا على هذا الطريق.. لا أريد سوى شهيرة..

أحيانًا لا تستجيب السماء إلى الدعاء، وأحيانًا تفعل.. لكن هناك أوقاتًا نتمنى فيها لو أنها ما سمعته أو سمعتنا!!

أشعر الآن أن سماء الطريق تلك اللحظة قررت الإجابة، لكن بطريقتها التي لا يدرك حكمتها سواها..

***

عدت بزوجتي إلى البيت.. عدت بعد أن أمرها الطبيب بالراحة التامة.. ممنوعة هي عن الخروج والحركة.. ممنوعة حتى عن ممارسة الحب معي.. هل كان نزفها ذاك واقترابها هي وجنينها من الموت وتحريم جسدها عني من أبواق القدر التحذيرية، التي كان يجب أن أتنبه لها؟! وإن كانت حقًّا شارات تحذير، وأنا أيضا تنبهت ماذا كان عساني أن أفعل؟! وكيف كان لي أن أتنبأ أو حتى أتخيل من أين هي الضربة الكبرى قادمة؟!

لازمت شهيرة البيت.. زاد التصاقها بالكتب والروايات وأوراق الدكتوراه.. اقتربت من عزة زوجة زياد حتى كدت من صداقتهما أغار.. أصبح بينهما قصص وأسرار وأخبار.. وكانت قصتهما الكبرى «أنت»..

نعم.. أنت سيدتي..

غرقت شهيرة أيامًا في كتبك، وأصبح حديثها عنك هي وعزة..

هل أخبرك أني، أنا الآخر، قرأت كل ما قرأته لك شهيرة، ويومًا تمنيت لو أرسل لك رسالة أشكرك فيها.. كانت بحاجة إلى أنيس حانٍ في أزمتها.. لم يكن لها أم أو أخت، ولم يكن عندي أنا أيضًا..

شعرت بها تلوذ إلى أكف كلماتك عن الحب والحياة، وتهدأ إليها حتى عودتي من عملي، لتسقط بين ذراعيَّ كطفلة صغيرة، تحكي عن كل ما دار بينها وبين أمها..

كم ليلة مرت، وهي بين ذراعي ليشتعل جسدي شوقًا إليها، ثم أمنع عنها نفسي خوفًا عليها..

كم ليلة انتفضت هي بين ذراعيّ ظمأ إلى الجملة الأخيرة في قصيدة هوانا، وما استطعت أبدًا أن أوقعها عليها..

الحرمان ليس مؤلمًا.. الحرمان أحيانًا يعلمنا كم هو حبنا كبير ورائع..

أنا وشهيرة اعتدنا الحرمان في الشهر الرابع لزواجنا، وأصبحنا نكتفي بالسطور الأولى..

اليوم علمت أن القدر كان يعلمها ويعلمني كيف نحيا، ونحن معًا، بالحرمان شهورًا؛ لأنه يعدها ويعدني لحرمان قادم عمره أعوام..

أذكر أنها بعد أقل من شهرين من امتناعي عنها، بكت ذات ليلة بين ذراعيّ..

حبيبتي عنيدة وكبرياؤها أشد عنادًا وعنفوانًا..

كانت قبلاتنا تلك الليلة محمومة مجنونة.. كانت كفي تكاد تسحقها بين أصابعي.. في لحظة نسينا تعليمات الطبيب.. نسينا كل شيء إلا أني أريدها وتريدني.. شعرت بها ورغم ظهور بطنها وتكورها تلتصق بجسدي، كأنها ترجوني أن أكتب السطر الأخير..

هل تعلمين كم هو مؤلم أن تكون المرأة التي يحبها الرجل بين ذراعيه وتحترق من لهفتها إليه كما يحترق هو، ويمنع عنها نفسه خوفًا عليها؟!

أذكر أني أمسكت بوجهها بين كفي، وقلت ثائرًا:

- شهيرة.. أريدك أكثر لكن من أجلك لن أقترب..

رغم انتفاضة جسدها على صدري، إلا أنها بكبريائها المجنونة، قالت وهي تلهث من خلف أنفاسها الممزقة:

- من قال إني أريد شيئًا؟!

لو تذكرت هذه الكبرياء العنيدة منذ أيام، لربما ما كتبت إليك اليوم ما أكتبه!!

***

حين فتح الدكتور جبر عبد الكريم مكتبي ذاك الصباح، ودخل دون استئذان، علمت أن شيئًا كبيرا في كيان الأحرار يدور، وربما يهتز..
الدكتور جبر هو مستشار الشئون القانونية في شركتنا، الذي يأتي إليها مرة كل أسبوع مشرفًا على القسم بأكمله..
نهضت من مكتبي، أصافح الرجل الذي تجاوز الستين من العمر، وقبل أن أسأل، كان يقول بصوت ثائر:
- رؤوف.. أنت تواجه كارثة!!
نظرت إلى عينيه في دهشة.. الرجل كلماته قليلة، ودومًا يعلم كيف يختارها.. قبل أن أفكر أو أستوضحه، عاد يقول:
- يد خفية قذرة تحاول الإطاحة بك بل وبالشركة بأكملها.
في جمل سريعة واضحة، أخبرني د. عبد الكريم أن بلاغًا تقدم إلى الجهات المختصة، يتهم فيه الشركة بتصنيع دواء مغشوش قادم من الهند، وأن نسب المواد الفعالة فيه مختلطة بمركبات الصوديوم بنسبة عالية تسبب الفشل الكلوي لا محالة، وأن هناك حالة بالفعل ترقد في إحدى المستشفيات، وتم ضم تقريرها الصحي إلى ملف القضية..
ربما فهمت معظم ما قال.. ربما استوعبت خطورة كل حرف.. لكن لا شيء وقفت عنده، سوى الجملة الأخيرة.. «ملف القضية»..
عندما استوضحته، أكمل وهو يقلب في الأوراق التي بين يديه، ويقول:
- نعم.. هذه هي الكارثة يا رؤوف.. هناك قضية تنظر أمام محاكم الدرجة الأولى منذ شهور.. هناك عينات تم أخذها من هنا ومن مخازن الشركة.. هناك جلسات ومرافعات لم أعلم عنها شيئًا.. وعلمت هذا الصباح أنك أيضًا لا تعلم عنها شيئًا.. رؤوف يا ولدي.. تعليمات مشددة صدرت بمعالجة القضية، بعيدًا عنك وعن توفيق بك..
سكت عبد الكريم لحظات، وقذف قذيفته الكبرى قائلًا:
- يا رؤوف.. لقد تم ضبط وتحرير جميع كميات الدواء من مخازن الشركة، وصدر قرار بإعدامها.. الكمية يقدر ثمنها بأكثر من مليون جنيه..
ليس ثمنها ما أثار جنوني لكن كيف يحدث كل هذا وأنا لا أعلم؟! لجنة من وزارة الصحة تدخل معاملنا وتضبط وتحرز وتصادر، ويصدر قرار إعدام وقضية، وأنا على مكتبي، مازلت أركض بين المعامل والأوراق..
أي جنون؟! أي كارثة؟!

***

هذه هي الصروح الكبيرة عندما تترامى أطرافها، وهذا ما يحدث فيها.. شركة الأحرار للأدوية لم تعد مكانًا صغيرًا، يصعب إخفاء قصة أو مشكلة في أحد ملفاته..

هناك ملفات ومشكلات وقضايا وعينات، وزوار يأتون ويخرجون، محملين بالاتهامات والتقارير والعينات، وأنا مدير قسم الجودة لا أعرف عنها شيئًا.. فكيف لوالدي رئيس مجلس الإدارة أن يعلم..

- «دكتور جبر.. لم أوقع أبدًا على عينات هندية.. هناك تجهيزات ومستلزمات وبعض المواد القليلة من الصين.. لكن أبدًا لم تدخل معاملنا أو مخازننا حتى عينات من الهند»..

امتدت يد الرجل بتلك الأوراق التي يحملها، وبدأت أغوص فيها حتى غاب عن وجوده عيني وأذني..

دواء «الهيكسوستينال» مضاد للالتهاب ومسكن قوي لآلام الجراحات والتهاب المفاصل المزمن، تحتكر شركتنا إنتاجه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، بالتعاون مع شركة «كومارتيس» العالمية.. بيدي أتابع قدوم العينات وتوقيع الكشف عليها.. مازلت أذكر آخر «طلبية» جاءت منها.. كان هذا منذ أكثر من ستة شهور.. المواد الخام تأتي من الولايات المتحدة، وليس أبدًا من الهند..

عدت أغوص في الأوراق التي امتدت بها يد الرجل إليَّ وأوراق أخرى طلبتها من العاملين في الشركة..

أوراق الاعتمادات وأذونات صرف قيمة المواد الخام والتحويلات إلى الشركة الأمريكية.. كلها موجودة.. كلها تثبت صحة ما أقول.. ما تم استيراده هو المادة التي اعتدنا استيرادها، ودفعنا القيمة الموجودة في جداول الشركة المنتجة.

من أين جاءت الهند إذًا؟!

أوراق معامل الصحة تقول إن ثمة عينات تم جمعها من الصيدليات، وعينات تم أخذها من معامل الشركة ومخازنها بشكل عشوائي، تقول إن المادة الفعالة مادة هندية رخيصة وإن نسب مواد التخليط كلها لا تتبع أي معيار صحي أو آدمي.. نسبة الصوديوم وبعض المواد الأخرى أكثر مما يجب، وقد تسبب الفشل الكلوي..

هناك قضية في محاكم الدرجة الأولى، وأنا المتهم الأول والرئيسي فيها، وهناك ثلاثة محامون من الشركة يدافعون عني..

عني «أنا»!!!

في جنون، عدت اسأل الدكتور عبدالكريم هل سألهم.. هل تحدث إليهم.. لكنه قال في هدوء:

- بالأمس فقط علمت بأمر القضية.. محام شاب من تلاميذي كان في المحكمة ذاتها وأبلغني.. رؤوف.. هذا الصباح أقمت الدنيا، ولم أقعدها حتى حصولي على الأوراق والملفات.. تم إخفاء كل شيء، والتعامل معه بسرية تامة حتى بعد تحريز الدواء.. أصبحت جميع الطلبيات القادمة لمصنعكم، لهذا العقار، تحول مع جميع أوراق ومستندات القضية إلى...

أطرق الرجل برأسه قليلًا؛ لأكمل أنا في ألم:

- طارق عبد الجواد..

***

كان رائعًا ما حدث في تلك اللحظة..

لم ينتظر أبدًا أن نذهب إليه..

ابتسمت في مرارة، وأنا أراه يدخل علينا بعد طرقة صغيرة..

طارق أحكم شباكه في مقر الأحرار جيدًا.. مساعدوه أخبروه في اللحظة ذاتها، التي نهض فيها عنهم دكتور جبر التوجه إلى مكتبي..

كان وجهه مكسوًّا بالذعر والغضب، رغم ما حاول رسمه عليه من قوة ولا مبالاة..

عندما رأيته، وقبل أن تخبو ابتسامتي المريرة، قال في هدوء:

- لاشك أنك جعلت من الأمر مأساة.. حضرت لأوضح الأمر..

قبل أن يكمل، نهضت عن مكتبي، وأشرت بيدي إلى طاولة الاجتماعات الصغيرة في مكتبي؛ لنتوجه نحوها ثلاثتنا، وأنا أقول:

- ليتك طارق تخبرنا كيف نراه دعابة أو كوميديا؟!

كانت أوراق عبد الكريم كاملة، حتى النسخ التي استطاع الحصول على صور لها من جلسات المحكمة، والتي لا شيء فيها إلا مزيد من طلبات التأجيل.. كانت واضحة جلية..

أقسم ألف مرة أنه لم يستورد شيئًا من الهند، واعترف أن مادة الدواء أيضًا ما جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية، كما وقعت أنا على عيناتها وفحوصاتها..

بعد ضغط كبير، أعلن أنه استورد المواد الخام من الصين، ومن الدرجة الثالثة.. لكنه أخضعها بنفسه للمواصفات الصحية العالمية والمصرية..

طارق يؤكد أن البضاعة وصلت من الصين، وأن مستخلصي الشركة قاموا بالإفراج عنها وشحنها إلى مخازن شركتنا القابعة داخل مصانع الأحرار..

عندها صحت لا أصدق.. كيف حدث هذا، وأنا بنفسي عاينت المواد، التي تدخل إلى المعامل من الشحنات الوافدة، وكانت عينات أمريكية؟!

اعترف طارق أن ما عرض عليّ لم يكن من الشحنة القادمة من الصين، بل عرضت عليّ عينات أيضًا أمريكية من تلك التي جاءت مع العينات الأولى التي تم فحصها قبل أن يلغي طلبية الولايات المتحدة، ويوقع هو وحده، بوصفه مدير التسويق، طلبية أخرى، مماثلة لها في الكم والنوع من الصين.

كأني في كابوس، وكأننا في تنظيم عصابي سري كبير.. كيف يفعل طارق كل هذا؟ وكيف أظن أني أتابع كل شيء بدقة، وأنا كالأبلهِ.. يرمون في طريقي فقط ما شاءوا أن أراه وأفحصه وأوقع أوراقه؟!

لكن ليس من المعقول أو المقبول أن أطابق البضاعة القادمة، أو أقف على استلامها في الجمارك والموانئ، وأكون موجودًا أيضًا عند نزولها إلى أرض المخازن..

ليست تخصصاتي، وكيف لي أن أفكر أن شيئًا كهذا يحدث، وأن شيئًا من الأصل يدور بهذا التنظيم وهذه الدناءة؟! كنت في ذهول أسمع وأفكر وأحاول أن أجد تفسيرًا لكن لا شيء.. كل كلمة يلقيها طارق سواء كراهية أو طواعية تفجر ألف علامة استفهام أكبر..

وسمعت عبد الكريم يقول:

- من أين جاءت الهند إذًا؟!

عاد طارق يقول:

- لا أعلم.. عندما جاءت لجنة وزارة الصحة، ودخلوا إلى المخازن، كانت المواد الخام الصينية جميعها استبدلت بأخرى هندية.. أنا نفسي لم أصدق.. لا أعلم.. هل تم التبديل على أرض الميناء.. أم هنا في المخازن؟!

صحت أنا أقول:

- ولكن معاملنا كانت تعمل بها.. كيف؟!

أطرق طارق لحظات، ثم قال:

- من يحملون المواد من المخازن إلى المعامل، كانت لديهم تعليمات مشددة بالتخلص من كل ما يشير إلى بلد المنشأ.. الصين يا رؤوف.. وليس الهند..

عدت أقرأ الأوراق وأتفحصها.. هناك حالة فشل كلوي، أصابت شابًا في مقتبل العمر، كان يستخدم الدواء المسكن بكثافة.. والده طبيب، قام بفحص جميع الأدوية، التي يستخدمها ابنه.. وحده فجر القضية، وحركها بما له من علاقات في وزارة الصحة..

صحت في ألم أقول:

- جريمة يا طارق.. جريمة وفضيحة كبرى..

وسمعته يقول:

- سأحافظ على سرية القصة.. لن أسمح بتسريبها إلى الإعلام أبدًا.. أعدك بذلك..

ونظرت إليه في ذهول..

- الإعلام!!

تنهار الشركة إن وصلت القضية إليها ويموت توفيق عبد الجواد..

عدت أسأله في ألم، إن كان والدي يعرف شيئًا.. لكنه كان سؤالًا أحمق.. لو عرف والدي شيئًا لما وصلت الأمور أبدًا إلى دهاليز المحاكم والقضايا.. عبد الكريم أخبرنا أن الوضع سيئ، وأن الأمل الوحيد لدينا هو إثبات أن عملية تبديل حدثت.. لا يكفي المحكمة أبدًا أن نقدم لها أوراق الاعتمادات الصينية ومستنداتها.. هذا يعني أننا حقًّا استوردنا المادة الخام من الصين.. لكن قد نكون بعناها فور وصولها الميناء، واشترينا حتى من السوق المحلية البضاعة الهندية الفاسدة، والتي وجدت في مخازن شركتنا، وأيضًا في أدويتنا المصنّعة والموجودة في المستشفيات والصيدليات..

***

لم نستطع إخفاء الأمر عن والدي كثيرًا.. ربما ما عاد طارق حريصًا بالدرجة الكافية كما كان قبل علمي أنا.. علم والدي بأمر القضية، لكن دومًا يسكن قلب الأبرياء شعور خفي كبير بأن شيئًا ما سيحدث يظهر الحقيقة.. ربما لأننا نشأنا على أن الحق يظهر والعدالة أكبر من الظلم والخطأ.. تضاعف عدد المحامين.. لكن ما استطعنا الوصول إلى خيط قوي، يقودنا إلى حقيقة ما حدث ومتى وكيف تم التبديل. أجرى والدي تغييرات شاملة في كل موظفي الاستخلاص الجمركي وطاقم الأمن بأكمله، القائم على حراسة الشركة، والمخازن، بل إنه قام باستبعاد المحامين الثلاثة من عملهم بالشركة... قام بعملية تطهير كبيرة.. لكنها متأخرة، ولا تأثير لها على سير القضية.. حتى شهيرة علمت بالقصة.. لكن لم يسمح لها والدي أبدًا بالخوض في تفاصيل.. كان حاسمًا قاطعًا كعادته، وكنت أنا في مخاوفي وأحزاني غارقًا، وأراها هي في متاعب حملها أيضًا تقاوم السقوط.. لن أطيل سيدتي.. صدر حكم الدرجة الأولى غيابيًا بالحبس على رؤوف عبد الجواد لمدة ثلاثة أعوام.. وكأن حكم السجن ذاك أطلق سراح كل الأفواه المكممة من الجرائد ووسائل الإعلام.. مع تقديم أوراق الاستئناف بدأ هجوم ضارٍ وشرس على الشركة وعلى القاتل السفاح.. أنا.. العدل لا يصل دومًا إلى الأبرياء.. والله من كثرة الهجوم الذي طالني مرَّ على أيامي وقت، كدت أطالب فيه بشنقي وإعدامي، ثم أفيق أسأل:

«ماذا فعلت؟!».

***

أصبحت ممزقًا بين شهيرة التي تذوي يومًا بعد يوم في خوفها وألمها واقتراب موعد ولادتها، ووالدي الذي بدأ إيمانه بانقشاع الغمة يضعف، وأيضًا طارق الذي حقًّا ورغم أنه وحده من جعل مصانعنا عرضة للأطماع والتزوير، كنت أراه يكاد يموت قهرًا وهمًّا..

حتى اقتراب صدور الحكم كانت الأمور شبه جلية..

طاقم المحامين الكبار يعملون فقط على إيجاد مخرج، من خلال استغلال بعض الثغرات القانونية في الضبط أو التحريز أو أي خطوات إجرائية أو قانونية.. لكن جوهر القضية لا يحتمل أبدًا العبث معه.

وحدي المسئول.. وحدي أصبحت نجمًا من نجوم بعض البرامج الشهيرة والمقالات المشتعلة، التي تطالب بأقصى عقوبات لكل من يعبث بآلام البشر وأمراضهم..

أتابع ما يقال عني ويكتب وأنا أتألم.. أنظر إلى وجه شهيرة الباهت وفرحتها، التي تكاد تموت باقتراب مولد طفلها الأول، وأنا أتمزق..

أراقب وجه والدي الذي كان في لحظات يسألني هل حقًّا فعلتها.. أو على الأقل تسربت المادة الخام الهندية إلينا؟! هل أهملت حقًّا في إعادة فحصها، قبل دخولها مرحلة التصنيع؟!

كان عليّ مع كل هذا أن أبدو أكثرهم تماسكًا وتفاؤلًا..

كانت هناك أيام أبكي فيها بجنون في بيت بهاء، وأنا أصيح أخبره أن السجن أهون من نسائم الأمل، التي أفيق عليها كل صباح وتخبو كل مساء..

بهاء أيضًا كان يتألم.. لكن وحده من كنت أسقط أقنعة تفاؤلي وهدوئي أمامه.

حين تحدد موعد الحكم في الاستئناف، اقترح فريق المحامين ألا أذهب إلى المحكمة؛ لأتمكن من الاختباء إن ظهر الحكم مؤيدًا لحكم الدرجة الأولى..

لكنني كنت أريد الهرب من رؤية كل هؤلاء يتألمون..

فكرت وتخيلت أن الحكم إن صدر بالتأييد، سأرى شهيرة تنفجر في الخوف والبكاء، وبهاء يسقط فوق ساقه المعدنية.. لن أهرب وأحملهم عناء الركض خلفي في الجحور والمخابئ..

أعلنتها..

سأذهب إلى المحكمة، وسينصرني الله فهو وحده يعلم أني بريء.. وإن جاء الحكم بسجني، فأنا أثق أن السجن أهون من اختبائي..

أي مكان على الأرض يمكنه أن يخبأني من حزني وألمي وتمزقي على من أحبهم..

ظننت السجن أرحم، لكن لا يعلم السجن وقسوته إلا من زاره وعاش فيه؛ خاصة إن دخله ظلمًا وبهتانًا!!

***

ليلة الحكم كانت من أقسى الليالي.. لم تكن شهيرة تعلم أن الصباح التالي هو صباح الحكم.. في تلك الليلة بالتحديد، أعلن لنا طبيب شهيرة أنها أصبحت آمنة، وجنينها القادم على وشك الخروج لحظة يشاء..

لم يبتسم أحدنا في وجه الطبيب.. لم يسأل أحدنا الآخر في طريق عودتنا ماذا نسميه أو كيف نحتفل به..

أنا وشهيرة كنا غارقين، كلٌ منا في مخاوفه من الآن.. وحدي كنت أعلم أنه يوم واحد يحدد إن كنت أعود إليها، وأرى وليدي أو أحرم منهما، وإن عدت أعود بعد أعوام ثلاثة.. لا أشهد فيها كيف ولد، وكيف يكبر، وكيف يصبح ما سيصبح عليه، إن كتب لي أنا أيضًا الخروج من السجن..

«السجن».. كلمة أصبحت أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال..

عند عودتنا إلى بيتنا.. عند سقوطي على فراشي، وشهيرة بجسدها المتعب إلى جواري، اختلست إلى وجهها نظرة.. كانت دموعها تنهار في صمت..

أشحت بوجهي بعيدًا عنها..

لا أحتمل رؤيتها تبكي، ومتى؟! في ليلة هي من المفترض من أسعد ليالي عمرينا معًا..

تجولت بعيني في غرفتنا..

أين أكون في مثل هذا الوقت مساء الغد؟!

هنا إلى جوارها؟! هل حقًا ينتهي الكابوس؟!

وهل من الممكن أن أجدني في الغد ملقى في زنزانة، لا أعرف عنها أو عن سكانها شيئًا؟!

هل تبكي غدًا على هذا الفراش وحدها؟!

شعرت بها تقترب..

كانت تنتفض.. قبلتني كثيرًا.. قبلات صغيرة متتابعة، كأنها تناديني بها.. شهور طويلة مرت ونحن من لقاءاتنا محرومين، وفتحت عينيّ أنظر إلى عينيها المغمضتين المغسولتين بدمعهما..

تمنيت لو أني آخذها.. الطبيب أخبرنا أنه ما عدنا نخشى شيئًا..

شعرت بقلبي وجسدي يكادان يتفتتان من شوقهما ورغبتهما.. لكن شيئًا في صدري انقبض..

لماذا تريدني شهيرة، وأريدها بهذا الجنون؟!

هل هي شارة من القدر تخبرنا أنه اللقاء الأخير؟!

كأحمق حاولت عناد القدر.. كأحمق حرمت نفسي وحرمتها مني..

غدًا عند عودتي من المحكمة سأضمها.. سأسكب في خلايا جسدها نصرًا وحبًا ونشوة..

لن يختلط لقاؤنا الأول بعد كل هذا الحرمان بدمعها ودمعي..

إن بكينا في الغد، فليكن بكاؤنا فرحة وشوقًا لا انكسارًا وترقبًا..

أحمق أنا عندما فعلت ذاك.. كأني أتحدى القدر..

كانت شهيرة بين ذراعيَّ، تنتفض وهي تقبلني، وبكلمة واحدة سكبت على حرائقها ماءً باردًا، أطفأ فيها، وفي قلبها كل شيء..

أمسكت بوجهها بين أصابعي، وقلت:

- شهيرة.. الحكم غدًا..

***

حاولت شهيرة أن تذهب معنا إلى المحكمة.. حاولت كثيرًا في الصباح.. لكن والدي كان حاسمًا في رفضه.. كانت أنفاسها متقطعة، وهي ترجوه أن تذهب معنا، وكنت أسمعه يرفض، وأسمعها تعيد التوسل إليه، وكأني على كوكب آخر أقف.

نعم.. أشفق عليها من الذهاب معنا، وأشفق على نفسي من الذهاب دونها..

أفاقني والدي وهو يكاد يصرخ يسألني... هل من الممكن أن أصطحب زوجتي، وهي على وشك الولادة إلى قاعة المحكمة وكاميرات المصورين؟!

مسحت على شعرها بكفي في حنان، رغم أني أبدًا ما كانت عيناي تراها.. وقلت وأنا أدخل إلى السيارة:

- سأعود.. أعدك أني سأعود!!

***

أعلم أنك بالتأكيد سيدتي تعلمين..

قضية الأحرار كانت أكبر من ألا تعرفيها..

لم أعد إلى شهيرة.. كانت صورتها، وهي تقف كطفلة قروية تائهة في ميادين القاهرة، هي آخر ما رأيته منها ذاك الصباح، حين انطلقت بنا السيارة إلى قاعة المحكمة، التي أصدرت حكمًا بتأييد حكم السجن السابق..

ألم أخبرك؟!

العدل يضل طريقه كثيرًا إلى الأبرياء!!

نموت مرة واحدة سيدتي؛ لأننا بعد تذوقنا طعم الموت يصعب أن نعود لنقول هل طعمه أرحم، أم طعم انكساراتنا الكبيرة؟!

لكن قد نولد أكثر من مرة..

أشهد أن زهرة يومًا أنجبتني من جديد، وأشهد أن شهيرة أيضًا من رحم الألم والفراق كتبت لي مولدًا جديدًا.. لكني أشهد أن تلك اللحظة التي اقتادوني فيها، فيما يطلق عليه «سيارة الترحيلات».. كانت لحظة موت رؤوف عبد الجواد الأول.. كم فيلمًا سينمائيًّا عن السجن والمساجين، شاهدت أنت أو شاهدت أنا...

الواقع سيدتي يختلف كثيرًا..

في الطريق إلى سجن «التخشيبة» بمنطقة الخليفة وسط القاهرة، تدلى عنقي في ألم كبير، أرقب أساور الحديد التي قيدوا يدي بها..

نعم بكيت.. نعم سقطت دموعي..

لم أكن أبكي حكمًا جائرًا أطاح برأس بريء..

لم أكن أبكي خوفًا من طريق مجهول نحو زنزانة وأعوام، لا أعرف إن كنت أحيا حتى نهايتها، أو أموت فيها على يد مجرم، أو كف ضابط كما نرى على الشاشات..

والله.. سقطت دموعي خجلًا من قلبين بسذاجتي أدميتهما..

كان قلبي ينفطر على قلب والدي.. عيناه الدامعتان المتحجرتان اللتان رأيتهما من خلف قفص المحكمة، كان حزنهما يجلدني..

كنت أبكي على امرأة تحمل في أحشائها طفلًا، وفي قلبها حبًّا وحنانًا، لا أعلم كيف دوني أو دونها تكون الأيام!!

امرأة أخبرتها أني سأعود.. خذلتها وكذبت..

هل تعلمين كم هو مهين أن أقف في سجن التخشيبة، ثم تطالني كف ضابط ومعاونيه في قسوة؛ لتنحشر بين ثنايا جسدي وأعضائي بحثًا عما يسمى الممنوعات؟! ليس لك هناك حتى أن تهمسي..

السجين ذليل يعبثون به كيف شاءوا..

مازلت أذكر كيف أخبروني أن ترحيلي إلى السجن، الذي أقضي به عقوبتي سيكون خلال يومين، أقضيهما في عنبر سجن التخشيبة..

كان الضابط الموجود غليظ الوجه، حين قرأ اسمي في نموذج الحبس، ألقى إلى أذني بكلمات قاسية مهينة، أعلن فيها أنه يتمنى لو يسحق عنقي أنا وعائلتي تحت حذائه..

الغش في المواد الغذائية أرحم.. السرقة.. القتل.. كل جرائم الأرض ذكرها واحدة واحدة.. لكن أن يشتري مريض دواءً بكل ما يملك؛ ليجد نفسه في لحظة مصابًا بداء أكبر، ومهددًا بالموت البطيء، فهو قانون أحمق عقيم ذاك الذي اكتفى بسجني.

ذاك الضابط قال إنني لا أستحق ثمن حبل المشنقة..

رؤوف عبد الجواد، كما وصفه ضابط سجن التخشيبة، يستحق الموت سحقًا بالأحذية!!

***

لم أبك بين ذراعي والدي في الصباح التالي لتلك الليلة، التي قضيتها في عنبر السجن مع أكثر من عشرين سجينًا، بعيدًا عن فراشي الوثير أو عطر زوجتي..

ضمني والدي، وهو يتمتم أن النقض سيقدم، وأنه بكل نفوذه وعلاقاته سيحاول أن يخرجني من السجن، حتى إن كان الثمن أن يصبح خاوي اليدين..

كنت أعلم أن شيئًا لن يتغير، وأنه رغم حبه الكبير لي، والذي لا أشك في صدقه وعمقه، إلا أنه أبدًا لن يضحي بكل ما يملك.. عندما يموت لنا عزيز أو حبيب، وحدها الصدمة تجعلنا نبعثر نقودنا؛ لنشتري له أجمل كفن، ثم نقيم أغلى سرادق، ونلجأ إلى أكبر مقرئ، ونعلن عن رغبتنا في ألف صدقة جارية له.. بعد أيام.. أسابيع نكتفي بالدعاء له، وربما حتى الدعاء ننساه!!

هذا هو قانون الحياة والبشر.. كنت أعلم أنه حزين من أجلي.. لكني كنت أعلم أنه سيحيا والحزن وحده من سيموت!!

أنا بكيت ونسيت أني رجل، عندما ضمني طارق إلى صدره، كما لم يفعل يوما حتى وهو طفل صغير..

ضمني لأشعر أنه حقًّا أصبح رجلًا.. كادت أضلعي تتكسر بين ذراعيه.. ترى هل زاده الحب قوةً في تلك اللحظة، أم أنا من كساه الحزن ضعفًا ووهنًا؟!

عندما ابتعد بي عن صدره قليلًا، عدت أستبقيه.. لكنه من بين دمعاته، قال وهو يعبث بهاتفه:

- رؤوف.. انظر.. وضعت شهيرة مولودًا رائعًا.. انظر.. صوَّرته لك في اللحظة الأولى، التي رأيته فيها.. وضعت شهيرة طفلها حين كنت في المحكمة..

التقطت الهاتف من كف طارق، ونظرت إلى ذاك المخلوق الصغير، في ذهول، وأنا أتذكر كيف أخبرت السماء أني لا أريد طفلًا لا أعرفه، يوم كانت تنزف في المستشفى حيث أخذها زياد..

استجابت السماء لكن بطريقتها.. جاء الطفل ولن أعرفه.. ولن يُكتب لي أطفال سواه، كما عرفت بعد أن رأيته، وعرفته بعدها بأعوام!!

لماذا لم تلد شهيرة قبلها بيوم؟! ليلة واحدة فقط لأراه.. لأضمه.. لأشتم فيه تلك الرائحة، التي يولد بها الأطفال..

ربما ليبقى طارق وحده طفلي، الذي ولد بين أصابعي، رغم أنه ليس ابنا لي. وأعادني صوت طارق يقول:

- أسماه والدي.. ضياء..

نظرت في عيني أبي في دهشة.. لماذا لم يسألني؟! لماذا لم ينتظر ويسألني ماذا أسميه؟!

لأن قدر توفيق عبد الجواد أن يطلق وحده الاسماء على يتامى عائلة الأحرار..

في غرفة المأمور بسجن التخشيبة، اقترب مني والدي، كأنه قرأ كل ما دار في رأسي، ثم قال في حنان كأنه اعتذار:

- لم نستخرج شهادة الميلاد بعد يا رؤوف.. هل تفضل له اسمًا آخر؟ أخبرني ماذا تريد؟!

عدت بالهاتف إلى يد طارق، وابتلعت ما بقي من دمعات، وقلت في هدوء:

- أريد شيئًا واحدًا.. أريد مسبحة جدي القديمة!!

***

جميعنا سمع عن سجن «المزرعة» المسمى بليمان طرة.. سجن الأثرياء والمدللين..

مثلك ابتسمت ابتسامة مريرة، حين وقفت في الصباح الثاني لي في انتظار ترحيلي إلى مقر إقامتي..

هل تظنينه مزرعة مفتوحة وزنازين من حرير؟!

أبدًا سيدتي.. إليك قصته وحقيقته، كما عاش فيه بريء ما يقارب ثلاثة أعوام..

عند وصولي إلى باب سجن المزرعة مقيد اليدين، أمروني بالجلوس أرضًا إلى جوار بقية المساجين، فيما يسمى «الفَسحة».. كالقرود جلسنا القرفصاء.. كالقرود ينادون واحدًا تلو الآخر.. حين حان دوري، قاموا بأول عمليات ذبح الإنسانية وجلد الكرامة..

«التعفير!!» هو رش جسد السجين بنوع من أنواع البودرة، التي والله إن قارنت رائحتها بتلك التي يحصدون بها أرواح الفئران والصراصير، لوجدت الأخيرة أجمل من عطور باريس جميعها..

أغمضت عيني في صمت حتى انتهت عملية تعفيري؛ ليليها ما هو أشد قسوة وألمًا.. على مقعد خشبي قديم جلست أرقب خصلات شعري تسقط حولي، وهم يحلقون لي رأسي «زيرو»..

تلك اللحظات تذكرت كيف كنت أضحك في طفولتي، ونحن نشاهد أفلام الكارتون التي يحلقون فيها شعر ماعز صغيرة، لا حول لها ولا قوة.. ولكن عندما أصبحت أنا تلك الشاة ما ضحكت!!

وكزني ذاك الذي حصد رأسي وتركها صلعاء مادًا يده إليّ بكيس بلاستيكي، ترقد داخله حلة السجن الزرقاء «المعقمة» .. أشار لي بيده إلى باب خشبي متهالك، يأمرني بالدخول إليه والاستحمام وارتداء ملابس السجن..

تحت الماء بإمكانك البكاء دون أن يعلم أحد، حتى أنت، بأيهما تغتسلين بماء الصنبور، أم بدمع الحسرة والألم!!

حين زج بي الصول «محسن» إلى العنبر الذي أقمت فيه، كدت أقع على وجهي، وحين أدركت نفسي واقفًا نظرت حولي إلى زنزانتي.. كانت مساحتها حوالي 5 × 6 أمتار، وعشرة رفقاء، يحتل كل منهم ما يسمى «المنامة».. والمنامة سيدتي هي المساحة الخاصة بك، وتقدر بحوالي 1 متر × 1.5 متر تقريبًا.. هي منامتك التي ترقدين فيها أرضًا وتجلسين، وترقصين إن شئت، ولكن تحت جناح كبير الزنزانة وأقدم ساكنيها..

نعم هي الحقيقة.. هناك استقبال روتيني لكل جديد يدخل الزنزانة.. استقبال تُسحق فيه البقايا الصغيرة من الكرامة، والتي يتركها ضابط السجن منحة لكبير الزنزانة..

كان كبيرهم يوم وصولي هو «طلبة»، رجل في نهايات الخمسينيات نحيل أسمر متجهم الوجه.. ما إن اعتدلت بقامتي أنظر حولي، حتى نهض عن منامته، وتقدم بعد أن ركل بقدمه نحوي سطل صغير، كان في أحد أركان المكان؛ ليمسك دون مقدمات بتلابيب ملابسي قائلًا في سخرية:

- «أهلًا بالتلميذ»..

انتفضت بين أصابع كفه ورنة صوته الأجش... تماسكت وفكرت أن أسدد إلى وجهه لكمة عنيفة.. هو ضئيل مسن، وأنا شاب رياضي مفتول العضلات.. لكني في أقل من لحظة، عدلت عن فكرتي، ليطلقني هو من كفه صارخًا:

- ابحث لك عن منامة واقبع فيها كالكلب حتى آذن لك بالتنفس..

أفسح لي أحدهم مكانًا إلى جواره، مشيرًا لي بالجلوس فيه، ورميت جسدي في صمت، كأني حقًّا أخشى أن أتنفس دون إذن من «طلبة»..

رفيقي وجار منامتي، مال بشفتيه، يهمس في أذني:

- لا تخش شيئًا.. هو مسكين لا يؤذي.. أنت في أفضل زنازين سجن المزرعة.. كل من في هذه الزنزانة ما آذوا أحدًا إلا أنفسهم..

كان هادئًا وقورًا في منتصف الخمسينيات من العمر، رغم كونه يبدو وقد تجاوزها بأعوام كثيرة.. وسيم رغم مرارة ابتسامته، إلا أنها تشيع في الروح سكينة، وترسم حوله مسحة من نور، تجعلك تتمنين لو كان من الممكن أن تنامي على كفه..

هو الآخر كان يتفحصني بعينه الضيقة المشتعلة بالذكاء والحنان، وأرخي كلٌّ منا عينيه بعد لحظات، كأننا كتبنا تقريرًا واحدًا، ختمناه بعبارة:

«يسمح له بالعبور إلى القلب»..

ألقيت برأسي على ركبتيَّ، بعد أن ضممتهما إلى صدري بذراعي.. أهنا أقضي ثلاثة أعوام؟!

أنا بريء.. حقًّا لم أفعل شيئًا.. والله لو علمت أنا سنموت فقرًا ما أحضرت دواءً يقتل أو يؤذي مخلوقًا.. من فعل بي هذا؟!

من تأذى لا يؤذي!!

طارق فعلها؟! أبدًا لا أصدق.. طارق قد يستورد مواد أقل كفاءة وفاعلية.. لكنه ليس بالحماقة، التي تجعله يستورد مواد ملوثة تقتل رجولة وتبيد صحة..

يد خفية كانت وراء القصة..

من فعلها؟! عندي ثلاثة أعوام أفكر وأرتب الأحداث، وأستعيد كل صغيرة وكبيرة في هدوء السجن، علني أصل إلى شيء..

عدت أضم ساقيَّ إلى صدري في قوة أكبر.. هل حقًّا أبقى هنا ثلاثة أعوام؟!

بريء؟! لم أفعل شيئًا؟!

الذنوب في لحظات الألم تنتصب قوية، كأنه يستحضرها لتزيده قوة وشراسة!!

في تلك اللحظة تذكرت زهرة.. تذكرت حقائبها في بيت بهاء.. تذكرت رسائلها، وتذكرت لقائي بها على أرض لوزان.. ذبحتها.. لم أشرح لها أو حتى أبرر لها..

كنت أحمي أبي.. كنت أحمي جدتها.. لم أنبش قبورًا أغلقها الموت على أسماء نراها نقية، لكنها مذنبة.. ومن أجل الحفاظ عليها سحقت قلبًا طاهرًا بريئًا ما منح سوى الحب..

ظننتني مت معها؟!

أبدًا عشت وأحببت وتزوجت، وكان يجب أن أدفع ثمن جريمتي..

أنا في السجن لأن ذنبي في حق زهرة أكبر من أن تغفره السماء..

عوضها الله عني خيرًا.. زوجًا وابنًا وحياة في أجمل بلاد العالم.. لكن كان يجب أن أدفع الثمن..

أنا في السجن أسدد فواتير قديمة، ظننت الأقدار أعدمتها..

هو القصاص.. هو حق زهرة وحق شجرة الليمون، التي اقتلعتها في غرور وحماقة العاشقين..

خرجت من صدري آهة كبيرة، لم أستطع كتم أنينها، وشعرت بجار منامتي يربت على كتفي قائلًا:

- لن تمر الأعوام ورأسك ملقى على ركبتيك.. ارفع رأسك لا تتألم..

إن كنت مذنبًا تطهر.. وإن كنت بريئًا تعلّم..

عاد يكرر جملته في هدوء، كأنه يريدني أن أستوعبها وأفهمها:

«إن خدعتهم تطهر، وإن خدعوك تعلم»..

هزتني الكلمات، ورفعت عينيَّ أنظر إليه.. بريء!!

هناك إذًا مخدوعون أبرياء في السجون، وقبل أن أقول كلمة رأيته يمد يده في جيبه، ليعود بها نحوي قائلًا:

- هل تدخن؟!

لم أتخيل أبدًا أن أرى سيجارة في الزنزانة، ولم أقاوم.. مددت أصابعي ألتقطها، بعد أن أشعلها لي، وبعد أن ملأت صدري ببعض دخانها، نظرت إليه وسألت:

- من أنت؟!

هل عرفتِهِ؟! هل تذكرتِ كلماته التي رددها على مسامعي؟!

أخبرني فيما بعد أنها كلماتك التي وضعتها في رسالة، وأرسلتها له بعد دخوله السجن..

عدت أحملق في وجهه، بعد أن ذكر اسمه، وسألت.. أهكذا تتغير الوجوه خلف قضبان السجون؟! كيف لم أعرفه؟!
لكنه كان هو.. الرجل الذي أحبته مصر، وتحدثت عنه طويلًا..
رفيق زنزانتي كان «طاهر وهدان»!!
وحده ذاك الرجل كان سر صمودي، وفي لحظة كان سر انهياري في السجن وسقوطي!!

***

لم يسألني وهدان في ليلتي الأولى هناك سوى عن اسمي الأول.. وفي الصباح التالي، كان يخطو إلى جواري، يخبرني بكل ما سأراه كأنه مرشد سياحي..

عندما دق «بروجي» نوبة الاستيقاظ في السادسة صباحًا، مشى إلى جواري، وفي طابور الرياضة لاحظت أنه يؤدي تمارين خفيفة، ولا يوجهه أحد أو يزجره..

بعد خروجنا من «الميس» .. وهو صالة الطعام الكبرى، التي يتلقى فيها كل النزلاء طعام الإفطار، بدأ توزيع المهام..

السجن مع الشغل والنفاذ.. «الشغل» معناه أن نعمل أعمالًا مهنية، فهناك قسم يعمل في الجراية وهي أعمال العجن والخبز.. وقسم في غسل ملابس السجناء، وأيضًا الضباط والمجندين، وآخر في تنظيف المراحيض ومسح الأرضية..

ذاك الصباح، علمت أن وهدان صديق شخصي للمأمور، فلقد رأيته يهمس إليه بكلمات سريعة وصغيرة، أعلن المأمور بعدها أن مهمتي اليومية هي أن أكون مساعدًا لصول السجن.. وتلك أيضًا كانت مهمة طاهر وهدان.. وهي أفضل وأرقى عمل يوكل إلى المساجين..

عندما حاولت أن أشكره، ابتسم وهدان، وهو يقول:

- أنا أتبع قلبي، ورغم أنه من أحضرني هنا، إلا أنى مازلت أثق في بصيرته.. رؤوف.. لنكن صديقين..

أحيتني كلماته تلك، منحتني شيئًا كالقوة وشيئًا كالأمل.. لكنه بالسيف ذاته في نهاية اليوم الأول قتلني..

عند انتهاء مهمتنا في مكتب المأمور، وقبل عودتنا إلى صالة الميس لتناول طعام الغداء، غاب وهدان في مكتب المأمور دقائق، كنت أنا فيها في فناء السجن، أعبر طريقي إلى صالة الطعام..

سمعت صوته يهدر خلفي صائحًا كأنه زئير أسد جريح.. حين استدرت إليه، تقدم نحوي، لم أر وجه طاهر وهدان، الذي غفوت إلى جواره بالأمس أو تبعته منذ الصباح.. كان وجهه حادًا متجهمًا، تكسوه غيمة داكنة من الغضب، ما عرفت سببها حتى وجدته أمامي يمسك بعنقي بين أصابعه، وهو يصيح:

- تقتل المرضى بالدواء؟! تستغل ضعفهم.. حاجتهم؟! أنت بهذه الدناءة؟! أنت؟!

كان واضحًا أنه، وفي غرفة صديقه المأمور، علم من أنا وما هي تهمتي.. كانت أصابعه تطبق على عنقي، ولم أكن أقاوم..

عرفت في تلك اللحظة كيف قام طاهر وهدان بقتل «علي مختار».. قتله كما يكاد يقتلني، في لحظة غضب على الفقراء والمظلومين..

ركض الصول محسن تجاهه ليخلصني من ذراعيه، ولكن قبل أن يصل إليه شعرت بذراعيه ترتخيان من حول عنقي؛ ليسقط طاهر وهدان غائبًا عن الوعي تحت أقدامي!!

***

في لحظة، كان هناك أكثر من ضابط ومجند في المكان؛ خوفًا من أن يثير سقوط وهدان الهرج والشغب..

كانوا يقتادون السجناء إلى العنابر، وأنا أقف وحدي غارقًا في الذهول؛ حيث رأيت المأمور يركض في جنون نحو جسد طاهر الملقى على الأرض.. رأيته يرفعه بين ذراعيه، كأنه وليده، ويأمر بحضور طبيب السجن..

لم يقتادوني إلى زنزانتي، وربما لم أشعر بهم، وهم ينادونني.. أو ربما شاءت الأقدار أن يتركوني لأرقب طبيب السجن، وهو يأمر بعض المجندين بحمل طاهر إلى عربة الإسعاف؛ تمهيدًا لنقله إلى المستشفى..

حين حملوه.. حين ساروا به.. ظننته مات، ورأيت معه جثة ذاك الشاب الذي أصابه الفشل الكلوي بعد تناوله دواء الأحرار المغشوش.. رأيته جثة تسير إلى جوار جثة وهدان، وقبل أن أفيق، رأيت جثة ثالثة أكثر طهرًا ونقاء من جثتيهما..

رأيت جثة زهرة تخرج معهما، محمولة على جذع شجرة الليمون المذبوحة كأنها جنازة جماعية لسفاح واحد، هو أنا..

شعرت أني أغيب عن وعيي أنا الآخر.. غير أني أفقت على كف ضخمة تسدد إلى عنقي صفعة كبيرة، وتزج بي في اتجاه عنابر السجن وصوت يقول:

- ألم تسمع؟! إلى العنبر يا سجين!!

***

ثلاثة أسابيع قضاها وهدان في مستشفى السجن.. أسابيع علمت وتعلمت فيها الكثير..

وهدان مريض سكر حاد، هو الآخر، بالإضافة إلى الربو المزمن، وكثيرًا ما يذهب إلى المستشفى، وتطول به إقامته فهو صديق المأمور، ومستشفى السجن أفضل كثيرًا من عنابره وزنازينه..

في زيارات والدي، أخبرني أن مهمتي لن تتغير، فلقد أحضر توصية إلى مأمور السجن، من أحد كبار قيادات الداخلية..

عمي مدحت زارني في الأسبوع الأول، وحين ضمني إلى صدره، بكيت على كتفيه، أعتذر عما صنعته به وبابنته.. أخبرته أني يوم ذهابي إلى المحكمة، رجوتها أن تبقى مع والدي، لكن بعد صدور الحكم فأنا أعفيها من طلبي..

أخبرت عمي أن شهيرة لها مطلق الحرية في أن تبقى في بيت أبي أو تعود إلى بيته زوجة شاءت أو حرة مُطلّقة.. أخبرته أنها ستحتفظ بوليدها إلا إذا كرهته لأنه مني..

- «ما عدت أريد ذنوبًا جديدة»..

تلك كانت آخر كلماتي له، والتي ربّت بعدها على كتفي قائلًا:

- أنت ولدي كما هي ابنتي.. حتى إن كنت مذنبا، سأبقى أحبك وأزورك.. شهيرة تحبك، كما لم تحب امرأة رجلًا، ورغم هذا قرارها هو اختيارها.. سأخبرها..

أمسكت بيد عمي يومها قبل خروجه من زيارتي قائلًا:

- أخبرها أني أحبها أيا كان قرارها، وأخبرها أني أبدًا لا أريدها أن تحضر وتراني هنا.. خذ منها عهدًا ألا تفعل!!

***

كانت الأيام الأولى هي أقسى أيام في سجن المزرعة.. كاد السجناء يفتكون بي بعد ذهاب وهدان إلى المستشفى.. حتى المذنبون والعتاة منهم، كانوا يحبونه..

تعلمت أن حتى من لا قلوب لهم أو ضمائر يحملون شيئًا كالحب لمن يثقون في ضميره ونبض قلبه.. تمامًا كما نحب جميعًا تلك الأشياء، التي نعرف أننا أبدًا لن نملكها!!

تعلمت أن أخرج عن سكوني وهدوئي، وأستخدم قوتي في مواجهتهم.. كانت اللكمة الكبرى التي أقصتهم جميعًا عني هي تلك التي سددتها في جنون إلى وجه طلبة، كبير عنبرنا، حين وجه لي سبابًا دنيئًا، اختص فيه أمي بالنصيب الأكبر..

رأيت رؤوفًا آخر لا أعرفه.. رؤوفًا.. الرجل الذي يدافع عن شرف وكرامة أنثى، ماتت دون خطايا سوى إنجابي وإنجاب أخي، من رجل دمرت رجولته أنثى أخرى..

سددت إلى وجه طلبة لكمات كثيرة عنيفة مجنونة، كأني أصرخ بها وأتناثر وأبحث عن ربي، فوحده يعلم أني ضحية، سقطت على يدها أطهر القلوب وأكثرها حبًّا وصفاء..

حين سكت طلبة وسقط في منامته خوفًا من تصاعد الأمر، وتعرضه لأذى أو حبس انفرادي.. حين استدارت وجوه العشرة مساجين زملاء زنزانتي بعيدًا عني، وبعد خلودهم جميعًا إلى النوم اعتدلت بجسدي مستندًا بظهري على حائط الزنزانة المرطوب.. نظرت إلى منامته الفارغة منه..

كنت كلما قرأت له مقالًا تمنيت لو ألقاه.. لم أكن أعلم أبدًا أن السماء حققت لي الحلم، ولكن أيضًا بطريقتها لأتمنى لو مت قبل أن يراني، وأكون سببًا في سقوطه تحت أقدامي..

تذكرت أيضًا فراشي الوثير ووسائدي المخملية.. تذكرت جسد شهيرة وعطرها وأنفاسها حتى في أيام الحرمان الطويلة.. تذكرت باريس ومقاعد الدرجة الأولى، وحقائب الهدايا والصور.. تذكرت مكتبي الأنيق بالأحرار وسيارتي..

كل هذا كأنه أبدًا لم يكن أو عشته يومًا..

اللحظات تموت بانتهائها..

شعرت أني أختنق.. أريد تدخين سيجارة.. أحتاج سيجارة أنفث فيها دخان هذه الحرائق السوداء، التي تشتعل في حنايا أضلعي..

تذكرت السيجارة التي منحني إياها، وشعرت بدمعة تنزلق على وجهي.. هل يعود؟ وإن عاد هل يسمعني؟ وإن سمع كيف يصدق مذنبًا يدعي البراءة؟ وهل يفعل أي متهم غير ادعائها؟!

تذكرت أمي.. حتى هي لم تنجُ من هداياي.. لو لم آت هنا ما نعتها مجرم كطلبة بتلك الصفات.. ولكن من أحضرني هنا؟!

من وضعني في السجن.. من ذبح زهرة وشهيرة وأمي وأبي، وجعلني أقتل براءة أخي، وأشهد تيتمه وتيتمي كانت أيضًا امرأة.. لولا خيانتها ما ترك أبي الشرقية، وما دارت بنا الأيام هذه الدورة السوداء..

خيانة النساء لا تنتهي أبدًا بمغادرتهن لفراش الخيانة.. خيانة النساء تدفع ثمنها أجيال، لم تشهدها وقد لا تعرفها..

نعم، لعنت جدتي في تلك الليلة، وأنا أسأل لمَ كانت تخون ذاك الرجل الطيب؟!

هل أصاب جدي عجز جنسي، جعلها تلجأ إلى جسد وديع صفوان؟!

ربما أرادت أن تحتفظ ببيتها وابنها، ولم تستطع أن تحرم جسدها، أو تكبح جماحه..

من يعلم؟! من يدري؟!

في تلك اللحظة تذكرت شهيرة.. تذكرت زوجتي الشابة، التي لم ترتو مني بعد.. ماذا يصنع بها الحرمان؟! هل تسقط؟! هل تجد لنفسها صفوان آخر؟! الخيانة هي الجريمة التي يدفع ثمنها من لم يقترفوها..

شعرت بعروقي تنتفض، ودمائها تثور، وألف ألف شيطان يصرخ، وآخر يقهقه، وأنا أرى زوجتي تسقط كما سقطت جدتي.. ولكن بسذاجة

الحمقى عدت أحتال على نفسي، مؤكدًا لها أن هناك نساء تحيا العمر دون رجال.. دون أن تسقط.. ابنة مدحت عبد الرحمن لن تسقط..

الله لن يعاقبني أبدًا مرتين..

كنت أتمزق وأنا أرى دموعي، تنهمر في جنون، أستجدي بها السماء أن ترحمني وتنير بصيرتي..

وضعت قبضتي على شفاهي أكتم صرخة، كادت تخرج، ورأيت على أصابعي خطوط دماء جافة ارتسمت على أصابعي.. هي دماء طلبة بيدي أنا.. انتفضت دون وعي، زاحفًا إلى حيث منامته، وانحنيت أتفقد وجهه المتورم، واستيقظ يصرخ صائحًا في ذعر:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!

انحنيت عليه، وأنا أبكي في جنون أهمس:

- سامحني أرجوك!!

***

في صباح الجمعة الثانية الباكر، وحيث يوم الزيارة الأسبوعي، وجدت بهاء يقف خلف الأسوار، وهو يبتسم..

تسلل بأصابعه من بين ثقوب السلك الفولاذي، يحاول أن يلمس أصابعي.. كنت أعلم أن حضوره إلى السجن في ذاك الصباح الباكر جنون وعناء لا تحتمله حالته الصحية.. هو رجل بلا سيارة، ويخطو على ساق ونصف.. رجوته ألا يفعلها أبدًا.. لكنه أخبرني أنه سيحضر كل جمعة في الصباح الباكر، وينصرف قبل موعد صلاة الجمعة؛ لأنه يعلم أن والدي وطارق وربما أحدًا لن يحضر أبدًا قبل أداء الصلاة، وهو لا يريد أن يلقى أحدًا..

بعد أقل من ساعة معه، أصابني ما يشبه الانهيار.. أخبرت بهاء بوجود طاهر وهدان وما حدث معه.. أخبرته أني أتمنى لو كان الحكم هو الإعدام لأني أستحقه..

من خلف دموعي وهذياني، نظرت إليه من خلف الثقوب، قائلًا:

- بهاء.. هل تذكر زهرة؟! هل تذكر كيف كانت تخطو كالقتيل، وهي عروس؟! أنا ذبحتها..

أنت لم تر شهيرة.. رائعة شهيرة.. رائعة.. بغبائي تركت المكيدة تنجح لتواجه هذه المسكينة أيضًا شكوكًا واتهامات، لا تقل عن شكوك وهدان لي.. هل تشعر بانكسارها، وهي تحمل وليدها وحدها.. دوني؟!

هي ذنوبي.. السجن ليس كافيًا.. لماذا لم أُعدم.. براءتي من المشاركة في استيراد الدواء لا تعفيني أبدًا عن مسئوليتي عن ذاك الشاب، وكثيرين قد لا نعرف عنهم شيئًا..

عندما نظرت إليه كان يتألم.. كان واضحًا أنه يشفق عليّ.. لكني عدت أكمل في جنون:

- حتى أنت بهاء.. لو أحسنت أنا تربية أخي الصغير ما أضاع ساقك.. يبدو أني تخصص بتر يا صديقي.. الأبرياء بُترت سيقانهم، أو أجزاء من أرواحهم، ووحدي السبب..

كانت لحظات صمت بهاء الطويلة تؤلمني إلى حد الفزع.. قد نتهم أنفسنا.. قد نكرهها ونراها ضئيلة.. لكن يقتلنا أكثر أن نعلم أنها هكذا في عيون الآخرين..

كان يبدو أن بهاء يحاول أن يلملم شتات فكره وقلبه، وقبل أن يغادرني في زيارته الأولى تلك، قال ورأسه يتدلى في هدوء:

- هل حقًا ترى نفسك مذنبًا؟ أخطأت في حنانك على شقيقك اليتيم.. هجرت حبيبة، وأُرغمت على ترك زوجة، وطُعنت من شخص لا تعرفه في عملك.. أهذه ذنوبك رؤوف؟!

ما ذنبي أنا؟!

رؤوف.. يوم صدمتني سيارة أخيك، وفقدت ساقي، كنت في طريقي لإنقاذ شاب في الثامنة عشرة من العمر من الفشل والضياع..

ما ذنبي في هذا لأفقد ساقي وزوجتي ورجولتي، وقدرتي على العودة إلى كل من عرفتهم بساق ونصف؟!

المحن يا صديقي ليست دائما تكفيرًا عن الذنوب، أو عقابًا عليها.. المحن والآلام أحيانًا تكون هدايا إلى الأنقياء؛ لأن الخالق يريدهم أكثر جمالًا ونقاءً!!

***

في صباح الجمعة الثانية الباكر، وحيث يوم الزيارة الأسبوعي، وجدت بهاء يقف خلف الأسوار، وهو يبتسم..

تسلل بأصابعه من بين ثقوب السلك الفولاذي، يحاول أن يلمس أصابعي.. كنت أعلم أن حضوره إلى السجن في ذاك الصباح الباكر جنون وعناء لا تحتمله حالته الصحية.. هو رجل بلا سيارة، ويخطو على ساق ونصف.. رجوته ألا يفعلها أبدًا.. لكنه أخبرني أنه سيحضر كل جمعة في الصباح الباكر، وينصرف قبل موعد صلاة الجمعة؛ لأنه يعلم أن والدي وطارق وربما أحدًا لن يحضر أبدًا قبل أداء الصلاة، وهو لا يريد أن يلقى أحدًا..

بعد أقل من ساعة معه، أصابني ما يشبه الانهيار.. أخبرت بهاء بوجود طاهر وهدان وما حدث معه.. أخبرته أني أتمنى لو كان الحكم هو الإعدام لأني أستحقه..

من خلف دموعي وهذياني، نظرت إليه من خلف الثقوب، قائلًا:

- بهاء.. هل تذكر زهرة؟! هل تذكر كيف كانت تخطو كالقتيل، وهي عروس؟! أنا ذبحتها..

أنت لم تر شهيرة.. رائعة شهيرة.. رائعة.. بغبائي تركت المكيدة تنجح لتواجه هذه المسكينة أيضًا شكوكًا واتهامات، لا تقل عن شكوك وهدان لي.. هل تشعر بانكسارها، وهي تحمل وليدها وحدها.. دوني؟!

هي ذنوبي.. السجن ليس كافيًا.. لماذا لم أُعدم.. براءتي من المشاركة في استيراد الدواء لا تعفيني أبدًا عن مسئوليتي عن ذاك الشاب، وكثيرين قد لا نعرف عنهم شيئًا..

عندما نظرت إليه كان يتألم.. كان واضحًا أنه يشفق عليّ.. لكني عدت أكمل في جنون:

- حتى أنت بهاء.. لو أحسنت أنا تربية أخي الصغير ما أضاع ساقك.. يبدو أني تخصص بتر يا صديقي.. الأبرياء بُترت سيقانهم، أو أجزاء من أرواحهم، ووحدي السبب..

كانت لحظات صمت بهاء الطويلة تؤلمني إلى حد الفزع.. قد نتهم أنفسنا.. قد نكرهها ونراها ضئيلة.. لكن يقتلنا أكثر أن نعلم أنها هكذا في عيون الآخرين..

كان يبدو أن بهاء يحاول أن يلملم شتات فكره وقلبه، وقبل أن يغادرني في زيارته الأولى تلك، قال ورأسه يتدلى في هدوء:

- هل حقًّا ترى نفسك مذنبًا؟ أخطأت في حنانك على شقيقك اليتيم.. هجرت حبيبة، وأُرغمت على ترك زوجة، وطُعنت من شخص لا تعرفه في عملك.. أهذه ذنوبك رؤوف؟!

ما ذنبي أنا؟!

رؤوف.. يوم صدمتني سيارة أخيك، وفقدت ساقي، كنت في طريقي لإنقاذ شاب في الثامنة عشرة من العمر من الفشل والضياع..

ما ذنبي في هذا لأفقد ساقي وزوجتي ورجولتي، وقدرتي على العودة إلى كل من عرفتهم بساق ونصف؟!

المحن يا صديقي ليست دائما تكفيرًا عن الذنوب، أو عقابًا عليها.. المحن والآلام أحيانًا تكون هدايا إلى الأنقياء؛ لأن الخالق يريدهم أكثر جمالًا ونقاءً!!

***

الخالق يريدني أكثر حكمة ونقاءً.. أهكذا نجبِّر كسور قلوبنا؟! أهكذا نخدعها؟! الخالق عدل يكره الظلم وحرَّمه على نفسه.. وأنا حقًّا مظلوم..

أيام تلتها أيام، أستعيد فيها كلمات بهاء في زنزانتي، وأثناء مهمتي الصباحية حتى كان ذاك اليوم، الذي استدعاني فيه مأمور السجن يخبرني فيه أنه اختارني لأكون مسئولًا عن تعليم ومحو أمية سبعة مساجين يوميًّا بعد انتهاء فترة الغداء..

كان يتحدث في هدوء، وهو يشرح لي أن هذه هي إحدى أفضل المهام وأكثرها حفظًا لكرامتي، وأنه يراني جديرًا بها.. أخبرني أن التعامل مع الجهل صعب، وأن تعليمهم لن يكون سهلًا أبدًا، لكنه عمل رائع، وسيحتسب لي الله فيه أجرًا، قد يمحو به ذنوبي.. ذنوبي..

ابتسمت وأنا أقف أمامه.. الذنب الوحيد الذي يعلمه عني المأمور، هو نفسه الذنب الوحيد الذي أنا منه بريء..

حينما انتهى من حديثه، وأخبرني بمكان لقائهم وأسمائهم والأدوات، التي سيوفرها لي السجن، رفع عينيه يسألني إن كان عندي أي استفسار..

أذكر أني يومها لم أجد شيئًا أقوله، سوى جملة واحدة، هي:

- أرجوك طمئنى على طاهر وهدان!!

***

كان صباحًا عاديًّا ككل أيام السجن ونهارها الباكر؛ حيث خرجت من قاعة الإفطار؛ لألمح بعيني تجمعًا كبيرًا هادئًا في فناء السجن..

بعد لحظات، علمت أن هذا العدد من المساجين كان يقف حوله.. كان هناك صوت ضحكات وتعليقات، لا أسمعها.. لكنها كانت تبدو هادئة حانية..

لمحت أكثر من شخص يزاحم؛ ليدخل قلب الدائرة الكبيرة، التي أحكمت حلقاتها حول الشيء الذي لا أفهمه..

لم أقترب ولكن أيضًا لم أبتعد، حتى بدأت حلقات الدائرة تتفكك، ورأيت على البعد مركزها الذي تجمعوا حوله..

عاد طاهر وهدان.. وتجمع كل هؤلاء السجناء لعناقه والترحيب به.. بدا وجهه في عيني أكثر توردًا وابتسامًا..

أي مكان - وإن كان مستشفى السجن - هو دون شك أفضل حالًا من حياة العنابر والزنازين..

حين ذهب كلٌّ إلى حاله، وبقي هو وحده تحت سماء الساحة وشمسها الحارقة التقت عينانا..

تمنيت لو أذهب إليه، وأخبره أني سعيد بعودته..

تمنيت حقًّا لو أخبره أنه وحده من أتمنى لو يصدق أني من تهمتي بريء ولكن لم أستطع، قررت أن أرجئ الأمر إلى المساء، حين تغلق علينا زنزانتنا التي جمعتنا.. عندها لن يكون بإمكانه الهرب مني.. عندها قد يدفعه الملل والأرق إلى سماعي..

حين جاء المساء.. حين عاد كل السجناء إلى عنابرهم، وأغلقوا خلفنا قضبانها الحديدية، بحثت عنه فلم أجده.. وعلمت أنه رفض أن يقتسم معي هواء زنزانة أتنفس فيها..

حين سألت عنه رفقاء السجن، أخبروني أنه أخبرهم بأنه أبدًا لن يستطيع التحكم في مشاعره، إن اختلى بي، وهو لا يريد أن يقتل جرذًا جديدًا..

هكذا كان صديقك يراني..

فأر لا يستحق أن يكون إلى جواره، ولا يستحق حتى أن يلوث بقتله يديه.. منامتي، وكعادتي كل ليلة، استندت على حائط السجن المرطوب، وتذكرت وجهه في الصباح..

تذكرت لحظة التقاء أعيننا تحت وهج الشمس، وكيف نظر إليَّ بذاك الازدراء العميق، ثم أغمض عينيه، ومضى بعيدًا عني.. سألت نفسي أين رأيت تلك النظرة من قبل.. نظرة صامتة غاضبة، تقتلع الروح وتصفع الكبرياء.. ركلت بقبضتي ركبتيَّ المضمومتين إلى صدري، في قسوة عندما تذكرت..

هي النظرة ذاتها بعينها التي رأيتها تحت سماء لوزان من امرأة أحببتها يومًا..

أهذا نصيبي من كل من أحببتهم؟! وأهذا هو حقًّا نصيبهم مني؟!

***

بدأت حياتي في السجن تنتظم وأعتادها كما بدأت هي تعتادني.. زيارات والدي أصبحت منتظمة هادئة، لا انفعال فيها ولا وعود.. النقض قُبِل شكلًا ورفض موضوعًا..

رفضت رفضًا هادئًا، لكنه كان صارمًا وقاطعًا، أن أرى صورة واحدة لولدي ضياء.. أخبرت والدي وأخي وعمي مدحت أنني لن أسمح أبدًا لقطع من الورق أن ترسم لي ملامحه، وتصور لي طفولته..

ملامحه أرسمها بقلب الأب، وطفولته أصبحت ملكًا لهم ولأمه.. إن بقيت حيًّا سأحاول أن أحيا ما بإمكاني اللحاق به منها..

عذاب سيدتي أن تحملي في جيبك ورقة، عليها وجه من تحبين وتشتاقين إليهم..

عذاب أن تبحثي في قطعة من الورق عن دفء، وعن علاقة كبيرة كالبنوة.. عذاب أن تسألي صورة من أنت لها؟ وكيف أنت عندها؟!

أبدًا، لن يتحول ولدي من شهيرة إلى قطعة ورق تتلوى وتتكسر في جيب ملابس السجن.. سيبقى طفلي بين ذراعي أمه، وإن شاء لي القدر أن أغادر قضبان سجني، فسوف أكتشف بعيني وأذني وأصابعي وكل حواسي من وُلد، وأنا عنه بعيد..

مع الأيام ما أصبحت حتى أسأل عنه، وما أصبح أحدهم عنه يتحدث..

الحديث عن من نعجز عن الوصول إليهم هو ألم أكبر من ألم العجز ذاته.. كل شيء يصطبغ بلون الروتين يهدأ وتهدأ نفوسنا عند التعامل معه.. حتى كراهية طاهر وهدان لي أصبحت جزءًا من الروتين.. هو لا يقترب من مكان أنا فيه..

أصبحت مهمتي هي تعليم المساجين، وصباحًا تنظيف مسجد السجن..

كنت أبحث بعيني عنه في زيارات الجمعة، ولكن أبدًا لم أره، وعلمت أن لا أحد يزوره في أيام الزيارات..

هو صديق المأمور، وكثيرًا ما يختفي داخل مكتبه في الصباح.. ربما هناك كان يلتقي زواره..

شهور طويلة مرت، لا عاد يهمني فيها أن أصل إلى من وضعني في السجن، أو من هم معي فيه.. ولا عاد أيضًا يهمني أن أفكر في حال من تركتهم خارجه طلقاء...

أصبح همي هو أن أطوي الأيام، أو بالموت هي تطويني..

***

متى أصبحنا أنا ووهدان أصدقاء؟! متى عرفت أنه صديقك، وأن تلك الجملة التي سمعتها منه، في ليلة السجن الأولى، كانت كلماتك؟!

لا أذكر بالتحديد سوى أن هذا حدث، قبل انقضاء مدة عقوبته بشهور عدة..

عام تقريبًا لم أحادثه أو يحادثني بعد تلك الليلة، وبعد ذاك الصباح الذي حاول فيه قتلي، وسقط هو كالقتيل تحت أقدامي.. كان صباحًا شتويًا قارسًا، دخلت فيه إلى مسجد السجن حيث مهامي الصباحية..

أنهيت تنظيف المسجد، والتقطت أحد المصاحف، الذي وجدته على جانب أحد الحوائط، وفي طريق عودتي به إلى حيث توضع المصاحف، شعرت بغصة في صدري.. كنت أعلم أنه، وفي مثل هذه الأيام وضعت قدمي في هذا المكان ومازال له في عنقي عامان من عمري، وعمر زوجتي وطفلي..

طفلي؟!

بدأ يخطو؟! هل تحدث؟! ترى ماذا كانت أولى كلماته؟!

نعلم جميعًا أن الأطفال يقولون كلمة «بابا»، قبل «ماما»؛ لأنها أسهل في نطقها.. هل نطقها ضياء؟! هل أدمعت شهيرة عندما سمعتها؟! هل تذكرتني؟! وهل نسيتني لتذكرني؟!

سقطت على ركبتيّ في أرض مسجد السجن، والمصحف مازال بين يدي.. ضممته إلى صدري وأجهشت في بكاء حاد..

لماذا حاولت طيلة عام أن أتظاهر بالهدوء واللامبالاة؟!

مازال في صدري بركان ثائر.. مازالت ضلوعي تتمزق كل ليلة، شوقًا إلى شهيرة، وإلى طفل هو مني ولا أعرفه..

راضٍ أنا بقضائك لكني حزين لا أفهم.. أنا أتألم.. وانطلقت مني صرخة كبيرة، كأنها تخرج من أعماق حنايا قلبي المتشح بالسواد..

سمعتني أصيح باكيًا: «يا رب»!!

نحن نقولها في لحظات ضعفنا وخوفنا واحتياجنا.. لكنها حين تخرج صرخة تزلزل أجسادنا وأرواحنا، فهي والله تختلف..

نظرت إلى كتاب الله، الذي بين أصابعي، وفتحته ونظرت إلى

السطور فوجدت آية من آيات الذكر الحكيم، في سورة الحديد، تقول:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (2)

عدت أصيح في جنون أردد:

- أنا لم أكن يومًا مختالًا ولا فخورًا.. كنت يتيمًا كسيرًا.. يتيمًا..

ومن خلف دموعي رأيته.. رأيت طاهر وهدان، يحمل في يديه أوراقًا كثيرة.. لكنها تكاد تسقط من يديه.. كان واضحًا أنه كان في طريقه بها إلى مكتب المأمور.. وربما سمع صرخاتي، فوقف يرقبني من باب المسجد..

ظننت دموعي هي التي تجعلني أرى الأوراق تتراقص في يديه.. لكني رأيته يترنح ويكاد يسقط أرضًا، وهو يحاول أن يبتسم قائلًا:

- هل تطهرت؟!

نهضت عن ركبتيّ وكتاب الله مازال بين أصابعي، وفي طريقي إليه رأيته يسقط وصحت:

- طاهر.. طاهر.. لا تمت أرجوك..

لم ألحق به سيدتي.. سقط أرضًا، وخرجت أهرول في ساحة السجن أصيح.. الصول محسن كان آتيًا بمجموعة أخرى من الأوراق؛ مما يؤكد أنهما كانا معًا يستكملانها من أجل المأمور..

أخبرته أن طاهر سقط على باب المسجد، وفي لحظات كان طبيب السجن قد ظهر مع المأمور، وركضت نحو جسد طاهر، الذي كان كقطعة من الخشب الجاف، صاح الطبيب الشاب قائلًا:

- أصابه الصرع سيدي المأمور.. هذه التشنجات لا معنى لها سوى الصرع أو جلطة في المخ..

انثنيت على طاهر، وحملت رأسه بين ذراعيّ، وصاح المأمور يأمرني بالابتعاد عنه.. لكني لم أصغ له..

سمعته يحادث مستشفى السجن، يطلب سيارة إسعاف.. وضعت المصحف إلى جواري، ورفعت رأسي إلى طبيب السجن، أقول:

- أنت تعلم أنه مريض سكر.. ربما كانت..

قاطعني الطبيب قائلًا:

- غيبوبة السكر لا تأتي ومعها هذه التشنجات بالإضافة إلى أنني منحته جرعة الأنسولين بنفسي هذا الصباح..

هو الصرع..

عدت أصيح.

- قد تكون غيبوبة نقص سكر.. ربما لم يتناول طعامًا كافيًا بعد الأنسولين.. أعطوني شيئًا مسكرًا أرجوكم.. لن ننتظر حتى وصول الإسعاف.. جلوكوز.. بإمكاني أن أحقنه بالجلوكوز في وريده.. أرجوكم..

صاح المأمور يطلب من الطبيب أن يقيس معدل السكر في دم طاهر، وتقدم نحوي طلبة يخرج من جيبه قطعة صغيرة من الحلوى، كان صعبًا أن أفتح شفتيه.. لكن بكل الحذر فعلتها، ووضعتها له، بينما قام الطبيب بوخز إصبعه لقياس معدل السكر، وبعد لحظات أعلن صحة نظريتي..

السكر منخفض..

حملت طاهر بين ذراعيّ وطلبة يساعدني، وركضنا إلى عيادة السجن..

أوصل له الطبيب محلول الجلوكوز، وبقيت أرقبه وأرقب وجه المأمور، الذي كان ينتفض خوفًا عليه..

لم تمر لحظات كثيرة، حتى هدأت تشنجات طاهر، وبدأ يسترد وعيه ليفتح عينيه ويراني أمامه..

لم يكن في الغرفة سوى أنا وطبيب السجن ومأموره..

رأيته يبتسم، وسمعت الطبيب يقول:

- كنت على حق يا رؤوف.. لقد أنقذت حياته..

نهضت في هدوء لأغادر الغرفة.. أعلم أنه يكرهني ويكره رؤيتي، وقبل أن أغادرها، سمعته يسألني في لوم:

- لماذا لم تتركني أموت..

من على باب غرفة العيادة المتهالك، استدرت أنظر إليه، ونكست رأسي وأنا أخطو خارجها قائلًا:

- لأن الأمل بمن هم مثلك يحيا!!

***

(2) سورة الحديد : آية 23 – 22 .

لم يذهب طاهر إلى المستشفى تلك المرة، وما حادثني بعدها أيامًا تعمدت فيها عدم النظر إليه.. لم أكن أريده أن يشعر أنه يحمل لي صنيعًا أو معروفًا، يحتم عليه شكري أو الحديث معي، وهو يكرهني.. لكنه بعد أيام دخل مسجد السجن في الصباح، ووقف يرقبني في هدوء.. لحظات صمت، طالت أنهيت بعدها عملي، ومررت من جواره إلى خارج المسجد؛ حيث أمسك بذراعيّ قائلًا:

- هل أنت بريء؟!

توقعت منه كل شيء إلا ذاك السؤال..

رأيته أكثر سذاجة من ذكاء طاهر وهدان..

ابتسمت في مرارة، ونظرت إلى عينيه، قائلًا:

- وهل هناك خيارات في الإجابة؟!

ترك ذراعيَّ من قبضته، وقال في هدوء:

- قتلت علي مختار.. مات بين يدي وبيدي.. لكني من موته بريء، ورغم هذا أتألم وأتعذب.. تطاردني روحه كل لحظة، وليس كل ليلة.. في كل مرة تنتابني فيها نوبة السكر أتمنى لو أقضي نحبي..

كرهتك مرتين رؤوف.. كرهتك مرتين.. مرة حين أحببتك وخانني فيك ذكائي، وكرهتك عندما أنقذتني.. لكني أكرهك الآن أكثر؛ لأني أعجز عن أن أكرهك حقًّا..

كان الألم على وجهه جليًّا واضحًا.. أطرقت برأسي لحظات، ثم عدت أقول:

- أستاذ طاهر.. ألا تعتقد أن قتيلك الآن في مكان، يرى فيه ويعلم أنك حقًّا لم تتعمد قتله؟! ألا تظن أنه في مكان آخر، يدرك فيه أن آخر ما يفكر فيه هو ما فعلته أنت؟! ألا تراه يواجه ذنوبًا وخطايا، كان من الممكن أن تستمر وتكبر لولا ما فعلته به؟!

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها وهدان يقهقه بذاك الصخب.. رفع كفه السمراء الكبيرة، التي كاد يسحق بها عنقي ذات صباح، ووضعها على كتفي، وهو يسير بي إلى ساحة السجن قائلًا:

- وهل نقتل كل من لا يعلمون؟!

- أما كان سيدنا عمر بن الخطاب يومًا من قساة القلب، حتى بلغت به القسوة أنه كان في طريقه لقتل سيدنا محمد ﷺ؟! أما كاد أن يدفن ابنته وهي حية؟! كيف تحول في لحظة يا صديقي؟! يوم شاءت السماء هدايته.. من يعلم لو أني لم أقتل مختار أنه لم يكن ليتحول في لحظة إلى رسول عدل وحب في وطن، غاب عنه الحب والعدل؟! أهكذا بررت لنفسك يومًا فعلتك؟!

كان ذراعه حول كتفي، ونحن نسير في ساحة السجن، حيث انطلق يتحدث عن أمور كثيرة لا علاقة لها به أو بي.. شعرت للمرة الأولى أن أوصالي تهدأ وأجزاء جسدي الثائر كلها تتراخى في هدوء غاب عني أكثر من عام.. تمنيت لو ألقي برأسي على ذراعيه، وأصيح بكل ما أوتيت من قوة.. أخبره أنني بريء، وأن ذكاءه ما خانه أبدًا..

شهقت شهقة صغيرة، وأنا أنظر إلى ساحة السجن المهترئة.. والله سيدتي وذراعا صديقك حول كتفيَّ، رأيتها أجمل من حدائق بيت المنصورية، وحتى متنزه «أوشي» الذي حدثتك عنه..

جمال الأماكن تصنعه الصحبة وحدها سيدتي..

توقف طاهر عن السير لحظتها، بالقرب من مكتب المأمور، وعلمت أنه سيدخل إليه، وكأنه قرأ في عيني ما أفكر فيه، فقال في حنان، لم يحاول أن يخفيه:

- رؤوف.. ماذا تريد؟!

ابتسامة ودمعة لاحتا معًا على صوتي، وأنا أقول:

- أريدك أن تعود إلى زنزانتي..

مضى وهدان في صمت، وقبل أن يختفي، قلت وأنا أحاول أن أضحك:

- أريد شيئًا آخر...

عاد بخطواته إلى الخلف نحوي، وقبل أن يسألني قلت ضاحكًا:

- أريد سيجارة!!

***

عاد وهدان إلى زنزانتي بعد ذاك الصباح بليال قليلة.. عاد ليحيله بحكاياه وقصصه إلى قفص مقصب، أنتظر حلول الليل ونوم سكانه، لنختلي فيه معًا، حيث يخرج من جيبه سيجارة، نبدأ بعد إشعالها أحاديث لا تنتهي.

تحادثنا أيامًا طويلة في أشياء كثيرة.. لكن ما اقتربنا أبدًا من ذاك الحدث، الذي ساقه أو ساقني إلى حيث التقينا..

يومًا سألته عن كلماته، التي قالها في ليلة السجن الأولى، ابتسم وهو يخبرني أنها كلماتك التي كتبتها له في ورقة طويتها، وأرسلتها له إلى السجن، تعلنين فيها أنه سيبقى صديقك وأستاذك..

أذكر أني صحت كالأطفال أخبره أني أعرفك، وكيف كنتِ رفيقة شهيرة طوال فترة حملها.. أخبرته أني قرأت لك أكثر من رواية.. في رجاء سألته هل يمكن أن يجمعني بك بعد خروجنا من السجن.. أخبرته أن شهيرة سيسعدها كثيرًا أن تراك..

آه.. سيدتي، لا أنسى كيف ابتسم وهدان، وهو يعدني بدعوة على العشاء في نادي جاردن سيتي، حيث تذهبين ويلتقيك هو ومجموعة من الأصدقاء أسبوعيًّا.. قال وهدان:

- ستحبها يا رؤوف، وزوجتك ستحبها أكثر.. هناك أناس نحبهم من أجل ما يكتبونه، وهناك آخرون نحبهم ونحب ما يكتبونه؛ لأن حروفهم ليست إلا قطعًا صغيرة من قلوبهم وأرواحهم الطاهرة..

ابتسمت يومها سعيدًا، ثم أومأت برأسي قائلا:

- مثلك تمامًا أستاذ وهدان..

كيف مرت الأيام؟ وكيف خرج، وخرجت من السجن، والتقيناك أنا وشهيرة في المكان ذاته، الذي أخبرني عنه؟! لكن بعد أن غاب هو عنك وعني إلى الأبد..

القدر لا يعترف أبدًا بالخطط والمواعيد والأحلام!!

***

متى حدثني وهدان عن قضيته.. متى أخبرني عن زوجته ووحيدته..

قبل أسابيع قليلة من إطلاق سراحه.. أخبرني في تلك الليلة، التي انهرت فيها بين يديه، أبكي كالأطفال، بعد زيارة بهاء في صباحها ذاك..

جاء بهاء في صباح الجمعة الباكر، كعادته، يزورني.. ومنذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها وجهه، علمت أن هناك شيئًا يود إخباري به.. من خلف ثقوب الحديد الفولاذية، ابتسمت كأني ألعب مع عقلي لعبة.. نعم في عينيه كان هناك ألم من يخبئ شيئًا، يعلم أنه يجب أن يعلنه، وفي عيون رأسي أطل رهان عجيب، دخلته مع نفسي..

ماذا يريد بهاء أن يقول؟!

ملّ زيارتي.. يريد أن يعلن أنه تعب من هذا الطريق الطويل، الذي يقطعه صباح كل جمعة؛ ليقف أمامي ساعة يتحدث فيها عن الأمل، وعن بيت الجزيرة ونمو نباتاته وسقياه لها، انتظارًا لعودتي إليه.. هل يريد أن يسألني، ولو مرة واحدة، إن كنت حقًّا نادمًا على ما فعلت، أم أنه مازال يؤمن ببراءتي كما كان دومًا يؤكد لي؟ رهاني مع نفسي كان أن بهاء لن يقول ما يخفيه عني.. في عينيه، ورهاني عليها أني لن أسأله، أو أستجديه البوح بما يحاول إخفاءه..

وفي لحظة، سألني رأسي ماذا لو كان بهاء بحاجة إلى نقود؟ ماذا لو كان حقًّا بحاجة إلى علاج ما، أو ألم به أو أصابه أمر لا أعرفه؟!

فليذهب الرهان إلى الجحيم، وفي اللحظة التي رفعت عينيّ، أنظر إلى عينيه لأسأله ماذا يخفي عني، وجدته يضرب بكفه السمراء حاجز الفولاذ الذي يقف بيننا، وهو يقول كأنه يسقط:

- رؤوف.. رأيتها وأحببتها، كما لم أرد يومًا أن أفعل..

لم يمنحني وقتًا أفكر، ولم يمنحني وقتًا أسأل.. بدا بهاء، كأنه فقد السيطرة على حروفه، حيث مضى يكمل:

رأيتها منذ عشرة أيام.. رأيت شهيرة وأحببتها.. ظننت يومًا أني لن أحبها، وأنها عقاب السماء لك على ما فعلته بزهرة، لكن بعيني رأيتها.. رأيت دموع نقائها وشوقها إليك.. بعيني شهدت صمودها، وشموخ ضعفها، وقوة إيمانها بك..

من خلف عجزي وسجني، كنت أحاول أن أرتب الكلمات.. أن أضعها في تواريخ وأماكن وأسماء..

بهاء رأى زوجتي؟! أين؟! كيف؟ ومتى؟ عشرة أيام.. كان هنا منذ أسبوع لم يخبرني.. لماذا إذًا يفعل الآن؟!

لو لم يكن هذا السور الحديدي بيننا، لأمسكت بعنقه بين يدي.. لكن في ضعف السجين وعجز الرجل سألته:

- لماذا لم تخبرني صباح الجمعة الماضية؟!

كأنه ما فهم من السؤال إلا ما أراد به إكمال نزفه، فمضى يقول:

- كانت في بيت الجزيرة تتنسم بقايا رائحتك.. كانت تتحسس المقاعد التي جلست عليها.. رائعة زوجتك عندما تبكي.. ما أخفيت عنك الخبر إشفاقًا أو رحمة.. أخفيته عندًا ومكابرة..

لم أكن أريد الاعتراف أني أحببتها، لكن بالأمس زرتها ورأيته هو الآخر.. رأيت رجلًا له من الفضل عليّ وعلى آخرين ما يكفي لمحو ذنوب الأرض.. زرت شهيرة في بيت والدها.. مدحت عبد الرحمن، كان مدير مدرستي، ووالدي الروحي، ووالد كل من يعلم معنى كلمة خير ونقاء...

استمعت إلى القصة كاملة.. التقى شهيرة في بيت الجزيرة.. بكت تسأله عني.. سقطت دموعها شوقًا إلى رؤيتي، وحين دعته إلى بيتها، كان أبوها هو مدير المدرسة، التي عمل فيها بهاء زمنًا، قبل سقوطه تحت عجلات طارق..

حين مضى بهاء بعد انتهاء زيارته، وأصبحت وحيدًا.. ما أصبحت أرى أو أسمع سوى قصصه عن شهيرة، وعمي مدحت وأيضًا عن ضياء..

كيف نسيتهم؟! وهل حقًّا نسيتهم؟! كيف استحضرت قصة بهاء تلك صورة شهيرة وعطرها وشعرها الثائر، أمام قلبي وعيني وروحي..

أما زالت زهرة على اتصال به؟! أما زال حانقًا معها عليّ؟!

ضياء!! ولدي أصبح يخطو.. رآه بهاء وأنا كنت أستجدي وصفه واسمه من حروفه، ومن خلف سور حديدي، ذي ثقوب لا تسمح حتى بمرور عبيرهم أو رائحتهم..

أي جريمة صنعت بنفسي وبها، يوم أعلنت أني لا أريد زيارتها؟! أي حرمان أسود قيدت به روحي يوم صددت يد عمي، وهي تمتد بصورة ضياء؟! أي جنون؟ وأي عقل؟ وأين الحكمة؟ وما الصواب؟!

كان يومًا طويلًا أسود اللون والرائحة.. حين جاءني والدي وطارق في آخر اليوم للزيارة، تمنيت لو أطلب صورة لضياء.. تمنيت لو سألت أحدهم أن يخابر شهيرة إن كان هاتفه في جيبه لأحادثها وأسمع صوتها، وأسكب في أذنيها دمعًا ونحيبًا، لكني ما استطعت..

جبنت حتى عن السؤال، مضى الزوار كما أتوا، مضى اليوم كما جاء، وعدت إلى قفصي، كما لم أغادره ذاك الصباح..

عندما نام الجميع، وأشعل لي وهدان سيجارة المساء، وأخذت منها ذاك النفس العميق، بكيت كأني طفل صغير..

لم يربت وهدان على كتفي.. لم يسألني لِمَ بكائي.. كان يرقبني في حنان بالغ، حتى هدأ بكائي، ونظرت إليه في دهشة أقول:

- ألا تسألني ما بي؟!

رائع صديقك.. رائع عندما قال:

- هو بكاء نادم.. أو لوعة مشتاق!!

في السجون نطلق سراح الحقائق والأسرار..

حكيت له عن شهيرة.. لقائي بها، عن ذاك اليوم المطير الغائم، الذي حملها إليّ لتكشف قصة دواء الصرع.. عن دفتري الأسود.. عن قطرات الماء التي غسلت شعرها، وعن تلك المظلة التي أخرجتها لها، وكيف وقفت أرقبها من خلف نافذة مكتبي، وهي تفتحها، وكيف شعرت أنه معها فتحت كل شراييني، وسكبت فيها حبها ووجودها..

حكيت لصديقك عن حملها وحرماني منها.. حكيت له عن ليلتنا الأخيرة، وكيف تمنيت لو أضمها وأسكنها.. لكن أعجزني الخوف ومحكمة الصباح.. أخبرته عن ضياء الذي أشعر بالغضب منه؛ لأنه رفض أن يخرج قبل سجني ولو بليلة واحدة؛ لأحمله بين ذراعيّ وأشتم رائحته، وأضم أمه إلى صدري.. أخبرته أنني أشعر بالخجل لأني غاضب من وحيدي، كأني أشعر أنه ما سكن رحم شهيرة إلا لأمتنع عن جسدها، وأحرم من أنفاسها، وهي تتمزق وألملمها أنا بتمزق أنفاسي..

نظرت إليه، وقلت كأني أسأل نفسي:

- هل أنا معقد.. أناني؟! هل أنا حقًّا قاسي القلب إلى هذا الحد؟!

آه يا وهدان.. يا أجمل صداقات العمر وأقصرها عمرًا..

وضع كفه على كفي، كأنه يحتضر، وقال ما لم أتوقع يوما أن أعرفه أو أسمعه قال:

- أحببت أميمة ابنة خالتي منذ الطفولة.. ولدنا في نفس اليوم.. لم تنجب أمي سواي، ولم تنجب خالتي سواها.. كنا نقطن البيت نفسه، ووالدي ووالدها صديقا عمر.. ماتت أمي بعد أعوام، وأصبحت خالتي أمنا معًا.. بيتان ورجلان وطفلان وامرأة واحدة.. أنام في بيتها وترعى هي بيتنا.. كأن أمي أنجبت نصفًا وخالتي أنجبت النصف الآخر.. ما كان من الممكن أن نحيا نصفين، فقررنا أن نحيا معًا شخصًا واحدًا..

كنت أقتسم معها قطعة الحلوى تحت سرير أمي، حتى لا ترى أني دومًا أمنحها قطعة أكبر.. كنت أحمل لها كتبها وكراريسها كل ظهيرة، عند عودتها من المدرسة، بعد خروجي من مدرستي بأكثر من ساعة..

معًا كنا نعلم ماذا سنفعل في الغد، وكيف سنبدو، وأي البيتين نسكن، وكم من الأطفال سننجب.

كنا فقراء.. نسكن أحد أزقة عابدين، لكن منذ طفولتنا نصّبنا أطفال الحي قضاة وحكامًا.. إن نشبت معركة بين الرفاق، جاءوا إلينا.. أميمة تسمع، وأنا أصغي، ثم نحكم بينهم..

لم يعصِنا طفل، ورغم أحكامنا القاسية.. كانوا يمتثلون لما نراه ونحكم به.. كبرنا وكبر بداخلنا ذاك الشعور العميق بالمسئولية عن كل الأخطاء في الأرض والسماء، وعن قدرتنا في إصلاحها وتغييرها.

جميلة أميمة.. رقيقة لكنها صارمة قوية.. حين حصلت على الثانوية العامة، جلس والدها ووالدي يفكران إلى أي كلية يجب أن نذهب.. لم نأبه لحظة لقرارتهما أو خططهما.. في هدوء، ودون العودة إليهما، توجهنا أنا وهي وأوراقنا في أيدينا إلى كلية الإعلام قسم الصحافة.. الحق والعدل

رسالتنا والكلمة هي وسيلتنا..

اعترض والدي كثيرًا، وصاحت أمها كثيرًا.. لكن كانوا وكنا نعلم أن الكلمة دومًا لنا وحدنا..

في الجامعة تألقت أميمة.. شكلت فريقًا من الطلبة حولها؛ لدراسة أحوال طلبة كلية الإعلام..

أعدت تقارير مفصلة عنهم.. ظروفهم الاقتصادية.. مواهبهم، وكيف يمكن استغلالها.. وصلت إلى العميد، عقدت معه اتفاقات رائعة بتوفير وظائف صغيرة لهم في الإجازات الصيفية، كل حسب ما يتقنه ويجيده..

أنا كنت أعد الخطب النارية المشتعلة، التي ألقيها في جموع الطلبة لتغيير كل شيء، وبناء كل شيء من اللاشيء..

استمع يومًا أحد أساتذتي إلى خطبة كتبتها، واستدعاني إلى مكتبه أخبرني أنه يرى في كلماتي رائحة أديب.. ضحكت، وأنا أخبره أن الأدب خيال ورفاهية لا يتقنها ابن أزقة عابدين.. أخبرته أني صحافي كاتب، ولست أبدًا أديبًا..

كان رجلًا رائعًا.. في نهاية اللقاء، أخبرني أنه ينتظرني في الصباح التالي ليصطحبني إلى مكان ما.. كنت في العام الدراسي الثالث، قبل أن أخرج من مكتبه ابتسم قائلًا:

- لا تنس أن تحضرها معك.. أعلم أن فصلكما جنون..

لم نفكر أنا أو أميمة في أي شيء كان يريدنا أستاذنا، أو إلى أين يأخذنا.. وضعت كفها في كفي، ومضينا معه في الموعد، وما أفقنا إلا ونحن بصحبته ندخل إلى مكتب العظيم مصطفى أمين..

لا أنسى أبدًا كيف لمعت عينا طاهر بدمعة في تلك اللحظة، وهو يسألني:

- هل تعلم كيف كان ذاك العملاق يلتقي زواره؟!

لم ينتظر وهدان إجابتي.. كان في تلك الليلة يتحدث، وهو لا يراني كأنه مسحور بدموعي ونحيبي وقصة حبي، التي قصصتها عليه.. أكمل يخبرني كيف التقاه مصطفى أمين هو وأميمة، ليس أبدًا كطالبين على وشك التخرج.. بل كصديقين يعرفهما منذ أعوام..

أخبرني أن أستاذه قال له جملة لا ينساها.. نظر في عيني مصطفى أمين، صديقه الحميم، ووضع كفه على كتف وهدان قائلًا:

- أراه مثلك يا مصطفى وأراها هي أيضًا منك..

مضى وهدان يكمل قائلًا:

- شعرت عندما سمعت كلماته تلك أنه ألقى على كتفيّ مسئولية بلا حدود.. أمل لا يجب أن يُخذل وفرحة تبذل من أجلها الروح..

عملنا أنا وأميمة في تحقيقات صحفية عديدة.. تنكرنا ودخلنا مؤسسات حكومية كثيرة.. صورنا أوراقًا وكشفنا سرقات واختلاسات ورشاوى لا حصر لها، تعلمنا أن الحق له خطوط حمراء، يقف عندها، ولا يستطيع رغم قوته أن يتجاوزها..

كانت هناك تحقيقات ترفض وتبقى حبيسة الأدراج.. لكن مصطفى أمين كان يجري اتصالاته ليعيد الحق إلى أصحابه، وإن عجزنا عن القصاص ممن أهدره.

تخرجنا في كلية الإعلام، وتم تعييننا معًا في مؤسسة أخبار اليوم.. وفي مساء توقيعنا لعقد التعيين، سألتني خالتي: «ماذا ننوي؟!».. ابتسمت أميمة وأجابت في بساطة أننا في الصباح التالي، وقبل دخولنا إلى مكاتبنا، سنمر على أول مأذون نلقاه لنعقد قراننا.

هكذا.. دون سؤال أو خطبة أو مهر أو أي شيء..

خالتي ليلتها ما قالت سوى: «مبروك» ..

كان عبثًا أن يتحدث أحد علي هذه الأرض إلى أميمة، إن كانت بصحبتي أو كان الأمر يخص أحدًا منا.. أنا وهي لا نرى أو نسمع سوانا.. بعد أن تزوجنا يا رؤوف.. عاد كلٌّ إلى بيته، وبعد انتهاء الغداء انحنيت، أقبل يد والدي قائلًا:

- مررنا بالمأذون هذا الصباح، وعقدنا قراننا أنا وأميمة..

هو أيضًا ما قال سواها:

«مبروك».

بعد شهور، حزمت أميمة حقائبها، وجاءت للحياة معي في منزل والدي.. لم نفكر حتى في شراء غرفة جديدة أو ملابس أو حفل عرس.. حفل عرسنا كان ليلة مولدنا..

عندما علم مصطفى أمين بالقصة، ضحك ومنحنا إجازة، وحجز لنا - ومن ماله الخاص - أسبوعًا كاملًا في فندق فلسطين بالإسكندرية.. في القطار ضحكت أميمة، وهي تهمس في أذني قائلة:

- هل حقًّا اختلف علينا شيء يستدعي أن نأخذ له إجازة، أو نرتدي له ثيابًا، أو نقيم من أجله حفلًا؟!

أربعة وعشرون عامًا قبل زواجنا لم أقبلها.. أربعة وعشرون عامًا، لم أضمها إلى جسدي، حتى بعد أن انثنينا نوقع عقد زواجنا ذاك الصباح..

على شاطئ المنتزه، قبلت أميمة.. التصقت بجسدها، شممت رائحتها، وعلمت أن هناك حقًّا ما يستدعي أن نأخذ له إجازة، ونقيم له حفلًا، ونرتدي له ثيابًا خاصة..

أميمة ليست توأم روح.. ليست رفيقة طفولة، وتوأم أحلام، وحبًّا فحسب.. أميمة أنثى وأنا رجل..

الحب يكتمل بالجسد يا رؤوف.. ولكن ليس كل جسدين يلتقيان، يغزلان حبًّا ويثمران وهجًا ونقاء.. هناك أجساد لقاؤها يقتل بذرة الحب في مهدها!!

عدنا من رحلة الإسكندرية كما لم نذهب.. حين دخلنا مكتب مصطفى أمين، رأيت أميمة تضمه إلى صدرها للمرة الأولى، وهي تخبره أننا على يديه ولدنا مرتين.. مرة كصحفيين، ومرة كحبيبين وعاشقين..

أصبحنا من كبار الصحفيين في أعوام قليلة.. كم عامًا عشت مع أميمة؟! حين سأل وهدان ذاك السؤال، انتفض قلبي في ذهول.. أنا كآلاف غيري نعلم أن طاهر وهدان كان زوجًا للصحفية الشهيرة أميمة إمام، التي اشتهرت بعمل الخير، والتي كان لها باب في جريدة أخبار اليوم، عنوانه «باب طاهر» ..

كل مصر تعلم أنها كانت، من خلال عملها، تساعد الفقراء والطلبة، وتجد للمرضى أطباء وللفقراء منهم علاجًا بالمجان..

كلنا نعلم كيف بكاها المصريون، لكن ربما لا أنت ولا أحد سواي قدر له أن يعرف ما عرفته أنا عنها من زوجها..

كم عامًا عاشه وهدان مع أميمة.. لا أعلم، نظرت إلى وهدان كأني أعتذر عن إجابة السؤال.. لكنه كما أخبرتك ما كان ينتظر مني إجابة..

كان كالمسحور تمامًا.. مضى يكمل قائلًا:

تألقت أميمة.. تلاشت روحها في السطور والحروف، وتقديم العون لكل من طرق باب مكتبها.. في العام الخامس لزواجنا، قرأت في عيني أشرف مندور، رئيس القسم الذي تعمل فيه أميمة.. قرأت حبًّا كبيرا.. الحب لا يخفى أبدًا؛ خاصة على من كان يسبح في دمه..

أشرف مندور كان أكبر منها ومني بأكثر من عشرة أعوام..

يومًا في فراشنا قبلتها قائلًا:

- ألا تعلم أميمة إمام أن الأستاذ مندور هائم بها؟!

ضحكت أميمة، وهي تخبرني أنها تحبه.. تحب صدقه ووقوفه إلى جوارها ومساندتها حتى الجنون في مساعدة القراء وحل مشكلاتهم.. قالت وهي على صدري إنها هي الأخرى تشعر أنه يحمل لها شيئًا أكبر من حب الرئيس لمرؤوسه، الذي تفوق عليه، وسألتني:

- هل هذه خطيئة أو ذنب نحاسبه عليه؟!

الحب ليس ذنبا.. ذنوبنا هي تلك التي تقترفها أيدينا.. الحب ليس قرارًا نتخذه أو فعلة نأتيها.. الحب يأتينا، فكيف نحاسبه على شيء لم يقرره، وقرر أن يكتفي بحمله في صدره، وإن خانته عيناه أحيانًا؟!

كان واضحًا لكل من يعمل في المؤسسة أنه يرعاها.. يحنو عليها وعليّ معًا..

كان مندور وحيدًا بلا زوجة.. كانت له ابنة وحيدة تقيم في أستراليا.. يوم تعرض لحادث سيارة، كانت أميمة وحدها من تذهب إليه كل يوم بعد انتهاء عملها..

أنا وهي كنا نراه وفاءً، لكن رآه البعض عشقًا وخيانة..

بدأت الأقاويل تصل إلى مسامعنا، وبكت يومًا وهي تسألني هل تتخلى عنه من أجلي؟!

من كفها أمسكت بها، وذهبنا إليه معًا، تركتها في غرفته بالمستشفى.. وأنا أؤكد لها أنها كما تحبه أحبه أنا، وأننا سنتناوب معًا على رعايته حتى يتماثل للشفاء..

هناك نساء فوق الشك، وهناك رجال أكبر منه..

يوم غادر مندور المستشفى بعد ثلاثة شهور، اتخذ قراره بالسفر إلى ابنته.. برر هذا بالعجز الذي أصابه في جزئه الأيمن.. برره أيضا بالوحدة والشوق إلى ابنته، والخوف من الموت بعيدًا عنها..

أنا وأميمة معًا بررناه هربًا من حب كبير، يعلم أنه بدأ يثير حولها وحولي الأقاويل..

في المطار، ضمها إلى صدره، وقبَّل يديها أمامي، وقال:

- طاهر.. هذه المرأة تعويذة عمرك وأيامك، وأنت رجل تنحني له الرؤوس.. كونا دومًا بخير..

عدنا معًا وحدنا.. عدنا وأنا أعلم ألا شيء في قلب حبيبتي سوى العرفان والوفاء، ولا شيء في قلبي سوى إيماني بها وسعادتي بنصف به أكتمل، ودونه أبدو كمن يخطو على ساق مبتورة..

هذا هو الحب الذي تموت أجيال، وقد لا يولد في أقدار أحد أبنائها.. هذا هو الحب..

إلى متى بقينا وبقي؟! إلى متى صمدنا وصمد هو في أيامنا؟! لا أذكر.. يوم مات مصطفى أمين، بكيناه كثيرًا، وفي المساء وحين غفت أميمة على صدري، قلت في هدوء:

- أميمة يوم ننجب صبيًا، سأسميه مصطفى..

خمسة أعوام قبل وفاة مصطفى أمين.. لم ننتبه فيها أنا وأميمة إلى أننا لم ننجب.

رحل والدي ورحلت أمها، وما بقي من يهمه أمرنا، وما بقي شيء نراه سوى نجاحنا واستيقاظنا بحثًا عن الحق وقضاياه، وغفوتنا على ذراعي الحب والعشق، وأمل إنجاب مصطفى جديد..

في الذكرى الثانية لرحيل مصطفى أمين، وبعد أن أصبحت أنا وهي من أكبر أسماء عالم أخبار اليوم، سألتني أميمة وهي تمشط ذراعيَّ بشفتيها:

- طاهر.. متى ننجب مصطفى؟!

سبعة أعوام تقريبًا يا صديقي قضيناها معًا، دون أن نسأل لِمَ تأخر الإنجاب؟!

سبعة أعوام، أصبح لي فيها مكتبي الكبير، وطاقم سكرتارية، وأصبح لأميمة مثلهما.. أصبحنا نخيف وزراء، ونتلقى تهديدات، وأيضًا عروضًا بالرشاوى لا حصر لها..

لكن لا شيء نسمعه، ولا شيء يخيفنا..

أصبح عندها ثياب وسيارة، ورغم هذا بقينا في بيت عابدين، وبقي بيتنا ومكتبنا بلا أبواب..

في العام السابع، وفي تلك الليلة، انتصب السؤال، وأصبح عملاقًا في رأس أميمة حتى الجنون..

كأنها في ليلة واحدة علمت أنها جاوزت الثلاثين من عمرها، وأن كل من كانوا معنا في دفعتنا أصبح لهم أبناء وبنات، ونحن بعد لم ننجب.

أصبح حديثنا اليومي هو متى نذهب إلى الطبيب؟ ومن تراه فينا المسئول؟ وإن كانت هي أو كنت أنا، ما العمل؟!

أهملت أميمة عملها وأصبحت قليلًا ما تذهب، ثم أعلنت أنها تستقيل، هل تعلم كم رسالة كانت تصل باسمها كل أسبوع؟ هل تعلم كم بكيت، وأنا أرجوها أن تعود إلى عملها؟! أخبرتها أن الله ما خلقها إلا لمساعدة كل من تساعدهم من خلف مكتبها.. لكن أميمة حسمت القضية، وهي تقول:

- إن الله خلق كل أنثى لتكون أمًّا.. وهي ما عادت قادرة على أن تسمع أو ترى شكوى أحد، وقلبها لا يكف عن البكاء رغبة في حمل وليد

صغير على ذراعيها..

أصبحت توأمي في البيت، وأصبح السؤال هو متى نذهب إلى الطبيب.. كنت خائفًا حتى الموت من اصطحابها إلى الطبيب..

ماذا يا أميمة لو كنت أنا عقيمًا لا أنجب؟! هل تتركينني؟! وماذا لو كنت أنت حبيبتي عاقرًا هل بإمكانك أن تتصوريني مجرد تصور بين ذراعي أخرى؟!

أميمة لا أريد أطفالًا.. طريق البحث عنهم قد يكون ثمنه غاليًا، وليس هناك أغلى من وجودنا معًا..

عنيدة كانت.. صارمة رغم رقتها وجمالها وطيبتها..

بعد ستة شهور من استقالتها، حادثتني في مكتبي، وأخبرتني أن أحضر لاصطحابها إلى مكان ما في خلال ساعة..

هبطت أميمة إلى السيارة عند عودتي، وطلبت مني القيادة باتجاه منطقة المهندسين..

أوقفت السيارة حيث أشارت عليَّ ومدت كفها نحوي، بعد خروجنا منها وهي تقول:

«في كل الأحوال أحبك»..

حينما يكون كفي في كفها ما كنت أبدًا أسأل إلى أين..

حين خرجنا من مصعد ذاك المبنى ودخولنا أحد أبواب الشقق.. تركت كفها، وأنا أقرأ اللافتة المعلقة على الباب «دكتور محمد أبو الغار» أخصائي النساء والولادة والعقم.. أفقت على صوتها تخاطب ممرضة العيادة المزدحمة، قائلة:

- أخبريه أميمة إمام وطاهر وهدان..

نارًا اشتعلت في صدري، وأنا أرقب وجوه النساء.. بعضهن حوامل وبعضهن ارتسم الموت على وجوههن.. أمسكت ورقة وقلمًا وكتبت عليها:

أميمة.. في كل ثانية يولد أكثر من طفل، ولكن قد تمر الحياة بأكملها دون أن يولد حب كحبنا.. لا تعرضيه للموت.. أرجوك..

طويت الورقة، وأنا أسمع الممرضة تخبرها أنها في طريقها إلى أبو الغار لتعلمه بوصولنا..

نهضت إلى حيث كانت تجلس، وضعت الورقة في يدها.. كانت عيناها ملقاتين على الورقة الصغيرة، وكنت أرى أصابعها ترتجف، وهي ممسكة بها..

خرجت الممرضة تقول:

- تفضلي.. هو في انتظاركما..

نهضت أميمة وحين رفعت عينيها نحوي، رأيت دموعًا غزيرة تسقط منها.. أسلمتها كفي ووجدتها تأخذني إلى خارج العيادة قائلة:

- رغم قلمك.. رغم قوتك إلا أنك طفل كبير!!

ظننتها حقًّا هدأت.. ظننتها ستنسى.. لكنها أبدًا ما فعلت..

سافرت بها في نزهة إلى أوروبا.. أنفقت كل ما جمعناه.. لم نكن أثرياء، فالثراء قليلًا ما يجتمع مع الكرامة والنزاهة في الأوطان العربية..

قضينا أيامًا أجمل من أسبوع الإسكندرية.. لكنها كانت تذبل في صمت..

رفع وهدان عينيه نحوي فجأة، وقد قارب ثلث الليل الأخير في زنزانتنا على الانقضاء، يسألني:

- هل تعلم كيف ماتت أميمة إمام؟!

في صوت مرتعش باكٍ أجبته:

- أعرف أنه حادث سيارة..

أكمل في هدوء كأنه يختم احتضاره، وخروج روحه من صدره قائلًا:

- كنت في اجتماع هام.. في لحظة شعرت أن كفًّا غليظة تلتف حول عنقي.. نظرت في ساعتي.. وجدتها تمام الرابعة عصرًا، عدت أنظر حولي، وأنا أختنق.. وبعد أن ارتشفت قطرات من الماء، نهضت كالمعتوه أعتذر عن البقاء..

شيء خفي لا أعرفه كان يحركني.. شيء كالذعر.. كالألم أقوى مني وأكبر.. حاولت أن أحادثها لأطمئن عليها.. لكني ما استطعت.. خشيت أن أفعل فأعلم ما لا أود علمه..

تركت سيارتي مفتوحة، ركضت على سلالم بيتنا العتيق.. فتحت الباب وعندما حاولت أن أناديها خانني صوتي.. شيء ما بداخلي يا رؤوف كان يؤكد لي أني أبدًا لن أسمع صوتها.. ركضت إلى المطبخ.. إلى الحمام.. إلى كل الغرف القليلة، لم أجدها.. حاولت أن أبتسم.. على الأقل ليست كما صورها لي ذاك المخيف.. خرجت تبتاع شيئًا أو تزور صديقًا، أو ربما أصابها الشعور ذاته فقصدت مكتبي بحثًا عني..

على منضدة الطعام، وجدت مظروفًا أبيض عليه خطها المنمنم.. كانت عليه كلمة واحدة «سامحني»..

غاب عني وجه وهدان خلف غمامة، خشيت أن تكون بدايات غيبوبة جديدة.. لكني ما استطعت أبدًا أن أثنيه عن الحديث.. والله، كان كالمسحور حين أكمل يقول:

- فتحت المظروف.. كانت حروفها مكتوبة بقلم أسود وانقبض قلبي.. أميمة لم تكتب يومًا بقلم أسود ولا حتى مرة واحدة.. قرأت السطور.. مرة واحدة يا رؤوف، ولم أنس حرفًا واحدًا.. قالت:

كنت واثقة أنه إن كان العجز منك فهو مني، وإن كان مني فهو منك، وأني سأبقى وتبقى تحبني.. من منا يا طاهر كره كفه إن ضربها الشلل؟!

أخبرني الطبيب منذ أيام أني عقيم، ولن أنجب..

تغير كل شيء.. في لحظة، علمت أننا اثنان، وما كنا أبدًا واحدًا.. لكن كيف أطلب منك الزواج؟! وكيف أرضى لأنثى سواي أن تحمل في أحشائها منك طفلًا؟! وكيف.. كيف أتظاهر يا رفيق الدرب أني لم أعرف الحقيقة؟!

طاهر لن أعود!!

إن عدت وضممتني سأظنها الشفقة، وإن ضممتك أنا سأظنه الاستجداء..

رغم هذا، لا أعلم أين أذهب أو حتى كيف دونك وحدي أخطو..

إن يومًا أحببتني أنجب فتاة صغيرة وأسمها أميمة.. ودعنا نرى هل تحبك مثلي؟!

لم تمر ساعة حتى علمت أنها ماتت يا رؤوف.. قتلتها سيارة.. لم أقل حرفًا، فأنا كنت أعلم أن أميمة ماتت قبلها.. ماتت يوم ظنت أنها علمت أننا لسنا واحدًا بل اثنين.. ماتت وهي في الثالثة والثلاثين تقريبًا.. سألت الطبيب عن موعد وفاتها، فقال: ماتت في الرابعة.

نظرت إليه في إشفاق كبير.. هل قتلت تلك المرأة نفسها؟! هل رمت بجسدها أمام ذاك السائق؛ هربًا من حب وضعف وعجز، ما عادت قادرة على احتماله ؟!

كم هو ذكي وهدان.. كأنه رأى في عيني السؤال، أو ربما كان السؤال في قلبه ووجدانه.. رأيته يرفع كفه العريضة في وجهي قائلًا:

- ما كانت لتفعلها.. ما كانت أبدًا لتعذبني، حتى إن كان عذابي وحده ثمن تحررها من الألم والعذاب..

كانت خيوط الفجر بدأت تنسج حبائلها على نافذة السجن، حين لم أستطع أن أمنع نفسي عن سؤال آخر، فقلت:

- هل نسيتها ثم تزوجت أم تزوجت ونسيتها؟!

ضحكة مريرة خرجت من بين شفتيه، وهو يقول:

- تزوجت أمل لأنساها.. تزوجت أمل بعد عامين تقريبًا؛ لأحقق لأميمة آخر رغباتها التي كتبتها بقلمها الأسود..

بعد شهور أصبحت حاملًا.. كم ليلة بكيت، وصليت أن تكون فتاة، وعندما علمنا أنها فتاة كم ليال أكثر بكيت، وأنا أرجوها ألا تغضب إن أسميتها أميمة..

وُلدت أميمة.. حملتها على كفي.. وأنا أسأل: هل يستحق هذا الكائن الصغير ذاك الثمن الكبير؟!

كنت أحملها بين ذراعي وأستغفر ربي كثيرًا، وأنا أشعر أن حبي لمن رحلت أكبر ألف ألف مرة من حبي لقطعة اللحم الباكية تلك.. حب النساء يولد كبيرًا.. لكن حبي للأميمتين كبر مع أيام عمري.. عندما أصبح عمر ابنتي عامًا علمت أنها مشروع حب كبير..

يا رؤوف أنت لن تحب ولدك؛ لأنه ولد منك أو لأنه يحمل اسمك.. ستحبه عندما تخرج من هنا، وتراه يكبر أمام عينيك يومًا وراء يوم..

أمسك وهدان بكفي يومها، وقال:

- فيم بكاؤك ونحيبك؟! أنت دواؤك لقاؤهما.. ستخرج من هنا، وتلتقي امرأة تحبها، وولدًا ستحبه..

هل تعلم لماذا قصصت عليك كل هذا؟!

لتصبح قويًا.. لتخرج من هنا وتمنحهما حبًا وحنانًا عن كل ليلة مرت دونك إلى جوارهما..

رؤوف يقتلني ابتعادي عن ابنتي، لكن أنا ممزق بين شوقي إلى امرأتين.. إحداهما في الأرض والأخرى في السماء.. اختياري للقاء إحداهما يعني حرماني من لقاء الأخرى..

فيم بكاؤك؟! اترك البكاء لمن هم به، وهو بهم أحق وأولى..

***

أشعر أن هناك أشياء تأتي كالطوفان إن فُتح لها الباب، استحال أن نوقفه أو نغلقه..

قصص طاهر كانت طوفانًا، أكاد أجزم أنه هو ذاته فقد السيطرة عليه تمامًا، كما أشعر أني عاجز عن التوقف عن الكتابة الآن..

أهكذا حقًّا يكتب الأدباء قصصهم ورواياتهم؟! هل تتدفق الحروف من بين أصابعك، حتى تصلي إلى المرحلة التي تعجزين أنت فيها عن التوقف إلا عند كلمة النهاية؟!

مضت أيام كنا نتعجل فيها انقضاء اليوم والمهام؛ لنلقي بأجسادنا على أرضية السجن الرطبة؛ ليحدثني عن أميمة الصغيرة.. عن كلماتها عن حروفها المتقطعة.. كانت أميمة ذاك الوقت في العاشرة من العمر تقريبًا، وأذكر أني يومًا سألته عن زوجته.. وكيف لا يتحدث عنها كثيرًا، فأجابني قائلًا:

- صغيرة أمل.. صغيرة جدًّا.. صغيرة في كل شيء، وعلى كل شيء.. لكن كان يجب أن أراها كبيرة وفوق نساء الأرض لأنها جعلتني أبًا.. امرأة تجعلك أبًا هي امرأة تدين لها طول العمر بإنجاز العمر..

يومها أمسك طاهر بكفي قائلًا:

- أحيانًا أشعر أني لا أريد الموت خوفًا على صغيرتي.. أمل أم صغيرة.. صغيرة جدًّا يا رؤوف.. لكني أشعر به قريبًا مني.. في كل مرة أسقط في غيبوبتي، وأفيق منها أعلم أني عدت فقط لأراها مرة أخرى.. لن يحرمني الله أبدًا وداع الأميمتين..

هل تصدقين سيدتي أنه عاد يشد على كفي في قوة ومن خلف دمعة رقصت في عينيه قال ما لا أنساه.. قال كلمات هي اليوم تجعلني أتشبث بالحياة رغم زهدي فيها.. قال صديقك:

- والله ما تمنيت أن أوصي أحدًا بابنتي سوى امرأة واحدة.. لكني أعلم أنه يستحيل عليها أن ترعاها ويستحيل عليَّ أن أكبلها بالرجاء.. اليوم أسألك يا رؤوف.. إن حانت لحظة لقاء أميمتي الكبرى، هل ترعى أنت الصغرى؟!

بلا وعي قلت له تلك اللحظة:

- حفظك الله وأعادك لها سالمًا.. ما قيمة رجال الأرض إن فقدت ابنتك رجلًا مثلك؟!

لم يقل كلمة أخرى، ولم أستطع أن أخبره أني على استعداد؛ لأن أبيع عمري وأرعى ابنته.. خشيت أن أقولها فتكون كقبول رحيله.. بعد لحظات قلت ضاحكًا:

- من يعلم.. قد تتزوج ضياء.. هو أصغر منها.. لكن أنا وأنت علّمنا الحب ألا شيء يقف في طريقه..

أخذني طاهر إلى موضوعات أخرى كثيرة، كأنه خجل من كلماته تلك، وحاولت أن أعود به لأجد طريقة ما، أخبره بها أني لا أهرب من وصيته لكن ما وجدت سوى سؤال معتوه، فقلت:

أي امرأة على الأرض ،توصيها بفتاة صغيرة مازال لها أم؟!

ابتسم طاهر في مرارة، وقال ما جعلني أنسى هدفي من السؤال، أو ربما قال ما كان وحده سبب كل ما أكتبه إليك الآن..

هل تعلمين من هي المرأة، التي كان يتمنى لو يوصيها بابنته، إن رحل عن الدنيا؟!

أنتِ!!!

***

بكلماته أصبحت أتخيل ضياء وأحلم بلقائه، وبقصص بهاء عن شهيرة.. ازددت فيها وفي والدها حبًّا واحترامًا..

يوم أخبرني طاهر وهدان أن مدته أوشكت على الانتهاء، وأن أسبوعًا واحدًا فقط يفصل بينه وبين سماء الحرية.. لا أكتمك الحق حزنت حتى اللوعة في تلك الليلة التي أخبرني فيها.. وقلت في دهشة:

- هل تكرهني لأني أكره عودتك إلى الحرية، طمعًا في صحبتك وبقائك معي؟!

ضحك طاهر، وهو يقول:

- وهل أكرهك لأنك تحبني؟! هذا هو الحب.. أحيانًا يصبح ضربًا من الأنانية والجنون!!

كنت أشعر أن هناك قصصًا كثيرة، مازال علينا أن نحكيها..

شعرت أن هناك دهاليز مغلقة مظلمة، مازال على طاهر أن يخطو فيها بكلماته المباركة؛ لينيرها لي أو يساعدني على الحياة فيها..

تمنيت لو أني حكيت له قصة جدي وزهرة.. تمنيت لو أخبرته عن كل ذنوبي وآلامي.. ولو حكى لي كل ما لا أعرفه عنه.. لكن حتى الحرية تأتينا أحيانًا في غير موعدها..

تلك الليلة شعرت أني قد أصبحت على ثقة بأني صديقه، وأنه عندي أكثر قربًا من الروح.. سألت طاهر ليلتها عن مقتل علي مختار، سألته دون جرح أو خوف.. كنت أعلم أنه إن شاء قص القصة، وإن لم يشأ.. فلن ينتقص هذا من حبي وإيماني به قدر درهم واحد..

تلوّن وجهه بالألم، كعادته عندما يستعيد آلامه الكبيرة، أخبرني أن مختار مازال يطارده.. بل هو يشعر أنه سيطارده أكثر بعد خروجه من السجن.. سيقف بينه وبين أميمته الصغرى.. أوليس لهذا المختار أبناء يشتاقونه ووحده من حرمهم إياه؟!

انقبض قلبي وأنا أسمع تلك الكلمات.. أليس هذا أيضًا لا معنى له سوى أن وهدان من دم مختار ليس بريئًا؟! في لهفة الحب، ذكّرته بكلماته يومًا عن براءته من قتل مختار أو حتى تمنّيه لها..

يوم يتحدث طاهر وهدان عن شيء كبير محفور في قلبه، يبدو دومًا كالمسحور.. كمن حقًّا يفقد السيطرة على لسانه، وقدرته على انتقاء الحروف أو إيقافها..

نعم.. أذكر كلماته كلمةً كلمةً، وأصدق تمامًا ما قاله لي عن رسالة زوجته الراحلة، التي ما قرأها سوى مرة واحدة.. ورغم هذا مازال يذكر حروفها ونقاطها، كأنها كتبت منذ لحظات، ولم تمر عليها أعوام طويلة.

هناك كلمات لا تقرؤها العين، لكن تصورها؛ لتبقى صورتها في مقدمة الذكريات، وعلى رأس الذاكرة حاضرة لا تغيب كأسمائنا وتواريخ ميلادنا..

بدأ المسحور رحلته تلك الليلة.. انطلق يتحدث عن علي مختار، فقال:

- كان شعرها أسود مجموعًا فوق رأسها.. كان وجهها حزينًا خائفًا وفي عينيها كانت تقف دمعة كصخرة عتيدة؛ لا تقوى هي نفسها على تحريكها..

يوم طلبت رؤيتي.. ظننتها كعشرات ممن يحضرون إلى مكتبي، طلبًا لمساعدة أو رغبة في وساطة لدى وزير أو مسئول.. طلبت من هدى أن تأخذ شكواها.. فأنا بالطبع لا أستطيع لقاء كل من بإمكان سكرتيرتي أن تكتب طلبه، وتحيله إلى من يساعد..

أخبرتك أن باب مكتبي لم يغلق يومًا إلا في الاجتماعات.. هو مفتوح دومًا لأرقب بعيني ما يدور في مكتب السكرتارية..

رأيتها تتقدم في هدوء نحو بابي.. كانت هدى تتبعها، محاولة إثناءها عن دخول مكتبي.. لكنها في لحظة كانت تقف أمامي.. شيء ما في عينيها السوداوين الواسعتين، وشيء آخر في ملابس حدادها السوداء جعلني أشير بكفي إلى هدى، أطلب منها مغادرة المكتب..

تأملت وجهها لحظات.. انتظرت فيها سقوط دمعتها الصخرية، لكنني مع الأيام علمت أنها المرأة الوحيدة، التي تحيا بغلاف دمعة رقيقة على عينيها.. دمعة لم تسقط إلا يوم صدور الحكم بسجني..

لحظات يا رؤوف، لم تقل كلمة، ولم أدعها فيها حتى إلى الجلوس..

لحظات قالت بعدها:

- لا أخشى أن تتخلى عني إلا خوفًا من انهيارك بداخلي..

أطرقت برأسها لحظات، ثم قالت:

- كان يحبك ويحلم بلقائك.. أنا حُسن المنشاوي..

عندما جلست أمامي تعبث في أصابعها البيضاء الرقيقة، كأنها تبحث فيها عن نقطة البداية.. نهضت عن مكتبي، وجلست على المقعد المقابل لها، طلبت منها أن تهدأ، فأنا قررت أن أسمعها حتى تكتفي هي من الحديث..

رائعة حُسن هل تعرف ما كانت أولى كلماتها؟! كانت تعرف أنها جميلة لا يقاومها رجل، فقالت في هدوء:

- أستاذ طاهر.. ليس عندي ما أمنحه لرجل، وإن منحني ما أريد.. أنا لا أريد سوى العدل والحماية.. القانون لم يمنحني الحماية، ولا استطاع تحقيق العدل.. هل تحميني؟!

ضحكت يومها، وأنا أخبرها أني أضعف منها، لكن سنحاول معًا أن نفعل شيئًا..

حُسن لها صوت الربابة الحزين، التي تتغلغل إلى روحك.. وإن كنت في أسعد حالاتك..

بصوتها الخفيض الرقيق، قالت:

- كنت زوجة لرجل رائع أو هكذا كنت أراه لأني أحبه حتى الجنون.. زوجي كان يملك مصنعًا للحلوى في مدينة السادات.. كنا أغنياء، وبسعادتنا وحبنا كنا أكثر ثراءً من كل الأثرياء..

أنجبنا توءمًا من الذكور، ومع مولدهما بدأ المصنع يثمر نجاحًا أكبر، ويدر نقودًا أكثر.. أعوام كبر فيها الطفلان، حتى أصبحا الآن في الثانية عشرة من العمر.. لا خلافات.. لا عداء مع جار أو منافس.. لا شيء سوى الرضا والسعادة..

منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، سقط زوجي مريضًا بالداء، الذي تعرفه وأعرفه ولا يعرف هو عزيزًا أو غاليًا.. أصابه السرطان.. أنفقنا كثيرًا مما ندخر.. قصدنا فرنسا وأمريكا للعلاج.

في نهاية ذاك العام، أدركنا أن كل مليم ندفعه، فإنما نحن نلقي به في رياح الوهم والسراب.. «نديم» ميت لا محالة.. توقف عن العلاج الإشعاعي والكيماوي المقرر له.. توقف حتى عن إجراء الفحوصات الروتينية..

وضع بضع مئات الألوف الباقية في شهادات استثمار، وودائع بنكية باسمي أنا.. كان يمسك بالورقة والقلم ساعات طويلة، وأنا أمامه ليضع لي ميزانية كل عام حتى دخول الطفلين إلى الجامعة.. كان يفكر في أشياء لا أفكر أنا فيها.. حتى ثمن الأحذية وحقائب المدارس كان يكتبها.. يومًا وفي حساباته، كتب أجرة مصفف الشعر الذي اعتدت الذهاب إليه.. وقال وهو يخفي دمعته إنه سيضاعف الثمن ثلاثة أضعاف، فلابد أن هذا ما سيصبح عليه الحال بعد أعوام ثلاثة من رحيله..

هل تعلم يا أستاذ طاهر، كيف يكون شعور رجل يحتضر، وهو يفكر في أجرة تصفيف شعر زوجته؟! يومها بكيت وأنا أصيح هل يظنني يومًا أصفف شعري، إن لم تكن يده موجودة ليضعها عليه..

منذ رحل نديم وشعري كما تراه الآن.. لن أطلق سراحه، لن يمس كتفيَّ إلا يوم أخلع ملابس حدادي، وأدخل بصحبة أبنائي لافتتاح مصنع النديم للحلوى من جديد.. عهد أخذته على قبره، يوم أغلقوه دوني عليه.. أريد الحفاظ على عهدي..

ساعدني لأحافظ على عهدي.. مات نديم.. مات وهو يوصيني ألا أتصرف أبدًا في المصنع الكبير، الذي يقف على مساحة خمسة آلاف متر في مدينة السادات، إلى جوار مصانع علي مختار لتجميع السيارات..

مات وهو يستحلفني بالحب الكبير أن أعيد افتتاح المصنع، يوم تخرج الأولاد في الجامعة..

رحل وكل شيء تم إعداده.. حتى أرصدة صغيرة خاصة، تم حجبها كودائع صغيرة فقط لشراء سيارة لكل طفل منهما، عند تخرجه في الجامعة..

أعد كل شيء كما أخبرتك بالحروف والأرقام، ولم يتبق إلا شيء واحد.. ما استطاع إعداده.. شيء لم يكن في توقعاته، أو ربما ما كان في

توقعاتي أنا..

مواجهة النفوس الضعيفة..

أصبحت حُسن المنشاوي مطمعًا حتى لأصغر عمال المصنع.. صديقه المهندس يعرض إعادة تشغيل المصنع نظير الزواج بي، والعامل يعرضه لقاء حمايتي..

سقطت أقنعة كثيرة، ورأيت وجوهًا أنقذها نديم يومًا، وهي تحاول إسقاطي.. أنا وأبنائي في الضياع والوحل..

شهور قليلة أعلنت بعدها أني لن ألتقي أحدًا أيًّا كان من كل من عملوا في المصنع.. المصنع مغلق، ونديم منح كل من يستحق المساعدة مبلغًا قبل وفاته.. وأنا وأبنائي لن نستقبل مخلوقًا، وإن علمنا أنه يموت، وأن لقاءنا وحده سيعيد فيه الروح..

منذ شهور قرأت وعرفت، كما عرف مئات الألوف، أن علي مختار أبرم عقدًا مع شركة صينية لإنتاج سيارة جديدة من إنتاجها الشهير في أرض مصر وتصديرها للدول العربية؛ نظرًا لسعر العمالة المصرية وتوفرها وتمركز مصر في منطقة الشرق الأوسط..

أنا أعرف علي مختار منذ أعوام.. كان صديقًا لنديم، بل هو من قام معه بشراء أرض المصنع الملاصقة لأرض مصانع مختار..

الشركة الصينية طلبت توفير مساحة عشرين ألف متر مربع تقريبًا لإتمام الصفقة.. يملكها علي مختار.. ولكن على جزءين منفصلين، يقع بينهما مصنع النديم للحلوى..

عرض شراء المصنع، وبأكثر مما يستحق.. لكني رفضت.. عرض تأجيرها لمدة عشرة أعوام.. ولكن أيضًا رفضت..

مصنع النديم ليس للبيع.. مصنع النديم لن تطأه قدم إلا أقدام ابنيه، عندما يشتد عودهما ويبلغان سن الرشد..

علي مختار أصابه الجنون.. لا يريد أبدًا أن تضيع هذه الصفقة من يده.. وأنا لا أملك أن أبيع الحلم، وأخون العهد من أجل أطماع نقدية، لا تعنيني في شيء..

أستاذ طاهر.. بالأمس تلقيت تهديدًا هاتفيًّا بحرق المصنع إن لم أبعه.. أنا ما عدت امرأة ولا حبيبة ولا حتى أمًّا.. أنا وكيل لطفلين حمّلني أبوهما أمانة لا أملك أن أخونها.. أعترف أني خائفة من علي مختار..

إن أحرق المصنع.. إن أحرق الآلات.. لن أستطيع أبدًا أن أفعل شيئًا.. ما تركه نديم بالكاد يكفيني ويكفي أبنائي ومصاريفهم، حتى التخرج، ومن جداول تركها لي وأتبع أنا بنودها في حرص بالغ ورضا.. أريده فقط أن يبتعد عني حتى أتم مهمتي..

هل تساعدني؟! وأعيدها عليك.. لا أملك شيئًا أمنحك إياه.. لا أملك مالًا ولا جسدًا ولا قلبًا.. أنا على كل هؤلاء رقيب؛ لهم مالك يستردهم، وإليه يومًا يعودون..

آه يا رؤوف كم أحببتها.. كم تمنيت في تلك اللحظة لو ألتقط كفها الحائرة وأقبلها.. الرجال يعشقون النساء لجمالهن.. لرقتهن.. أو ربما لإثارتهن.. ولكن رجال قليلون يعشقون النساء لنقائهن ووفائهن..

الأمر بسيط جدًّا.. رجل يعرض الشراء، ومالك يرفض البيع..

منحتني كفها تصافحني، وهي في طريقها خارج مكتبي، وقبل أن تغيب عن عيني قالت من خلف غلاف الدموع المنتصب:

- كان نديم يحبك.. ليس وحده.. آلاف من المصريين يحبونك، ولكن ربما كان نديم وحده من أطلق اسمك على أحد أبنائه..

شقت كلماتها صدري.. تذكرت أميمة.. تذكرت كم تمنينا لو ننجب ولدًا نسميه مصطفى.. لعظم إيماننا بأستاذنا مصطفى أمين..

أطرقت يومها برأسي طويلًا، وأنا أسأل: هل أصبح هناك من يراني، كما كنت أنا وأميمة نرى ذاك العملاق الرائع؟!

كأنني ما قضيت أعوامًا أكتب عن قضايا الحق والمظلومين.. كأني ما قضيت أعوامًا أنا وأميمة في تحقيقات، نكشف بها النقاب عن الاختلاس والتزوير وسحق أعناق الضعفاء والمقهورين..

نسيت كل شيء وما بقي أمامي إلا وجه حُسن الأبيض الجميل، وشعرها الأسود المجموع فوق رأسها، منتظرًا إطلاق سراحه يوم الوفاء بالعهد..

ما الذي كان يملكه مصطفى أمين؟! وما الذي كانت تملكه أميمة؟! وما الذي أملكه أنا؟!

قلم يكتب، وإن كتب لا يكتب إلا ما يؤمن به حقًّا..

أجريت اتصالات كثيرة ذاك اليوم.. تأكدت بعدها من صحة كل ما قالته حُسن.. وفي نهاية اليوم طلبت تغيير مقال اليوم التالي وكتبت مقالًا عنوانه «عهد حُسن» ..

خرج المقال لتبدأ قصة أخرى ما كانت في الحسبان..

علي مختار أصابه الجنون.. يبدو أن الرجل كان يريد الأنثى وخذلته، وظن أن هذا هو وحده سر رفضها لإتمام الصفقة..

عاد يعرض عليها أن يمنحها جزءًا مساويًا لأرضها من أرضه، ولكن بعد أن يضم أرضها إلى أرضه لإكمال المساحة المطلوبة..

عاد يعرض عليها الزواج، حتى بلغ به الأمر أن هددها بالقتل هي وأبناءها.. كانت دومًا تتابعني بأخبار محاولاته؛ ليزداد قلمي اشتعالًا وحنقًا عليه..

أصبحت حُسن وقصتها موضوعًا رئيسيًّا لمقالاتي..

توجهت بطلب حمايتها إلى وزير الداخلية، وأرسلوا في استدعاء مختار، أخذوا عليه تعهدًا كتابيًّا بعدم التعرض لها..

بدأ يحادثني أنا..

دعاني إلى فنجان قهوة في مكتبه.. رجاني أن أقبل.. أخبرني أن حُسن أغلقت في وجهه كل الطرق، وما بقي أمامه سوى أن يعلن الحقيقة التي كان يتحاشى الإعلان عنها..

أخبرني يا رؤوف، وهو يكاد يبكي، أن ابنيْ نديم في طريقهما للهلاك، وأنه يرجوني فقط أن أحتسي كوبًا من القهوة وأسمعه..

ذهبت إلى مصنعه.. جلست إليه واحتسيت القهوة.. أخبرني أن نديم كان أعز أصدقائه.. أخبرني أنه التقط حُسن من أحد أزقة «السيدة زينب» أخبرني أنها في فترة مرضه الأخير، أرغمته على استخراج توكيل رسمي عام لها، قامت باستخدامه في تحويل كل أرصدة النديم إلى حسابات باسمها، وأنها قامت ببيع المصنع لنفسها..

قال، وهو يكاد يبكي أني أدافع عن أفعى قتلت زوجها، وفي طريقها لقتل طفليه بثوب أسود..

نحن بشر.. نصدق، أو على الأقل يعبث برؤوسنا الشك إن امتلأت آذاننا بالحروف السوداء والكلمات المشبوهة.. سألته وكيف ينقذ أبناء النديم ببيعته تلك.. فقال إنه سيستغل عملية البيع وإجراءات التسجيل وأوراق الملكية والتوكيل، الذي باعت به حُسن المصنع لنفسها؛ ليقدم فيها بلاغًا بأن التوكيل تم استخراجه ونديم يحتضر، وسيطالب المحكمة بمطابقة تاريخ التوكيل بتاريخ مرضه، وكيف تم بيع المصنع وأرضه بعد وفاة نديم بأيام قليلة..

اقترب مني مختار يومها قائلًا إنه يريد أن ينقذ الطفلين القاصرين من دهاء امرأة، ما كانت تملك حتى ثمن ثوب من ثيابها السوداء!!

لا أعلم إن كنت صدقته أم لا .. لكن علمتني الأيام أن كل شيء ممكن، وأن كل شيء يجوز، وإن رأيناه مستحيلًا..

هل خدعتني حُسن؟! هل حقًّا استغلت مرض زوجها؟ وهل حقًّا اشترت المصنع بعد وفاته؟! وهل أدافع عن شيطان يرتدي ثوب ملك أسود؟!

أيام قضيتها أفكر وأنا حائر..

إن كان ما قاله مختار صحيحًا، فربما خافت المرأة من أن تترك النقود والمصنع باسم زوجها حتى لا تنساق إلى دهاليز القُصّر، واجراءات إرثهم والمجلس الحسبي وقوانينه العقيمة..

لكنها لم تخبرني، وأنا أيضًا قبل أن أبدأ في كتابة سلسلة المقالات تلك، تقصيت الحقائق، ولكن أي حقائق؟!

أنا سألت وعلمت أن مختار يسعى فعلًا لشراء المصنع.. وهي لم تنكر هذا وصحة هذا لا تتعارض أبدًا مع ما يقوله مختار.. هي ترفض البيع وبالتحديد لهذا الرجل؛ لأنها تعلم أنه صديق زوجها، ويعلم تاريخ مرضه ووفاته.

لم لا يتقدم مختار ببلاغ ضدها؟ لكن لا صفة له أو لي أو لأي إنسان؛ لنرغم حُسن على استخراج صكوك البيع والتوكيلات.. طفلاها بلا أقرباء ووحدهما من يملكان الحق في مقاضاتها، عند بلوغهما السن القانونية، لكن إن كانت أيضًا كما يصورها، فمن على الأرض يضمن أن تحتفظ لهما بمالهما حتى بلوغهما السن القانونية؟!

ليال طويلة، كنت أغفو فيها على فراش مشتعل من الحيرة والخوف.. وفي ليلة اقترب فجرها، خرجت من فراشي.. ذهبت إلى بيتها، طرقت الباب في جنون.. والله يا رؤوف كنت أشعر أني إن علمت أنها حقًّا تسرق مال أطفالها لقمت بقتلها..

أي شيء يبقى إن كانت هذه هي الأم؟!

كان صوتها يرتعد، وهي تسأل مِنْ خلف الباب مَنْ هو الطارق..

لحظات صمت قصيرة، مرت بعد أن أعلنت عن اسمي.. سمعت بعدها مزلاج الباب يفتح في هدوء..

حين أصبحت أمامها، ورأيت حاجز دمعها يهتز للمرة الأولى من خوفها شعرت بالخجل والندم..

كانت حُسن ترتدي قميص نوم قطنيًّا بسيطًا أسود اللون.. إن كانت ترتدي الأسود في خروجها وظهورها أمام الناس، فمن أجل من تنام به في فراشها؟!

أفسحت لي الطريق في تردد واضح، وألقيت بجسدي على أول مقعد رأيته، وبقيت هي إلى جوار الباب المفتوح واقفة..

لم أعتذر.. لم أبرر.. رغم جمالها وحسنها إلا أني لم أرها يومًا أنثى..

حُسن في عيني إلهة جمال ووفاء، لا أريدها أن تتحطم..

ألقيت برأسي بين كفي، كأني أنا من يكاد يبكي، وجاء يطلب منها إنقاذه!!

أخبرتها أني لا أملك ضدها شيئًا.. عاهدتها أن ما تقوله يبقى سرًّا لا يعرفه أحد.. أنا فقط أريد الحقيقة.. لا من أجل أحد سوى طفلين لا خطيئة لهما ولا ذنب.. أخبرتها بكل ما قاله علي مختار.. مازال بإمكانها أن تحتفظ بأوراقها ومستنداتها إن شاءت، ولكن فلتحررني من سياط لوعتي وشبح الخديعة..

منذ رحيل أميمة، وإصابتي بداء السكري.. أصبحت انفعالاتي شبه مجنونة.. أشتعل في لحظة وأسقط في لحظة.. شعرت أني في بدايات غيبوبة غضب وانفعال..

لم أسمع صوتها.. رأيتها فقط تغيب عني لحظات، عادت بعدها، وهي تحمل كوبًا من الماء، وضعته أمامي، وهي ترجوني أن أهدأ..

كانت في يدها الأخرى تحمل ملفًّا مازلت أذكر لونه..

كان أسود اللون هو الآخر.

مدت كفها البيضاء الجميلة قائلة:

- لا حق لك في قراءة شيء، ولكن كما تمنيت يومًا ألا تخذلني في صورتك عندي، أمنحك أوراقي لأني لا أريد أن أخذلك في صورتي عندك..

هل تفهم رؤوف معنى كلماتها؟! هل تعلم من هو الإنسان الذي يربأ بسواه ألا يكون كما يراه؟!

هي حُسن.. لم تخدعني..

رددت يدها بالأوراق، ونهضت قائلًا:

- سامحيني.. أسأت الظن فيك، وما كان يجب أن أفعل..

أمسكت بذراعي قائلة:

- أستاذ طاهر.. زوجي توفي منذ عام تقريبًا.. أرجوك اقرأ الأوراق.. التوكيل الذي منحني إياه تحرر منذ سبعة أعوام.. هناك أوراق أخرى، كتبها لي رحمه الله، مقرًّا فيها بأنه يدين لي بثمن مجوهراتي، التي ورثتها عن أمي، وأيضًا كل ما ورثته عن والدي حين إعادة تجديد المصنع وتجهيزه..

كنت في طريقي إلى خارج بيتها، وأنا أتمتم بكلمات اعتذار كثيرة.. لكنها أسرعت في جنون إلى باب بيتها، تغلقه وتضع المفتاح في ثنايا جسدها..

فتحت عيني أنظر إليها في دهشة؛ لأجد إلهة الجمال تلك تصرخ قائلة:

- لن تتفضل أبدًا عليّ بإيمانك بي.. لو كنت مؤمنًا ما حضرت، وأبحت لنفسك اقتحام بيت، تغفو فيه امرأة وطفلان قرب الفجر.. لن تخرج من

هنا حتى تقرأ كل شيء..

كان في عينيها جنون جريح، أصابته الطعنة في مقتل..

أرخيت رأسي، وأمسكت بملفها الأسود في هدوء..

والله يا رؤوف ما قرأت كلمة.. لكنها عادت بعد لحظات، وهي تحمل في يديها ملفات أخرى عديدة، وصرخت:

- ميزانية هذا العام التي كتبها نديم بيديه..

في لحظة وجدتها تردد اسمه مرات عديدة، ثم قالت فيما يشبه الصياح:

- ألا تظنني أريد البيع؟! ألا تظنني أريد الملايين التي عرضها المختار؟! ألا أحلم بمدارس أفضل للطفلين، وبيتٍ أفضل لي؟! ألا تراني أرقب أيامي وشبابي، تتسرب من بين أصابعي، وأنا أتبع ميزانية زوجي، وقلبي يرجف خشية أن أعجز عن الالتزام بالمصروفات والمدفوعات في أي من بنودها؟!

هل تظن أني لا أتمنى أن أركض خارج البيت، وأتحرر من كل هذه القيود.. هل تعلم ما الذي يمنعني؟!

اقتربت مني حُسن قائلة:

- يمنعني ما علمتنا كلمات كاتب مثلك أن نحترمه، وإن كان على جثث متحللة.. يمنعني ما أحضرني إليك لأني ظننت أنك كما تُعلمه تعلمته.. يمنعني الحب والعهد..

تمنيت لو أضمها.. تمنيت لو أعتذر لها.. تمنيت أشياء كثيرة.. لكنني ما صنعت شيئًا سوى أني، وبعد أن هدأت، خرجت من باب بيتها أقول:

- يحيا طاهر مثلك ويموت دفاعًا عن الوفاء والعهد..

هناك رجال لا تقبل الهزيمة أبدًا.. جُنَّ علي مختار..

ازدادت حربه شراسة.. استغل ماله وثراءه في استقطاب بعض الأقلام في بعض الجرائد؛ للتلميح عن نوايا خفية لحملتي ضده، ووقوفي إلى جوارها.. حتى أمل زوجتي بدأت تتذمر، وتعلن تقززها من القصة..

بدأت حُسن تضعف.. خابرتني يومًا تقول فيه إن ابنيها بإمكانهما تكوين ثروات إن هي أحسنت تربيتهما وتعليمهما.. لكن أبدًا لن يستطيعا غسل الوحل عن سمعة أمهما، التي يحاول مختار تلطيخها به..

هناك نساء تُعشق لطهارتها، وهناك رجال يُقتلون لطهارتهم..

أصبحت القصة في لحظة، وكأنها حرب سافرة بين ثلاثة أشخاص أحدهم بالكلمة يحارب، والآخر بالسيف يضرب وفي الظهر يطعن، والثالث لا يملك سوى الصمت والضعف..

لا أحد يا رؤوف فوق الشكوك والشائعات.. أصبحت أرى نظرات وأسئلة وتوسلات ممن يحبون طاهر وهدان بأن ينأى بنفسه عن بئر الشبهات.. ونظرات وأسئلة أخرى، كأنها سياط تمزق تاريخي، وتحاول النيل من شرف امرأة، كل جريمتها أنها حاولت أن تحافظ على عهدها..

حتى كان ذاك اليوم، الذي دخل فيه علي مختار مكتبي، دون موعد.. رأيت أحد أتباعه من باب غرفتي المفتوح يجلس في مكتب السكرتارية، وهو يحمل حقيبة سوداء..

كنت أعرف أن بها نقودًا، كنت أثق أنها نفحة أو رشوة سيقدمها مختار إن شعر بالأمان.. في لحظة نسيت رحيل أميمة وداء السكري، وظننتني أستطيع التحكم في مشاعري وتصرفاتي.. قررت أن أجاريه؛ حتى أثبت أنه يحاول رشوتي..

بدأ يتحدث في هدوء.. بدأ يخبرني أنه يحبني ويحترمني، ويكره أن يرى تاريخي يتحطم تحت أقدام قضية خاسرة لامرأة ماكرة، لا تستحق أبدًا كل هذا الصمود والعناد..

تطور الحديث، وأنا أحاول أن أبدي له شيئًا من الاقتناع والرضوخ؛ عله يعرض رشوته..

لكن كعادتي سقطت في انفعالاتي، حين بدأ يتطاول على حُسن بالسباب والتلميحات الدنيئة..

كالأحمق صحت أخبره أني أفهمه، وأعلم أن هذا الحقير الرابض خلف مكتبي جاء يحمل رشوة..

نهضت في جنون عن مكاني لأنقض على تابعه، وأفتح حقيبته، وأثبت له أنها محملة بالنقود..
كان مختار أسرع مني.. ركض إلى باب المكتب، وبإشارة من يده ركض تابعه بالحقيبة، وأغلق هو باب المكتب مستندًا إليه ليصيح كلانا في جنون..
أنا أنعته بالدناءة، وهو ينعتني بالجنون والتواطؤ معها..
في لحظة أصبح كل ما في رأسينا هو كيف يؤلم أحدنا الآخر إلى أقصى درجة ممكنة.. لكن حتى إيلام الآخرين يا رؤوف مهارة، لا نملكها نحن..
فقد علي مختار الأمل على ما أظن في استمالتي، فقرر أن يضع خنجرًا في صدري، قبل أن يمضي، ودون أي توقع وجدته يصيح قائلا:
- الأيام تدور يا طاهر.. سقطت أميمة إمام يومًا تحت أقدام أشرف مندور.. وها أنت اليوم تسقط تحت أقدام حُسن المنشاوي.. كل نسائك غوانٍ.. حتى أمل، وأنت تعلم!!
ابتسمت في بلاهة، ربما كان على حق.. قد تكون أمل غانية، وربما كانت حُسن أيضًا في مرحلة ما من حياتها.. لكن «أميمة»!! شعرت في لحظة أن من يقف أمامي ليس رجلًا.. ليس حتى بشرًا.. البشر لا ينبشون في قبور الموتى.. صفعته.. هذا كل ما أذكره..
لكمة أو لكمتين سددهما إلى وجهي.. هذا أيضًا أذكره.. لكن حقًّا لا أذكر سوى أني بكل جنون لوعتي على أميمة.. بكل ذكريات طفولتنا وقسوة رحيلها وضياع حلمنا، كنت أضربه وأسمع صوت بكائي، ولا أعلم ما الذي يبكيني.. كانت هدى سكرتيرتي يومها في إجازة.. وربما كان غيابها بإيعاز من مختار أو رشوة منه..
لم يسمع صراخه أو بكائي أحد..
صدقني لا أعلم كيف وصلت به إلى مكتبي مرة أخرى.. لكن ما أفقت إلا وأنا أحمل مصباح المكتب، وأسقط به على وجهه، وأنا أصيح: «إلا أميمة»..
بقية القصة لا تحتاج أبدًا لشرح..
شفع لي في الحكم أنه هو من جاء إلى مكتبي.. أخبرت المحامي بكل ما حدث عدا «أميمة»..
أبدًا ما قلت اسمها..
عندما أذكر ما قاله عنها، أتمنى لو عاد وأقتله من جديد.. لكنه يطاردني يا رؤوف.. يطاردني..
المحكمة أصدرت حكمها «ضرب أفضى إلى الموت» ..
ثلاثة أعوام من السجن وألم مدى الحياة..
أعلم أنه مازال خارج هذه القضبان أناس بحاجة إليّ.. ومازال هناك أناس تؤمن بي، لكن أنا متعب..
أتمنى لو ألتقي أميمتي... وحدها تعرفني.. وحدها من بيدها براءتي من جنون انفعالاتي ونوبات غيبوبتي..
لكن مازالت أميمة صغيرة بالخارج تناديني.. يشق ضعفها وقلة حيلتها صدري..
علي مختار لن يتركني.. يعلم أني ما قصدت قتله، وأنه هو من أشعل غضبي، الذي ما عدت أملك التحكم فيه.. لكنَّ هناك بشرًا وإن ماتوا تبقى لهم على الأرض أرواح سوداء شريرة، لا تهدأ إلا بعد أن تقتص من هؤلاء، الذين حرروا الأرض من شرورهم..
لست بريئًا ولست قاتلًا يا رؤوف.. لكني كنت حقًّا قتيلًا..

***

ما علمت كم كانت الأقدار رحيمة بي، يوم حرمتني وداع شهيرة، إلا يوم وقفت أودع وهدان، وهو في طريقه إلى خارج السجن..

في هدوء، رفع رأسه ينظر إلى صديقه المأمور؛ حيث طلب منه أن يلتقيني، وسأله إن كان بإمكانه زيارتي كل صباح..

ضحك المأمور، وهو يخبره ان بإمكانه رؤيتي في مكتبه مرة كل أسبوع أو أسبوعين؛ لأنه لقاء سيتم بصفة غير رسمية، ثم عاد يحدق في وجهي قائلًا:

- شهور قليلة وتغادرنا دكتور رؤوف، وأعلم أننا لن نلتقي ما بقي من العمر..

لا أحد يعلم من يلقى ومن يفارق.. أتمنى لو أن حدسه صدق، وأتمنى لو لم ألتقه بعد خروجي من السجن، لكن هي أمنيات..

استدرت أنظر في وجه طاهر، كأني أنقش ملامحه في ذاكرتي وروحي.. نظرة طويلة، تبادلنا فيها رسائل، لو أفنيت عمري في كتابتها، ما وصلته أو وصلتني كلماتها بذاك الوضوح..

انتفض قلبي، وأنا أراه يكاد يبكي.. ضمني إلى صدره في حنان قائلًا:

- أعدك يا صديقي.. أننا إن التقينا خارج هذا المكان، لن نفترق أبدًا..

«إن» أداة شرطية لا يتحقق جوابها إلا بتحقق فعلها حقًّا!!

هل كان يعنيها، أم أنها بقاعدتها النحوية أرادت أن تعلن عن شيء لا نعرفه وما تنبهنا له أيضا؟! لا أعلم!!

غادر وهدان، وكأنه مع عبوره بوابة السجن الكبيرة، أفسح طريقًا لأحداث لا نهاية لها في درب حياتي..

في زيارة الأسبوع التالي جاءني بهاء، وهو يحمل في يديه جريدة، أخبرني أنه سيتركها لي لأستلمها.. لكنه أرادني أن أراها في يده..

صاح وهو يقول إنه ما توقف عن البكاء، منذ قراءة المقال الأول الذي كتبه وهدان بعد خروجه من السجن، عندما سألته عن عنوانه أجابني «البريء»..

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وأنا أسأل هل حقًّا، وأخيرًا، عفا وهدان عن نفسه وأعلن عليها، وعلى الناس براءته...

قال بهاء:

- المقال عنك والبريء الذي تحدث عنه وأبكاني، هو رؤوف عبد الجواد.. «أنت»!!

لا أظن أنكِ لا تذكرين ذاك المقال أو لم تقرئيه..

حين استلمت الجريدة، وقرأتها للمرة الألف، وأنا على حائط السجن الرطب أستند.. تحسست منامة وهدان بكفي..

كل كلمة.. كل حرف كتبه وهدان كانت له رائحة حب وصدق وإيمان عميق ببراءتي.. لكن شيئًا آخر أبكاني.. جملة واحدة قصت جذور اليأس من صدري.. جملة قال فيها وهدان:

رغم لهفتي إلى لقاء أميمتي الصغيرة، كان ألم وداعه أكبر من كل أحلام لقائها.. إلا أني وعلى بوابة السجن الخارجية، ومع أول نسائم حرية دخلت صدري، وجدت من يُحييني، وعلى السير إلى ابنتي، وبعيدًا عن رفيق زنزانتي يعينني..

وجدت في انتظاري الأستاذ أشرف مندور .. من قارة أخرى جاء.. من قارة أخرى حضر، كأنه الدرس الكبير الذي ينتظرني على بوابة السجن..

«الوفاء حقًّا مازال يحيا» على الأرض تمامًا، كما علمني رؤوف عبد الجواد أن الظلم في أبشع صوره مازال أيضا معنا يحيا، وأن خلف قضبان السجون مازال هناك أبرياء وأنقياء، يدفعون ثمن ذنوب، لا يد لهم فيها ولا حيلة!!

***

كم رأيت والدي بعدها.. ربما مرتين أو ثلاثًا على الأكثر.. وفي كل مرة، كان جُلّ حديثنا عن مقالة وهدان في براءتي.. طلب مني والدي أن يذهب لشكره وزيارته.. لكني أخبرته أن وهدان يكتب ليتحرر من إحساس يسكنه أو يحرره.. هو أبدًا لا يفعل بحثًا عمن يشكره. أخبرته أن ما بقي لي هو شهور، ونذهب معًا إلى لقائه، وأنه كثيرًا سيراه، فلقد وعدني ألا نفترق..

أذكر أن والدي في مكتب المأمور، يومها، ربت على كتفي قائلًا:

- يوم عودتك يا رؤوف، سأذهب إليه معك، حاملًا له أكبر هدية، إن لم تكن لشكره، فهي لسعادتي بلقاء رجل، تمنينا جميعًا لو نعرفه ونلتقيه..

كانت تلك المرة الأخيرة التي يزورني فيها والدي، وكانت أيضًا المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوته، كما عرفته منذ طفولتي..

مرت أسابيع قليلة، لم يزرني فيها سوى عمي مدحت..

عندما سألته عن والدي وأخي، أخبرني أنهما في رحلة عمل، وسيعودان قريبًا..

لم أصدق عمي مدحت.. ليس لذكاء في رأسي ولا لإحساس دق صدري.. ولكن كيف أصدق أن يسافر الاثنان معًا، ولأسبوعين بعيدًا عن المصنع..

في زيارة بهاء الثالثة لي بعد انقطاعهما، سألته وأخبرني الحقيقة، التي حاول عمي الهرب منها..

سقط والدي.. سقط توفيق عبد الجواد في مصنعه، مصابًا بجلطة في المخ واختفى طارق من خارطة العائلة..

كان بهاء يحاول أن يكون حديثه عن طارق متزنا هادئًا، لا انفعال فيه أو تأثر بتاريخهما معًا.. لكني علمت أن طارق انكشف أمره، وأن دخولي السجن كان هو من يقف خلفه..

أخبرني بهاء أن شهيرة وحدها ترعى والدي، وأنه علم منها كيف قام طارق باستيراد تلك الشحنة الملعونة، بعد أن عرض عليّ عينات أخرى مختلفة تمامًا عن تلك التي استوردها.. لم يستطع أبدًا أن يتمالك نفسه، ويسيطر على لسانه طويلًا، فصاح كأنه يتمزق قائلًا:

- أخوك هو من ألقاك في السجن.. طارق يا رؤوف.. شهيرة الآن تدور في جنون بين والدك والمصنع.. منحها والدك توكيلًا لإدارة المصنع.. المسكينة هي وزياد ووالدها يحاولون السيطرة على الأمور في المصنع والبيت..

من خلف قضبان الزيارة، نظرت إلى بهاء في سكون..

كان طارق يبكي في محاكمتي.. كان يتبعثر يوم ضمني في أول زيارة.. ما كان ذاك إذًا حب وحنان الشقيق، بل كان ندم وخجل الجاني..

ابتسامة صغيرة مريرة، طافت على وجهي، قلت بعدها:

- بهاء.. أخبر شهيرة أن والدي أهم من المصنع، وكل مال الدنيا.. يكفيه خيبته فيمن منحهما العمر.. أحدهما أحمق والآخر ساذج!!

ليالٍ طويلة مرت، وأنا غارق في صمتي وذهولي..

ليالٍ طويلة في زنزانتي، أستعيد جنون طارق، وهو يبحث معي عمن يقف خلف الجريمة..

كان يبحث كأنه لا يعلم، وكان يتألم كأنه يعلم..

ماذا يريد طارق من استيراد مواد خام ملوثة فاسدة؟!

أرصدتنا بالملايين.. ماذا يريد؟!

لكن ماذا أرادت جدتي بالخيانة، وهي زوجة لأعظم رجل على أرض الشرقية؟! وماذا أردت أنا من زهرة، يوم قتلتها لجريمة ما ارتكبتها، ولا تعرف عنها شيئًا؟!

ماذا كان يريد علي مختار من قطعة أرض صغيرة لأرملة، لا تريد سوى تسليمها لطفلين هما أصحاب القرار فيها؟!

ماذا أراد من صفقة الصين، وهو يملك ملايين، يدرها عليه مصنعه القائم بالفعل؟!

ماذا يريد البشر من أطماعهم وأكاذيبهم وخياناتهم؟!

يريدون رصيدًا هائلًا للضحايا ولقصص الخيانة والألم والحزن.. ماذا تريد مني الأقدار؟!

سلبتني أمي وحبيبتي وكرامتي وحريتي.. حرمتني زوجتي وابني، والآن أطاحت بأبي، وأقصت أخي بعيدًا عنه وعني..

أي خطأ أعاقب عليه؟ وأي درس يتم تلقينه لي، وبهذه القسوة؟!

زارني وهدان كما وعد.. زارني وضمني في غرفة صديقه المأمور.. وجدني كسيرًا، ولدهشتي كان هو أيضًا كسيرًا..

أخبرته بما حدث في اختصار.. سألته عن سر انكساره الواضح، رغم عودته إلى أميمته وأمها..

يومها لم أفهم تلك النظرة التي رمى بها إلى مقعد المأمور الخاوي، والتي تلتها ابتسامة مريرة صغيرة، قال بعدها:

- الطعنات يا صديقي تأتينا من كل مكان.. يريدنا الله أنقى وأقوى يا صديقي.. اصمد يا رؤوف من أجل زوجةٍ، كأنها ألف رجل، تقف خلفك.. من أجل طفل صغير، يجب أن تعلمه كيف يكون رجلًا في زمن مات فيه الرجال..

اصمد يا صديقي.. أنا مازلت أتعلم كيف يكون الصمود من أجل أميمة.. عدني أن نصمد معًا.. وأعدك أني في زيارتي القادمة، سأخبرك بتفاصيل حالة والدك الصحية.

نعم.. زاره وهدان، وزارني ولا أنسى كلماته عن شهيرة، يوم قال:

- رأيتها يا رؤوف وأحببتها.. زوجتك من فصيلة أميمة وحُسن.. جميلة قوية وطاهرة.. غارقة في الحزن لكنها قوية.. صدقني..

نكس رأسه يومها، ثم سألني سؤالًا ليتني ما عرفت معناه.. قال وهدان يومها:

- إن أخذت منك الدنيا بيتا وسيارة وبعض قروش قليلة، ثم منحتك قصرًا ويختًا ورصيدًا لا تعرف عدد أصفاره.. ألا تصفح؟!

ابتسمت، وقبل أن أجيب، نهض وهدان عن مقعده، وهو يقول:

- قصرك ويختك ورصيدك هو امرأة، حين رأيتها شممت رائحة حب ووفاء وطهر، بيدي أغلقت عليها قبر أميمة!!

***

كل القصص الكبيرة سواء..

في البداية نبتعد عن الحديث عنها، وإن فعلنا ننتقي الحروف ونختصرها، ثم تطول العبارات، ويستفيض الشرح بعد مرور الأيام والأحداث عليها..

أصبح عمي مدحت يتحدث عن المصنع، وعن والدي وحالته، وعن اختفاء طارق ودناءته، دون ذاك التحسس الكبير..

أخبرته أني في طريقي إليهم، وأني سأحمل عنه وعن شهيرة والدي والمصنع..

عمي مدحت أجاب يومها أن سقوطنا بأحمال نحب حملها، هو متعة.. لكن ما يخشاه هو أنها أمانة، يخشى أن يسيئوا حفظها جهلًا لا تقصيرًا..

أيام السجن الأخيرة كانت طويلة، فانتظار ساعة هو عمر يضاف إلى عمر ضاع في الوهم والظلم..

وحده بهاء من خابرته يوم الإفراج عني.. وحده بضعفه وعجزه، كان معي بعد أن قام بتأجير سيارة أخذناها معًا إلى مديريات الأمن، لننهي إجراءات الإفراج..

قبل أن أغادر السجن قبلني طلبة، ووعدته بمساعدته قدر استطاعتي عند خروجه.. مأمور السجن صافحني في احترام، وأخرج هاتفه من جيبه ليطلب رقم وهدان الذي منحه لي، وجاءني صوته يصيح:

- أنا في فرنسا.. والله لو كنت أعلم يوم خروجك، لكنت في انتظارك.. سأعود بعد يومين، لن أفارقك أبدًا يا صديقي..

تمنيت لو ألقاه.. كم تمنيت حقًّا لو كان وهدان معي، وأنا في طريقي إلى بيت، أشعر أني نسيت ملامحه، وإلى أب اختلفت ملامحه، وأخ يجب أن أعتاد غيابه.. إلى طفل يحمل اسمي ولا أعرفه، وزوجة وحبيبة لا أعلم ولا أدري ما صنع بها وبي طول الغياب والحرمان..

بهاء معي.. لكنه هو الآخر من زمنهم جاء..

كنت أتمنى لو كان وهدان يقف خارج باب السجن، كما هو مندور يوم خروجه.. لكن يومين على لقائه ليسا أبدًا بالكثير..

قبل أن أغلق هاتف المأمور، قلت لوهدان آخر كلماتي:

- سنلتقي يا صديقي ولن نفترق أبدًا!!

***

بعد انتهاء إجراءات الإفراج الروتينية، طلبت من بهاء أن يحادث شهيرة، ويطلب منها لقاءه في البيت.. ما أردته أن يخبرها بأمر خروجي، رغم أنها كانت تتوقعه بين ليلة وأخرى..

خفت عليها سيدي من ذاك المزيج، المشتعل في صدري من لقائها..

هل تغيرت.. زهدتني.. كرهتني.. اشتاقتني؟!

كان بهاء كعادته إلى جواري في السيارة، يتحدث دون انقطاع عن سعادته الصادقة، التي كنت أشعر بها.. عن انتظاره لتلك الأيام، التي أزوره فيها ومعي شهيرة..

كلما قال اسمها، انتفض قلبي كأني إلى لقاء امرأة غريبة أذهب!!

هبط بهاء على مفترق الطرق، وأكمل السائق طريقه بي إلى المنصورية، وحين دخلنا من البوابة الكبيرة.. نظرت حولي إلى حدائقنا، كأنني أختبر ذاكرتي.. على اليمين أشجار الخوخ واللوز.. بعد دقائق قليلة أحواض الزهر وأعشاش العصافير..

دون وعي مني صرخت في السائق، أطلب منه أن يبطئ سرعته إلى أقصى درجة..

في بيتنا أصبح هناك طفل..

ربما كان يركض أو يلهو.. ما عاد من الممكن أن تعب السيارات طريقها في قصر المنصورية، كما كانت يومًا تفعل..

أصبح فيها رجل صغير، هو مني وإن كنت لا أعرفه.. لكن قلبي يحبه دون أن أدري..

مازال مفتاح البيت في جيبي..

كم هو رائع أن يكون لك بيت، وعندك مفتاحه..

أشياء صغيرة لا يعرف حلاوتها إلا من عاش خلف القضبان محرومًا منها..

حين أصبحت أقف في قلب بهو بيتنا الكبير، رأيت رجلًا غريبًا سألني في ذهول من أريد.. حين أخبرته أني أريد شهيرة، رأيته يخطو نحو غرفة والدي، وعدت أنظر حولي.. شعرت أني أتنفس هواء مختلفًا.. هواءً مختلطًا برائحة مقعد أبي، وابتسامات طارق، وآثار ضيوفنا، وذكرى عطر شهيرة..

شهيرة؟!

رأيتها بعد لحظات، تقف أمامي على بعد خطوات كثيرة، تفتح عينيها وتغلقهما كمن أصابته غشاوة، يحاول التخلص منها ليبصر من جديد.. كانت تنظر كأنها تتحقق من شخصيتي، أو ربما تحاول أن تتذكرني..

تغيرت شهيرة؟! أبدًا!!

رغم الحزن الواضح على وجهها.. رغم شعرها المجموع فوق رأسها.. إلا أنها جميلة رائعة كما كانت..

أحمق أنا إن ظننت أني نسيتها..

والله بإمكاني أن أخبر العالم كم شعرة تغفو على رأسها.. أنا أذكر كل تفاصيلها وثنايا جسدها، وعذوبة آهاتها ورائحة أنفاسها، وهي بين ذراعيّ..

كيف ظننت أني نسيت؟ وكيف في لحظة أشعر كأني ما خرجت ولا غبت عن ذراعيها يومًا؟

كانت تنظر نحوي، كأنها ترجوني أن أتقدم نحوها، وكنت أخشى أن أرفع ساقًا فتخذلني الأخرى..

متعب يا شهيرة.. متعب أنا وخائف.. متعب من فراقك.. خائف أن أخذلك، ويأتيك عناقي على غير ما انتظرته، وحلمت به..

سقط هاتف كانت تحمله في يدها من بين أصابعها، ورأيت جسدها وجسدي ينتفضان.. كأن ما سقط ليس هاتفًا صغيرًا.. كأنه صخرة فراق وبركان دمع وشوق تفجر، فأحدث دويًا هائلًا انتفضنا له.. سمعتني أهمس، كأني بها أستغيث:

- شهيرة..

رأيتها تغمض عينيها في صمت، ورأيت دموعًا هادئة، تنزلق خارجها، وعدت أقول:

- شهيرة..

أحيانًا يصبح اسم من نحب هو أغلى وأجمل كلمة حب، نستطيع نطقها، بعد أن ذبحت أشواقنا معجم كلماتنا بأكمله..

علمت أنها لن تتقدم.. أدركت أن الطليقة أشد من السجين ضعفًا وحزنًا.. خطوت نحوها، كأني أخطو نحو امرأة من زجاج، على وشك أن يتكسر.. ضممتها.. شعرت بها تتساقط على صدري قطعًا صغيرة، تمنيت لو تمتصها عروقي وتحتويها خلايا جلدي..

نعم هناك عمر نحياه في لحظة، وهناك لحظة نحياها دهرًا..

لا أعلم كم طال سكونها على صدري.. لكني كنت أتمنى لو يمضي عمري بأكمله، وهي عليه غافية..

أخذتني إلى غرفة والدي، بعد أن أخبرته بحضوري.. شعرت بها تضم كفي بين أصابعها؛ لتمنحني قوة ألقى بها من أصبح نصف رجل، بعد أن كان سيد الرجال وأكثرهم قوة وحزمًا..

خلتني أراه مسجى على فراشه.. لكنه كان يقف على قدميه.. يتأرجح مستندًا إلى عصاه.. حروفه تتأرجح على شفتيه، كأنه لم يجد هو الآخر ما يقول سوى اسمي..

شعرت بشهيرة ترتعش، وهي تراه على وشك السقوط.. ركضت إليه.. أخذته على صدري، كما لم آخذه يوما، حتى في غرفة مأمور السجن..

توفيق عبد الجواد، الذي ضممت إلى صدري تلك اللحظة، كان ضحية جديدة لقصة قديمة، أثمرت ابنًا مهزوزا عاقًّا أحمق..

حين أخذته بين ذراعيَّ، كان على وشك السقوط، فاحتوته يداي، وبكيت..

يبقى للبكاء على ذراعي الأب والأم لون ومذاق آخر!!

إلى جواره.. على فراشه جلست، وأنا أردد في هدوء:

- أنت بخير.. وبخير أكبر سنكون جميعًا..

ما شعرت بغياب شهيرة عنا، إلا عندما سمعت صوتها يناديني من خارج الغرفة..

حين خرجت إلى البهو، رأيتها تحمله على ذراعيها..

ضياء.. الغريب الذي لا أعرف كيف أحبه، وكيف لا أفعلها.. هبط من على ذراعيها، وتقدم نحوي في هدوء قائلًا:

- أنت بابا؟!

سقطت أمامه على ركبتيَّ أنظر إلى وجهه.. يشبهني.. نعم يشبهني كثيرًا، وعاد يقول:

- هل أحضرتها زرقاء؟! هل هي چيب؟ هل حقًّا عرفت أني أحب الأزرق؟ هيا لنفتحها.. ماذا تنتظر؟

بطرف عينيها، أشارت شهيرة إلى صندوق كبير من الكرتون إلى جوارنا، يقف.. وجواره تقف امرأة شابة لا أعرفها.. لكن كان واضحًا أنها مربية أو خادمة..

فتحنا الصندوق، ورأيت مع ضياء ما بداخله..

بداخله سيارة بالكهرباء زرقاء اللون، وفي لحظة وجدته يصيح:

- أنت حقًّا عرفت ما أريد.. كيف؟!

أمسكت بكفه الصغيرة، وبدأنا معًا نُخرج السيارة إلى حديقة البيت الخلفية وأنا أقول:

- أعرف عنك كل شيء؛ لأنك مني ولأني حقًّا أحبك!!

***

نعم سنوات السجن وحياة القضبان صعبة مريرة.. لكن العودة إلى الحياة بعدها، أحيانا، تكون أصعب..

كأني زائر غريب، كنت أتنقل ذاك اليوم في أنحاء البيت والحديقة إلى جوار رجل البيت الصغير..

كأني زائر، يحاول أن يتحسس خطواته، ويلتقط نظرة قبول أو كلمة استحسان من سكان الدار..

رائع ضياء.. رائع كأمه.. منطلق كحبها وجمالها..

كان يجب أن ننتظر ساعات، قبل أن يتم شحن بطارية سيارة الكهرباء.. تمنيت لو كان في جيبي قطعة حلوى أخرجها له..

ألا يحب الأطفال الحلوى؟ ولكن الغريب لا يعلم حتى أي أنواعها يحب سيد الدار..

كنت أرقبه، وهو يدور كنحلة مجنونة حول السيارة.. تارة يقفز بداخلها.. وتارة يتحسس عجلاتها.. وتارة أخرى يعلن تبرمه من صمتي وسكوني..

جاءت إلينا المربية بكوبين من العصير، وبعض الأطعمة الخفيفة، واقتربت منه لأمنحه أحد الساندويتشات الراقدة في الصحن، رفع عينيه المستديرتين، ينظر إليّ قائلًا:

- لماذا عدت؟!

بالتأكيد أخافني السؤال.. لكني تمالكت نفسي قائلًا:

- أسباب كثيرة.. ربما لأنه بيتي، وكل إنسان لابد أن يعود إلى بيته.. ربما عدت لأني اشتقتك، أو لأحضر لك السيارة التي تريدها..

بعد قضمة صغيرة من ساندوتش الشوكولا، الذي بين يديه، ابتسم كأنه قرر أن يختار السبب الأخير، فقال في ذكاء الأطفال:

- هل أحضرت شيئًا لحنان؟!

عندما سألته من هي حنان، قال في تذمر واضح إنها أخته، التي يحبها ربما أكثر من سيارة الجيب التي أحضرتها، ثم أردف في تذمر:

- أنت لا تعرف كل شيء، كما تقول.. لو كنت تعرف كل شيء لعرفت من هي حنان.. أخبرني من أخبرك باللون الذي أحب .. «ماما».. اعترف!!

كم فاتني مع هذا الصغير.. كم حقًّا من الكلمات والقفشات والأسئلة.. اقتربت من ضياء لحظتها، وقلت في هدوء:

- أنا أعرف كل ما يتعلق بابني لأني أحبه.. ولكن لا أعرف أسماء أصدقائك لأنهم ليسوا أبنائي..

شق ضياء صدري بسكين، وهو يقول:

- حنان أختي.. هي ابنة «بابا زياد».

أرخيت عيني لكي لا يصدر المذبوح أنَّة ألم، وعدت إليه بعد ابتلاع السكين واستقرارها، أقول:

- من الممكن يا ضياء أن تكون عندك سيارة أخرى وصديقة أخرى وأخت أخرى وبيت آخر.. لكن ليس لأحد على الأرض سوى أم واحدة، وأب واحد فقط..

ضياء بعينيه المستديرتين، وشعره الطويل الناعم، وابتسامته الساحرة.. غاب لحظات يفكر، ثم قال:

- لكن حنان تقول له بابا، وهي أختي..

هل تعلمين قسوة أن تخبري طفلًا بحقائق صغيرة.. لكنها لقسوة الأيام عنه غابت؟!

هل تعلمين قسوة أن تستجدي ابنك كلمة، هي الشيء الوحيد الذي يختصك به، بينما تقاسمينه أنت مالك وبيتك وقلبك وعمرك؟!

لم أقل شيئًا لحظتها.. لكني علمت أن أشياء كثيرة تنتظرني.. أب يريدني أن أقف به وبشركة عمره.. وزوجة تريد حنانًا وتعويضًا.. وأخ يجب أن يعود، فمن له سواي وسوى هذا البيت؟!

عدت أنظر إلى ضياء وشفتيه المستديرتين الجميلتين اللتين احاطتهما دوائر الشوكولاتة السوداء..

لو يعلم الصغير كم أحتاج لو يعانقني.. لو يهمس في أذنيَّ بكلمة أشتاقها ومازلت لا أعلم وقعها على روحي.. لكنه يقولها لرجل لديه من

يقولها له.. ولكن من ألوم؟

من ألوم؟!

أمضيت ذاك اليوم بين والدي وضياء وعمي مدحت، وزياد وزوجته اللذين أسرعا بالحضور إلينا..

شكرت زياد من قلبي على وقوفه إلى جوار شهيرة ووالدي، ورأيت عزة وهي حامل تمامًا، كما تركتها قبل دخولي السجن، ابتسمت في رقتها تقول:

- رؤوف.. أرضعت لكما ضياء، ولا أمانع في إرضاع طفل آخر..

كأنها عذراء صغيرة، رأيت الخجل يأكل وجنتيها..

هكذا بدت شهيرة لحظتها، وأفقنا جميعًا على حنان، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيها..

جميلة حنان هي الأخرى، ونظرت إلى عزة أقول:

- لو لم ترضعي ضياء، لخطبت له هذا البدر الجميل.

صاح ضياء لحظتها ينادي زياد بكلمة «بابا»، ورأيت زياد ينظر نحوي في ألم وخجل كأنه اعتذار..

ابتسمت، فما غير الابتسام يقوى عليه العاجز الغريب!

ضمَّ زياد ضياء بين ذراعيه قائلًا:

- «بابا» عاد اليوم.. وحين يعود لا نقولها أبدًا لسواه!!

***

حين نام والدي، وأحكمت حوله غطاءه، رأيت شبح ابتسامة صغيرة على وجهه.
وقفت أرقبه، ودموع صغيرة تتسلل على وجنتيَّ..

هكذا تصنع عودة الأبناء.. وهكذا يجب أن تصنع عودة الآباء والرجال.. كنت متعبًا.. كان يومًا طويلًا هادرًا مؤلمًا.. يومًا كان عمره عامين ونصفًا تقريبًا..

أطفأت الضوء، وألقيت تحية المساء على ممرض والدي، وأوصيته به كأنني أوصيه بطفل رضيع..

حين دخلت غرفتي التي غبت عنها أعوامًا، وجدت شهيرة وضياء على صدرها في فراشنا..

ابتسمت في خجل كبير، وعدت إليها بعد لحظات طويلة، غسلت فيها عني أتربة السجن ورائحة الزنازين.. لكن ما استطعت أبدًا أن أغسل عني ذكرياته وشوقي الكبير إلى وهدان..

حين عدت إليها، كان وجهها متعبًا وعيناها نصف نائمتين..

كالمذنب.. وقفت أمام فراشي، أنظر إليهما كأني أستأذنهما مشاركتي لهما، وسمعتها تهمس:

- رؤوف.. ماذا تنتظر؟! أنت متعب..

اعتدل الصغير جالسًا في دهشة كبرى، وقائلًا في استنكار:

- هل تنام هنا.. مع أمي؟!

ابتسمت شهيرة، وهي تعيده إلى ذراعيها قائلة:

- كنت أنت من ينام معي لغيابه.. ولكن سيعتاد كلٌّ منا النوم حيث غرفته ومكانه..

كنت أعلم أنه لا يصح أبدًا أن تضعه شهيرة في فراشه، حال عودتي حتى لا يكره هذه العودة، وكنت أيضًا أحتاج وجوده إلى جواري، وإحساسي بحرارة جسده وأنفاسه..

وضعت أصابعي على شعره أتحسسه في هدوء، وعيناي في عيني شهيرة، كأني أسألها ماذا ترى في عينيه..

لم يعترض سيد الفراش الصغير، ولم يطل استيقاظه.. دقائق شعرت بعدها بأنه يغط في نوم عميق..

في خجل، همست شهيرة تسألني إن كنت أريدها أن تأخذه إلى غرفته، لكني رفضت..

خشيت أن يستيقظ ولا يجدها معه، فيظنني من حرمته إياها، وخشيت أكثر أن تعود شهيرة وحدها إليّ..

نعم كنت أشتاقها.. لكن كانت ثقتي في رجولتي مهزوزة، وثقتي في احتياجها وشوقها لي أكثر ضعفًا واهتزازًا.. من فوق رأس الصغير، مدت شهيرة أصابعها تتحسس وجهي في حنان بالغ، وعدت أهمس اسمها وجفناي يداعب أحدهما الآخر..

كيف نمت، وهي تداعب شعري بأصابعها؟ لا أذكر..

كل ما أذكره أني فتحت عينيَّ لأجدها نائمة، وضياء على ذراعها اليمنى وذراعها اليسرى فوق جسدينا معًا..

اعتدلت أرقبها وأرقبه..

كيف غفوت بهذه السهولة؟ كيف تركت أصابعها تتحسس وجهي ونمت؟! التقطت كفها، ووضعت عليها قبلات كثيرة..

لم تكن فيها قبلة مشتاق.. لكنها كانت قبلات ممتن، عاد إلى امرأة، احتملت شقاءً وألمًا ومرضًا وحرمانًا كبيرًا..

لا أدري لما تذكرت وهدان وكلماته عن شهيرة، حين رآها في زيارته لوالدي.. شعرت بشيء في صدري يدق شوقًا إليه.. أخبرني أنها أيام قليلة ويعود.. هل يعود كل شيء حقًّا كما نريد؟ وإن حدث لِمَ لا نكتفي؟ لِمَ لا نهدأ أبدًا؟!

***

من أين أبدأ؟!وكيف أبدأ؟!

هل تعرفين لعبة الألغاز الورقية، تلك التي نسميها «Puzzles»؟! هل تعرفين كيف يكون شعورك إن ألقوا في وجهك بألف ألف قطعة صغيرة، وطلبوا منك جمعها وتجميعها لتصنعي منها لوحة بديعة، يجب أن تستعيدي ملامحها من الذاكرة؟!

هل تعلمين كيف يكون ارتباكك مضاعفًا وخوفك أكبر إن أخبروك ألا أحد سواك سيفعلها، وأنك إن أخفقت، ستبقى قطعًا متناثرة حتى يوم الدين؟!

أب شبه عاجز مجروح في ولديه.. زوجة شبه محطمة، وطفل لا يعرف أباه.. بمن أبدأ؟! ومن يعيد ترميمي وتجميعي أنا.. وكل هؤلاء قطع صغيرة في انتظار مهارتي وصبري؟!

قررت البدء بالعمل.. فعودته ناجحًا واستقراره سيعيد شيئًا من الثقة إلى كل هؤلاء.. عقدت اجتماعًا في الصباح التالي.. رفضت عودة شهيرة إلى عملها في الصيدلية.. ووزعت المسئوليات علينا معًا في الشركة.. حتى زياد أخبرته أني بحاجة إليه..

حادثت الدكتور جبر عبد الكريم مستشارنا القانوني، الذي أقصاه طارق في غيابي، وأعدته إلى العمل.. بدأت أضع خطة إعلامية كبيرة لعودة الثقة إلى مصانعنا وإنتاجها..

أذكر أني، وخلال ثلاثة أيام، أنهيت إعادة توزيع الأدوار والمهام في المصنع.. ثلاثة أيام لم أنقطع فيها أبدًا عن محاولة الوصول إلى طارق وإلى وهدان.. لكن لا أحد منهما يجيبني..

ثلاثة أيام لم أمس فيها شهيرة.. ولم أحاول العودة بضياء إلى غرفته..

في الصباح الرابع، أرسلت إلى طارق ووهدان رسالتين على هاتفيهما، أخبرهما أني سأنقطع عن الاتصالات لمدة يومين، أقضيهما مع زوجتي بعيدًا عن البيت والمصنع.. لكن لم ينقطع الأمل والشوق بداخلي إليهما لحظة واحدة..

إلى بيت الجزيرة دخلت أنا وهي معًا، بعد أن أعده لنا بهاء، كما لم يعده حتى ليلة زفافنا..

هناك بعيدًا عن جسد المريض ورأس الصغير، الذي لا يكف عن الأسئلة.. هناك تزوجنا من جديد..

نزفت داخل رحم شهيرة دمعًا، فكل قطعة في جسدي كانت تبكي فراقنا وشوقنا.. شعرت أني أكاد أبتلع شفتيها أو أرجوها أن تبتلع شفاهي، قبل أن تسمع صرخات ذلي وحنيني..

عدت رجلًا وعادت معي امرأة، وعدت أتذكر كلمات وهدان، حين قال لي إن الحب يكتمل بالجسد.. نعم الحب يفعل، ولكن إن كانت الأجساد طاهرة لها نبض وبها روح.. هل أخبرك كيف بكت بين ذراعيّ.. أم أخبرك كيف ابتسمت أنا من جديد بين ذراعيها؟!

لا شيء في الحياة كالحب.. ولا شيء يحيي الحب أو يقتله حقًّا سوى لقاء الأجساد!!

في بيت الجزيرة، ولدنا أنا وزوجتي، لنخرج منه، وعلى وجنتينا ابتسامة.. لكن كان الموت أيضًا في الانتظار!!

***

لم يقل شيئًا عند دخولي غرفته، يوم عودتنا من بيت الجزيرة.. لكن على وجهه كان هناك شيء يتألم، معلنًا عن شيء أكبر من الألم.. حينما قبلت يديه، مدّ والدي يده اليمنى إلى جوار فراشه، والتقط بها جريدة الأخبار ليمنحها لي في ارتعاشة صغيرة، وهو يقول:

- سأذهب معك..

كانت شهيرة مستندة إلى الباب، تحمل ضياء بين ذراعيها..

ماذا تخبئ لنا الجريدة؟ وإلى أين قرر والدي الخروج للمرة الأولى، وهو نصف مشلول؟!

لحظات وأنا لا أحاول أن أفتحها.. شعرت أني ما أقمت رأسي بعد؛ لأجدها تسقط أمامي من جديد..

صاحت شهيرة تسأل والدي، وتطلب أن أقرأ لتعلم عن أي شيء تحدث..

مات طاهر وهدان.. والعزاء في مساء عودتي من بيت الجزيرة، ولا تفاصيل أخرى!!

***

في سرادق العزاء، كان والدي يجلس، وإلى جواره «سالم» ممرضه، الذي ما بات يفارقه حتى اللحظة، وسقطت أنا على مقعدي في صمت..

لا أعرف أحدًا ممن قمنا بتعزيتهم.. السرادق مليء بالوجوه الشهيرة والأقلام المشهورة.. لكن من يأخذ عزاء طاهر؟!

لم يكن له أحد سوى أميمة..

انتفض قلبي، وأنا أذكر اسمها.. عاد طوفان الذكريات يسحبني في قسوة..

أخبرني أنه يخشى الموت.. بل كان يعلن أنه يعلم أنه ميت.. كان في شوق إلى لقيا أميمته الكبرى.. لكن وبعد أيام قليلة قضيتها مع ضياء، أعلم أنه ما كان ليترك الصغرى، وإن مزقه ألم الفراق شر ممزق!!

أين أمل؟! هل من يأخذون العزاء هم إخوتها وأقاربها؟! هي في سرادق النساء بالتأكيد.. لماذا رفضت شهيرة الحضور؟!

هل أتقدم إليهم وأخبرهم أني أحمل من الراحل وصية، وأن على عاتقي له معروفًا وصنيعًا أحياني أعوام سجني؟!

إن حزني على رحيل وهدان ليس ربطة عنق سوداء.. ولا ابتسامة تركتها في سيارتي حتى انتهاء مراسم العزاء..

«حين نلتقي خارج السجن، لن نفترق أبدًا يا صديقي»..

ربما لهذا لم نلتق..

لأن كل لقاء يعقبه فراق، طال الزمان أم قصر..

إن كان الجنين ينفصل عن رحم أمه، ويفترقان كلٌّ في طريق، فمن العبث أن يلتقي صديقان ولا يفترقان..

وهدان حين علم ألا سبيل للحفاظ على عهده لي رحل.. لكنه ترك في عنقي عهدًا لا يجب أن أنساه..

ربتُّ على فخذ والدي، وأنا أخبره أننا يجب أن نذهب..

لا نعرف أحدًا ولا أحد يعرفنا.. إن كان حضورنا من أجل من غاب، فهو لا يعنيه كم نبقى.. لكن يعنيه ألا ننسى..

في طريقنا إلى خارج السرادق، ووالدي يستند على ذراعيْ سالم، لمحته بطرف عيني جاء ليجلس في صفوف متلقي العزاء..

ما كان موجودا عند حضورنا، عدت إليه، قال وهو يكاد يبكي:

- كان يحبك كثيرًا..

ترقرقت دمعة في عيني، وأنا أجيب:

- وكان يحبك أنت أيضًا سيادة المأمور..

***

أخبرت شهيرة أني سأذهب إليها... أخبرتها أني لن أتخلى أبدًا عنهما.. أخبرتها أن طاهر أخبرني أن أم الطفلة صغيرة ولا أقرباء لها.. أخبرتها أني أحببته، كما لم أحب أحدًا حتى بهاء ذاته..

شهيرة عارضت ذهابي وظهوري في حياة زوجة طاهر.. مازلت أذكر كلماتها، حين قالت:

- رؤوف.. يجب أن تنسى كل ما له صلة بأيام السجن.. أرجوك أغلق هذا الباب.. الأستاذ طاهر رحمه الله كتب مقاله ذاك.. لا حبًّا فيك، لكن إيمانًا بالبراءة وتأثرًا بالظلم.. الرجل له من الأصدقاء ما يكفي لمساندة زوجته وابنته حتى تشيخا.. أغلق هذا الباب أرجوك.. أنا نفسي أكره أن أرى أو أسمع ما يذكرني بتلك الأيام، فكيف أنت؟!

كانت تتحدث في ألم كبير.. كانت حقًّا حروفها تشتعل بالخوف والألم.. وما كنت ألومها..

نعم.. كانت أيام السجن سوداء قاتمة، والله لو أعرف كيف أمحوها من ذاكرتي لفعلت، لكن هو العهد.. هو الوفاء.. كيف أنسى ما علمني إياه رفيق السجن والقلب؟!

حادثت أمل على هاتف وهدان رحمه الله، طلبت زيارتها.. لم يبدُ أنها تعرفني، وأيضًا لم تنكر اسمي حين سمعته..

كان صوتها رقيقًا.. لكن باردًا، لا يحمل أي شارات ترحيبية أو تحذيرية كانت..

في بيتها بمنطقة العجوزة رأيتها.. منمنمة أنيقة وأيضًا جميلة..

مدت يدها نحوي تصافحني؛ لتشير إلى أحد المقاعد..

جلست وتحدثت..

أخبرتها عن حبي له، وعن شعوري العميق نحوه بالامتنان، وأني أطلب منها أن تسمح لي برعايتها هي وأميمة..

في تلك اللحظة، رفعت أمل حاجبها، تقاطعني في صوت حاسم، لتقول:

- ندعوها «ميمي»!!

ثم أردفت في صوت أكثر نعومة تسأل:

- أي نوع من الرعاية تعنيه؟!

تلعثمت لحظة، ثم عدت أقول:

- أي شيء تجدين صعوبة في تحقيقه لك أو لأميمة.. أعني «ميمي» سأحاول إنهاءه..

كانت أمل تتفحصني بعينيها الخاليتين من آثار قطرة دمع واحدة.. كانت ساقاها العاريتان الجميلتان، تحت ثوبها الأسود القصير، لا تستقران على وضع ثابت أبدًا..

كانت عيناي تتنقلان حولي، كأني أبحث عن رائحة صديق، كنت أظنه لن يفارقني..

البيت أنيق في غير ثراء.. يفصل استقباله عن الغرف باب من خشب الأرو المشغول، ويحتل نصف مساحته زجاج مرسوم..

كانت عيناي تقفان على الباب طويلًا، كأني أنتظر خروج وهدان أو ابنته..

لكن حين طالت الدقائق، وفرغ فنجان القهوة، بدأت أمل تتململ في مقعدها، كان يجب أن أنهض.. وقبل وصولي إلى باب البيت، نظرت إليها في رجاء قائلًا:

- سيدة أمل.. هل بإمكاني أن أرى أميمة؟!

***

التهمنى العمل وضياء وعناق شهيرة وقتًا.. كنت ألهث، وأنا أحاول أن أنظم كل شيء بعد غياب طارق، الذي لهث خلفه كجرو صغير، حتى جاء يومًا إلى المصنع؛ حيث التقيته أنا وشهيرة..

حين ضممته إلى صدري.. حين أخبرته أني حقًّا اشتقته.. وأني أبدًا لن أنبش في قبر الماضي، فلا شيء سنخرج به منه سوى الألم، ونحن جميعًا منه اكتفينا.. شعرت به يهدأ لحظات بين ذراعيَّ.. لكن حين رجوته أن يعود إلى مكتبه.. إلى عمله معي ومع شهيرة، رفض في عناد كأنه طفل، حين كشفوا أمره قرر إغماض عينيه لئلا يرى والديه..

ثار طارق يومها في وجه شهيرة ثورة كبرى، وأعلن أنه تحرر من الأحرار؛ لأنه يعلم أن مبادئنا الجوفاء ستسقط بها قريبًا..

أمسكت بكفه، قبل أن يغادر يومها المكتب، وأنا أسأله ألم يشتَقْ إلى والده.. ألا تهفو روحه إلى الاطمئنان عليه، وهو في لحظة قد يغيب عنا إلى الأبد..

لكن يبدو أن طارق فعلًا قرر إغلاق عينيه عن كل ما يجمعه بنا..

كانت شهيرة تعمل في صبر وحب، كأنها ألف رجل.. كنا حقًّا نحرز نجاحات كبيرة في أوقات قصيرة..

أدويتنا عادت إلى مكانتها، تم فلترة جميع موظفي الأحرار، واستبدال كل من خالجنا الشك بتواطئهم مع طارق، أو سواه، بآخرين، تم التحري عن كفاءتهم بدقة بالغة.

كنا نصارع الأيام للعودة بكل شيء إلى ما نراه له أفضل..

كان بهاء يزورنا في المصنع أحيانًا، وكنا أنا وشهيرة نزوره مع ضياء ووالدها أيضًا كثيرًا.. بهاء طاهٍ ماهر، يتفنن ويبالغ في الاحتفال بشهيرة؛ خاصة في حضرة والدها..

كل شيء كان يهدأ، وكأن الأيام رفعت كفها قليلًا عن أعناقنا ومصائرنا.. لكن رأسي لم ينم ليلة أو تغفو عيناي، دون أن أتذكر وجهه الطيب، وهو يوصيني بها.. رفضت أمل يوم زرتها أن تدعني أرى ابنتها.. رفضت بابتسامة صغيرة منمنمة كملامحها وترحابها..

هزت رأسها، وهي تنهض عن مقعدها، كأنها تطردني..

من حزني وغضبي تلك الليلة، أخبرت شهيرة التي عادت تقول في ثقة:

- إياك أن تحادثها أو تذهب إليها، رؤوف.. أخبرتك هي أيضًا لا تريد من يذكرها بسجن زوجها.. قضيته رحمه الله كانت معقدة.. قتل والسبب فيها امرأة.. رؤوف نحن أيضًا، يجب أن نغلق هذه الصفحة إلى الأبد.. هناك أشياء يجب أن تُنسى بكل ما فيها..

ربما كانت شهيرة على حق.. ولكن بقدر وجوب النسيان، بقدر استحالته أحيانًا!!

لم أنس، بل لم أكن أريد أن أنسى.. جرفني العمل شهورًا.. أخذني ضياء إلى حبه وذراعيه وعالمه.. أشعلتنى شهيرة، وأشعلت روحي وقلبي بدفء جسدها وظمئه.. لكني ما نسيت ليلة..

تذكرت في إحدى ليالي خجلي من وهدان.. تذكرت كيف أخبرني أنكما أصدقاء، وأنه أخبرني بمكان تلتقون فيه كل أسبوع..

دعوت شهيرة إلى العشاء في المكان ذاته.. كنت أعلم أن شهيرة تتوق إلى لقائك، ولو مرة واحدة.. حين رأيناك تجلسين مع مجموعة من الأصدقاء، سقط قلبي في الألم من جديد، كأني أرى مقعده خاويًا..

أخبرت شهيرة أني أحضرتها لتراك.. رأيت في عينيها سعادة كتلك التي أراها في عيني ضياء أو حنان ابنة زياد، إن حملت لهما هدية..

حين نهضت لتحادثك، أمسكت بكفها هامسًا:

- شهيرة.. حاولي أن تأتي بها لتجلس معنا قليلًا..

لم أكن أعلم ماذا أصنع سوى ذاك..

إن قبلتِ دعوة شهيرة على كوب قهوة، قد نتحدث.. وقد أذكر اسمه، دون الإشارة إلى السجن..

حقًّا كنت أريد الوصول إلى ابنته أو حتى الاطمئنان عليها، بأي صورة كانت، رغم ازدحام رأسي بألف قصة ومسئولية..

كانت شهيرة كالهائمة وهي تحادثك.. كانت وجنتاها تطلقان ضحكات أعرف صدقها وعذوبتها.. وكان قلبي أنا ينتفض، وهو يعد ألف طريقة، أحاورك بها حتى نصل إلى ذكر من لم أنسَهُ، ولا أظنك أنتِ أيضًا تفعلين..

في لحظة، قررت أن أخبرك أنه كان يتمنى لو يوصيك بابنته.. وفي لحظة أخرى تخليت عن قراري.. أخبرني أنك بألف عبء محمَّلة..

رأيتك تبتعدين.. ورأيت شهيرة وحدها تعود، تثرثر في جنون كطفلة صغيرة، تستعيد كل ما دار بينكما.. أذكر أنها أمسكت كفي بين أصابعها، واقتربت مني تضع على وجنتي قبلة، تشكرني على أن جمعتها بك..

هل تعرفين قطعة السكر، وهي تسقط في كوب شاي ساخن؛ لتذوب وتختفي في لحظة.. هكذا ذابت ابتسامتي، وسألت شهيرة في ألم:

- لِمَ لم تحضر للجلوس معنا؟

صاحت حبيبتي تقول:

- هل جننت؟! كيف أدعوها؟! وهل تظنها تقبل؟!

***

حتى مأمور السجن ذهبت إليه.. أخبرته أني جئت أدعوه إلى إحدى تلك الحفلات، التي تقيمها شركتنا لأغراض إعلامية..

كان استقباله فاترًا.. ورغم هذا سألته عن أميمة وأمل..

رفع حاجبيه في دهشة، ولاحت ريح باردة على صوته، معلنًا أنه لا يعرف عنهما شيئًا.

أما كانا صديقين؟! أما كان الألم يرقص على وجهه في المرات، التي كان وهدان يسقط فيها متأثرًا بغيبوبة سكره؟ هل تنتهي الصداقة حقًّا بموت أصدقائنا، وننسى كل ما تركوه خلفهم، ممن هم في حاجة إلينا؟!

ربما لم يوصه وهدان بهما، وربما لو لم يوصني أنا يومًا، ما سعيت للسؤال عنهما..

يجب أن أنسى القصة.. المرأة جميلة شابة، ولابد أن لها عائلة كبيرة تساندها، فضلًا عن أني منحتها جميع أرقام هواتفي، وأخبرتها أنني دومًا رهن إشارتها، إن احتاجت شيئًا يومًا..

في طريق عودتي من طرة ذاك الصباح، اتخذت قرارًا صادقًا بإغلاق القصة ونسيانها.. ربما بعد شهور، أحادث أمل في عيد قادم أو نهاية الاختبارات المدرسية، متعللًا بالتهنئة أو نتيجة أميمة..

يجب أن أنسى القصة، وأحترم كل هذه الشارات، التي تدعوني للبعد والنسيان..

لكنّ هناك أمورًا، هي من تطاردنا إن علمت أننا حقًّا قررنا النسيان!!

***

عاد كل شيء إلى نصابه، بعد عام تقريبًا من خروجي من السجن.. عاد والدي يذهب إلى المصنع برفقة «سالم»، وعدت أسافر أنا وشهيرة، ونستمتع بكل لحظة في أيامنا..

طارق رفض العودة تمامًا إلى البيت، أقام مشاريع كثيرة وناجحة بعيدًا عنا.. كان يحادثني على فترات متباعدة، أوضح لي فيها أنه هو الآخر على وشك الزواج والاستقرار..

رحل عمي مدحت دون وداع أو مقدمات.. رحل بعد عودتنا أنا وشهيرة من رحلة إلى باريس، كأن الألم دومًا ينتظرنا على أبواب طائرة الرحلات والأحلام..

في تلك الأيام التي كانت شهيرة تصارع فيها أحزانها الكبيرة، وتحاول التماسك من أجلي ومن أجل ضياء، نسيت طارق وهدان.. ونسيت قصته تمامًا.. لكنها ما نسيتني...

بعد عودة شهيرة إلى العمل، وربما وهي مازالت في ملابس حدادها.. أخبروني أن زائرة ما تريد لقائي..

حين طرقت الباب، وظهرت أمامي وجدتني، ورغمًا عني، أنهض عن مكتبي، وأتجه نحوها في استسلام..

ربما كنت مأخوذًا بجمالها وبياض بشرتها الصافي.. ربما ظننتها إحدى صديقات شهيرة، التي جاءت تقدم تعزيتها وأخطأت الغرفة.. لا أعلم لكن شيئًا في جمال المرأة، وحزن ثوبها الأسود الأنيق، ما استطعت مقاومته..

صافحتها وعدت إلى مكتبي، أنتظر أن تتحدث، أو على الأقل تذكر اسمها.. رأيتها تعبث بأصابعها لحظات، وعيناها تتابع كفها..

حين طال الصمت، سألتها كأني أعينها على تذكر وجودي معها، فقلت:

- هل نشرب كوبًا من القهوة؟!

رفعت عينيها تنظر نحوي، فوجدتها تكاد تبكي.. في عينيها شيء كدمعة لا تسقط.. في لحظة شعرت بدبيب قلبي، وعيناي ترقصان بين أصابع، لا تهدأ ودمعة لا تفارق..

قبل أن أستجمع شجاعتي، أو حتى أدرك ما أفكر فيه.. جاءني صوتها كصوت صفارة حنون، تقول:

- ربما لا تذكرني، وربما أيضًا أكون مخطئة.. ولا تكون حتى سمعت بي من قبل.. حُسن المنشاوي..

أصابع لا تهدأ، وعيون بها دمعة لا تسقط، وصوت ناي رائع هادئ، يغسل عنك أحزانك..

آه يا طاهر.. كم أنت دقيق في وصفك..

قبل أن أتحرك أو أصيح لأخبرها أني أعرفها، كما لا يمكن أن تتصور، أطلقت نايات حنجرتها تقول:

- ما هَمَّ الأسماء؟! أنا هنا من أجل رجل، أخبرني أنه يحبك كثيرًا، وأنك أنت أيضًا كما أفعل تفعل..

وجدتني في أقل من لحظة، أجلس على المقعد المقابل لها، وأنا أقول:

- طاهر وهدان..

كأنها في لحظة أشعلت نيران ذاكرتي وشوقي إليه.. كأني وجدت من بإمكاني الحديث معه عن رجل أحببته، وتمنيت بقاءه في أيامي كما لم أتمنَّ شيئًا آخر على وجه الأرض..

انطلقت أخبرها عن شعوري بالألم على رحيله.. عن اشتياقي له وزيارتي لزوجته، وكم تمنيت لو أرى أميمته مرة واحدة..

حُسن كلماتها قليلة كصفارة الناي حقًّا.. لكنَّ عينيها تمنحك إحساسًا هائلًا بالإصغاء والمشاركة.. تحدثت وتهدج صوتي بذكراه، وشوقي إليه، وهي صامتة، تعبث في أصابعها، وتنظر إلى وجهي في حنان..

سكت فجأة، وكأنها كما أشعلت براكين كلماتي بكلمة، أطفأتها بنظرة..

هل جننت؟! كيف أحدثها عن أمل وأميمة؟! ربما كانت لا تعرفهم.. ربما جاءت لأنها تحتاج المساعدة.. كيف تذكرت طاهر وعائلته، ونسيت حُسن وأبناءها؟ فقلت معتذرًا:

- أرجوك سامحيني.. هل تحتاجين شيئًا؟ هل هناك أي شيء بإمكاني تقديمه لك؟!

من شفتيها الورديتين الخاليتين من الألوان والأصباغ خرجت آهة عميقة تسلل عطرها إلى صدري لتنطلق قائلة:

- من أجل أميمة جئت.. أخبرني طاهر رحمه الله أنه أخبرك عنه وعني كل شيء.. عندما أفقت من صدمة رحيله ذهبت إلى زوجته.. أخبرتها أني أدين لها ولزوجها بكل شيء وأني مثلها بعده أصبحت في مهب الريح..

لم تكن أمل تحبني ولم ترحب بوجودي.. منحتها العذر في ذلك فهي دون شك لابد وأنها تراني مسئولة عن سجن زوجها، وربما وفاته لتدهور حالته الصحية في فترة السجن..

أقسمت لها أني على استعداد لتقديم أي شيء أستطيعه وأني لا أريد سوى تطهير روحي من شعورها الدفين بالذنب والعرفان..

بدأنا نتبادل مكالمات هاتفية صغيرة وبعيدة.. في إحدى المناسبات في العام الماضي حملت هدية، ذهبت لزيارتها وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أميمة..

سكتت حُسن لحظة وعادت تشبك أصابعها وتعبث بها بشيء من العصبية ثم ألقت بعينيها عليها من جديد وقالت في صوت خفيض باك:

- جميلة أميمة.. كأنها طاهر عدا لون أمها وأنوثتها الطاغية..

لكن بدت الفتاة في عيني كأنها في السبعين من العمر..

تمنيت لو أضمها إلى صدري، وأتركها تبكي عليه.. لكن أمل طلبت منها العودة إلى غرفتها.. سيد رؤوف.. في إحدى المرات، أخبرتني أمل عن زيارتك لها في تهكم ومرارة شديدة.. أذكر يومها أنها فسرت ظهورك وظهوري في حياتها بالفضول، الذي لا تحتاجه، والذي تعلم أنه سيموت بداخلنا إن هي حقًّا احتاجت منك أو مني شيئًا..

احتملت تقلباتها وتجريحها كثيرًا وطويلًا؛ من أجل أميمة ووالدها.. بإمكاني القول بأننا أصبحنا شبه أصدقاء..

سيد رؤوف.. بدأت أمل تلاحقني بمطالب نقدية.. أحيانًا في صورة دين وأحيانًا أخرى في أشكال مختلفة.. لم أعد قادرةً على مجاراتها، وأصبح القلق يراودني.. تدعي أنها لا تملك ما يكفي مصروفات أميمة وارتفاع الأسعار وغلو الحياة..

عندها، قاطعتها في تلك اللحظة قائلًا:

- حالًا أذهب إليها وأمنحها ما تريد..

لكن حُسن قاطعتني في فزع قائلة:

- إياك أن تفعل.. ليست هذه القضية.. أنا فقط خائفة على أميمة.. أخشى من تهور أمل.. حسنًا.. سأخبرك شيئًا، لا يعرفه أحد سواي، ومن أجله أنا هنا..

سيد رؤوف.. طاهر أخبرني قبل رحيله أنه باع قطعة أرض، ورثها عن والدته، وورثتها زوجته الأولى عن أمها.. الأرض ثمنها أكثر من نصف مليون جنيه.. اقتطع من ذاك المبلغ جزءًا صغيرًا، سافر به هو وأميمة إلى فرنسا لمدة أسبوع..

هل يمكن أن تنفق أمل نصف مليون جنيه في أقل من عام، ويصل بها الحال أن تبكي وتطلب مني أنا - وأنا أعلم أنها لا تحبني - مبلغ عشرين ألف جنيه؟! هل يعقل هذا؟!

لم أكن أستطيع أن أرتب الأحداث في رأسي.. لكن ما وجدت ما أقوله سوى:

- ربما لا تعلم عن المبلغ شيئًا.. ربما وضعه طاهر في مكان ما باسم أميمة..

عادت حُسن تهز رأسها في ألم، وهي تقول:

- أمل تعلم.. أخبرني طاهر أنها رفضت السفر معه ومع أميمة، وأخبرته أنها تريد أن تبقي النقود التي سينفقها عليها في الرحلة مع كامل المبلغ ليبدأ به مشروعًا، ينتقل بهم إلى مصاف الأثرياء والمدللين..

أمل هي من أحضرت المشتري لطاهر.. وهي من بقيت شهورًا، تخبره بضرورة البيع.. كانت.. كانت..

سكتت حُسن لحظات، ثم قالت في تردد:

- كانت تقسو عليه وتخبره أنه ميت، ولا تريده أن يتركها هي وابنتها دون نقود.. قالت له في إحدى المرات إنه إن با ع الأرض، واستثمرا نقودها سيصبحان أثرياء إن بقي معهم على قيد الحياة، وإن مات ترك لهم نقودًا، بدلًا من البحث عمن يبيع أو يشتري من امرأة وحيدة معها طفلة..

أنا بالكاد أتدبر شئون حياتي أنا وأبنائي.. ذهبت إلى أمل.. وجدتها من فرط عصبيتها تجن.. كادت تطردني حين أقسمت لها منذ أيام أني لا أملك شيئًا، لكني ذكرتها بك.. حين أخبرتني أنها ستحادثك، طلبت منها أن تترك هذه المهمة لي.. في الحقيقة أردت تحقيق أمرين.. أولهما تحاشي غضبها مني، والآخر إبلاغك بالحقيقة كاملة..

أريدك أن تقترب وتحاول أن تعرف الحقيقة، تنقذ ما يمكن إنقاذه أو تساعدها إن كانت حقًّا بحاجة للمساعدة، وإن شئت أنت أن تفعل..

لم أفهم، فقلت في حيرة كبيرة:

- ماذا تريدين أن أفعل؟!

قالت حُسن بعد لحظات:

- أخبرتها أني سأحضر إلى زيارتك، وأخبرك، كأنك لا تعرف شيئًا عن حاجتها الماسة هي وابنتها، وأنك تدين لزوجها بعد ذاك المقال الذي كتبه عنك، بعد خروجه من السجن، وهي في انتظار نتيجة الزيارة..

رأيتها تفتح حقيبتها السوداء، وتخرج منها بطاقة صغيرة قائلة:

- هذه أرقام هواتفي.. خذ وقتًا للتفكير، وأخبرني بما تريدني أن أفعله.. لكن أرجوك.. أتوسل إليك.. إن حادثتها لا تخطئ أبدًا، وتخبرها بموضوع الأرض أو شكوكي.. حتى إن لم تشأ المساعدة، لا تقطع الخيط الضعيف، الذي مازال يربطها بي.. من أجل أميمة.. أو...

سكتت حُسن لحظة، ورأيت دمعتها على وشك السقوط، ثم قالت في انكسار كبير:

- .. من أجل طاهر..

رأيتها تسلم أصابعها من جديد لذاك الاشتباك الكبير والعراك، أحدهما للآخر، ووجدتني أضع كفي فوق يديها قائلًا:

- سأجد طريقًا ما.. وسأحادثك..

لم تسحب حُسن أصابعها من تحت كفي، ولم ترفع حتى عينيها نحوي.. إلا أني شعرت بالخجل مما فعلت، فنهضت متجهًا إلى خلف مقعدي، في هدوء، نهضت على أثره حُسن لتودعني، وتنصرف من حيث جاءت..

لم تمض لحظات.. حتى دخلت بعدها شهيرة مكتبي ببعض الأوراق، ثم قالت:

- رؤوف.. من تلك الجميلة التي كانت لديك؟!

تمنيت لو أخبرها القصة كاملة.. تمنيت حقًّا لو أطلب رأيها ومشورتها.. لكني كنت أعلم أنها متعبة، فهي مازالت غارقة في ألمها على فقدان والدها، وكنت أعلم أنها تكره قصة طاهر ونساءه وذكرى لقائه..

لم أجد ما أقول، سوى أني ضممتها إلى صدري، كأني أشكوها لنفسها قائلًا:

- هل حقًّا تغارين؟!

انكمشت شهيرة على صدري، وقالت في حزنها العميق:

- والله أثق فيك ثقتي في الجنة والنار.. لكن المرأة تخطو كأنها مَلاك سماوي.. هل كانت تبكي؟! كان في عينيها شيء كالدموع!

هذه هي شهيرة تثق فيّ ثقتها في الجنة والنار.. وهذه هي حُسن يوم جاءت بدمعتها المنتصبة، أخرجتني من الجنة، وألقت بي في طريق الجحيم والنار!!

***

تلك الليلة.. حين بكت شهيرة على صدري، ككل ليالي الفراق الأولى عن والدها، ضممتها في حنان كبير.. أنا أيضًا كنت حزينًا لفراق ذاك الرجل الرائع، الذي تمنيت لو لم يمت.. كان من الممكن أن أقص عليه قصة حُسن التي جاءتني بها، وكان من المؤكد أنه بحكمته وعلمه سينير طريقي... حين هدأت شهيرة على صدري وغفت، نظرت إلى وجهها النائم في شيء من اللوم.. تمنيت لو تفسح في صدرها ورأسها مكانًا لقصص طاهر وهدان، وتعذر لي تمسكي به وعرفاني بجميله.. لكنها عنيدة رغم رقتها، وأعلم أنها تتألم لذكر أي شيء له صلة بالسجن، ويكفيها ألم فراق والدها وغيابه عنها وعن ضياء، الذي كان يسألها عنه كل ليلة..

كنت حائرًا.. أشعر أن كل لحظة أتأخر فيها عن دفع النقود لزوجة طاهر، هي خيانة له.. ولكن كلما استعدت قصة حُسن عن الأرض، وذاك المبلغ الكبير أيضًا، أشعر بأهمية التروي والصبر..

ما بقي عندي سوى شخص آخر، يمكنه أن يسمعني وربما أستنير برأيه.. في مساء اليوم التالي، توجهت إلى بهاء، وأخبرته القصة كاملة وبشكوكه هو الآخر وتجاربه المريرة مع الثقة والخيانة، نسج لي ألف قصة.. حتى أنه أخبرني أن حُسن قد تكون هي من تريد الاستيلاء على نقود مني، وتعد لذاك خطة كبيرة..

تحادثنا طويلًا، ووضعنا بنودًا وفرضيات ومحاذير واحتمالات.. بعدها لم أنتظر حتى الصباح، بل أخرجت هاتفي، وحادثت حُسن، أسألها عما دار بينها وبين أمل..

أخبرتني أنها أنبأت أمل بزيارتها لي، وأنها أخبرتني كفاعلة خير عن مرور زوجة وهدان وابنته بضائقة مالية..

لحظات بعد تلك المكالمة، وحادثت أمل.. كان في صوتها هذه المرة شيء كاللهفة، وأيضًا كحزن، لم أسمع نغمته يوم ذهبت لتعزيتها في زوجها..

لم أظهر لها تلهفًا على لقائها أو مساعدتها.. لكن كان تلهفها لأي كلمة تشير إلى هذا كانت واضحة.. سألتها عن أخبارها هي وابنتها، وأنها مرت في رأسي منذ أيام.. فأردت الاطمئنان عليها.. وفي نهاية المكالمة، شحذت من صدري نفسًا عميقًا قلت بعده في هدوء:

- سيدة أمل.. مازلت أرغب برؤية أميمة، وأيضًا بالوقوف إلى جوارها وجوارك في حال وجود ما يستدعي ذلك..

أردت أن أضع أميمة شرطًا صريحًا واضحًا لأي شيء، هي تريده، وأردت أيضًا أن أشعرها بأني لا ألقي المساعدة.. لكن فقط أعرضها إن كان لها دا ع.. كانت صامتة تفكر، وعدت أقول:

- تصبحين على خير..

قالت كأنها تلهث في إعياء ويأس:

- غدًا الجمعة.. قد تمر بنا في السابعة لتشرب كوبًا من القهوة، وتلقى أميمة..

دون اكتراث قلت:

- فليكن السبت إذًا.. فأنا أقضي الجمعة مع زوجتي وعائلتي..

***

كانت أكثر جمالًا وإثارة من تلك المرة، التي ذهبت فيها لتعزيتها.. كانت ترتدي ثوبًا قصيرًا، في لون قشرة ليمون شهية..

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وأنا أجلس على المقعد ذاته.. كل شيء في هذه المرأة منمنم مثير، حتى عيناها الصغيرتان العسليتان..

بدا عناق ساقيها الرخاميتين، إحداهما للأخرى.. لكن في هذه المرة، بدا معهما جزء كبير من فخذها الأبيض الأيمن..

شعرت لحظتها بشيء كالغيرة يجتاحني.. غيرة على جسد زوجة رجل أحبه وأحترمه.. لكن هي ما عادت زوجته.. هي أرملة صغيرة منمنمة حائرة بشعرها الثائر، حول وجهها وعينيها المشعتين، وساقيها الثائرتين اللتين لا تهدآن على حال..

كان حديثنا متقطعًا، لا شيء يصله ليكون قطعة واحدة..

إن اخترت الحديث عن طاهر، غيرت مجراه.. وإن سألتها عن أميمة، كانت إجاباتها مقتضبة قدر استطاعتها..

لم يمر وقت طويل، قبل أن أفقد قدرتي على رسم مزيد من البلاهة واللامبالاة، فسألتها أين أميمة.. وكانت إجابتها عن السؤال أكثر قسوة من رحيل طاهر؛ حيث قالت في حدة:

- لماذا تريد أن تراها؟! تطمئن عليها، وكيف تفعل ذلك بمجرد النظر إلى وجهها، الذي حتى لم تره من قبل؛ لتعقد مقارنة بين ما كانت وما أصبحت عليه.. لأنها ابنة طاهر؟! ستبقى ابنته.. رأيتها أم لم ترها.. أخبرني لماذا تريد أن تراها؟!

أعترف أن كلماتها فاجأتني، وبحثت عن شيء أقوله، فلم أجد سوى:

- ربما لأنها تحمل رائحة ذاك الرجل العظيم.. ربما لأني اشتقته كثيرًا..

بتهكم شديد.. لكن دون عصبيتها المجنونة، قالت وهي تنهض عن مقعدها:

- اشتقته؟! اذهب إلى مقبرته وأخبره.. رائحته؟! فلأحضر لك إذًا أحد قمصانه القديمة، فخيوطها مازالت مشبعة برائحة عرقه..

نحن لا نتنبأ أبدًا بدهاء المرأة.. فقط نفيق عليه فجأة وهو يطيح بأعناقنا.. كنت أقف أمامها كالتلميذ، الذي يبحث عن إجابة ينقذ بها مستقبله.. كنت أستعيد كلماتها لأفهم أو لأجد شيئًا أقوله.. لكني لم أجد.. حتى سمعتها تقول، وهي تعود إلى مقعدها، وقد خفت صوتها، وفيما يشبه الرجاء، قالت:

- أميمة صغيرة، تحتاج مساندة.. لا قبلة وعناقًا من زائر مشتاق..

عادت تقول كأنها تبكي:

- تعبت وتعبت هي من عبارات الحب وأشعار الذكرى.. هل تساندها؟ هل تساندني سيد رؤوف؟!

أفقت لحظتها، حاولت أن أكون في شيء من دهائها وذكائها.. لكن لا رجل يقف أمام امرأة.. فقررت أن أتظاهر بالسقوط، علّ هذا يرضي غرورها قائلًا:

- الحق معك.. الحب ليس لقاءً أو عناقًا.. الامتنان والعرفان لفضل وصحبة ذاك الرجل ليست قبلة أضعها على وجنة طفلته.. الوفاء مساندة.. أنت على حق.. هل تمرين بضائقة مالية؟!

قاطعتني:

- أبدًا لكن خائفة أنا.. ستلتحق ميمي بالجامعة، بعد أعوام قليلة.. وأخشى ألا أستطيع أن أكمل معها المشوار.. طاهر مات فقيرًا..

قالت جملتها الأخيرة، وهي تنظر في عينيّ بشيء من الخوف، فنظرت إليها كأني لا أصدق، وقلت مدعيًا الدهشة والتلعثم:

- حقًا؟! إذًا دعيني أفكر في شيء.. أعدك أني سأفعل..

نهضت أودعها، وأنا أخبرها أني سأعود خلال أيام، تكون هي قد فكرت في شيء نفعله..

طلبت مني الانتظار، ثم عادت بعد لحظات.. وأنا أقف بجوار باب بيت طاهر، حيث رأيت أميمة..

سقط قلبي على أرض ذاك البيت، وأنا أراها..

فارعة الطول حتى أنها تكاد تقترب مني.. لها عينا طاهر، ونظرته العميقة الحانية، تسكنان وجهها..

لم أعانقها أو أقبلها، فقط مددت كفي أصافحها قائلًا:

- كان والدك صديقي، وأتمنى أن تصبح ابنته أيضًا..

كأنها أُرغمت على لقائي وكانت له كارهة.. أخذت كفها من بين أصابعي.. وبعد نظرة قاسية في وجه أمها، غابت أميمة عن عيني.. لكني رسمت وجهها في قلبي!!

***

هكذا أصبح رؤوف عبد الجواد، في ليلة وضحاها، محاطًا بثلاث نساء، وطفلة يرق لها قلب الحجر..

حُسن أصبحت تحادثني يوميًا، تخبرني ما تخبرها به أمل، وأحيانًا تفعل لتطمئن عما أفعله أنا معها، وإلى أين وصلت..

أمل أيضًا كانت تحادثني، وهي تعلن أنها لازالت لا تعرف ماذا تريد أو ما الذي يمكن أن أقدمه لأميمة.. دعتني إلى بيتها أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أحمل لها ولابنتها بعض الهدايا، التي جعلتها تهدأ وتثق في أني حقًّا لا أبخل بذاك الشيء، الذي مازلت لا أعلمه، وتدعي هي أنها لم تقرره بعد.

أميمة كانت هي وشهيرة قضيتي.. كلتاهما حزينتان، وكلتاهما لا شيء يشفيهما سوى الحب والحنان..

شهيرة تركت لي نفسها.. كأنها تلقي على كتفيّ بأحمال خوف وقلق لا حدود لهما..

في تلك الأيام، علمنا أنه لا أمل لنا في إنجاب طفل آخر.. رغم أنه لا شيء محدد وضع الأطباء أيديهم عليه.. لكن بات يسكن شهيرة، ويسكنني أن ضياء هو طفلنا الأوحد..

شهيرة أصبحت أكثر التصاقًا بعزة وبنتيها، وأكثر اقترابًا من والدي حتى أني ما كنت أصدق عيني، وأنا أراه في أوقات كثيرة يذهب إلى مكتبها في الأحرار؛ ليتبادلا عناقًا أو يقررا احتفالًا صغيرًا، نجتمع فيه جميعًا مع عائلة زياد في حديقتنا.

لكن.. ورغم سعادتي بكل هذا الحب، الذي محا بعضًا من ألمنا على فراق طارق إلا أن رأسي كان دومًا مسكونًا بتلك الكسيرة، التي بقيت شهورًا، أتودد إليها حتى أثمر توددي ذاك عن مولد أجمل شيء، يمكن أن يتخيله عقل أو قلب إنسان..

«ابتسامة أميمة» .. كيف يصبح وجهها كأنه قطعة من بدر، يضيء صحراء الأرض عندما تبتسم.. متى كانت أول مرة أراها تطلق أولى ابتساماتها الساحرة؟!

كان ذاك يوم الاحتفال بعيد مولد حنان ابنة عزة الكبرى، الذي أقمناه في حديقة المنصورية..

لم تمانع أمل عندما أخبرتها بدعوتي لابنتها، أيضًا لم ترحب شهيرة بحضورها كثيرًا.. لكن عندما جاءت الصغيرة، كان والدي أكثر من احتفى بها، وأكثر من تحدث عن تاريخ والدها مع الكلمة وحب المصريين له..

أمسكت يومها بكف شهيرة، ووضعت عليه قبلة.. وحدها جعلت من توفيق عبد الجواد رجلًا آخر، له قلب يرق ويحنو على يتيمة لا يعرفها..

رأيت أميمة تهدأ.. ورغم فارق السن بينها وبين ضياء وابنتيْ عزة.. إلا أني رأيتها تلاعبهم، وتركض خلفهم.. ثم تركتهم جميعًا، وتقدمت نحوي لتميل على أذنيَّ، تهمس فيهما ببعض كلمات..

ضممتها إلى صدري، بعد أن سمعت كلماتها، حتى كدت أشعر أني سأبكي.. سألني والدي، وزياد إلى جواره، عما تريده أميمة.. أنا نظرت إلى زوجته وقلت:

- عزة.. أميمة تسأل إن كان بإمكانها أن تحمل لقاء بين ذراعيها..

كانت لقاء رضيعة صغيرة، تغفو على ذراعي أمها، التي ابتسمت في حنان، وهي تصيح:

- طبعًا.. اقتربي يا أميمة..

تلك اللحظة ابتسمت أميمة، وهي تضم الصغيرة إلى صدرها..

ابتسمت، وهي ترقص بعيني طاهر العميقتين بين وجوهنا جميعًا.. حتى شهيرة.. شعرت بها تكاد تدمع لرؤية ابتسامتها الساحرة..

وحدها أميمة رشقت شمعات الكعكة في قلبها، أشعلتها، وأنا جوارها، ووقفت الصغيرة بيننا ونحن نغني أغاني عيد الميلاد؛ لتطفئ حنان شموعها، وركضت نحوي دون والديها تصيح:

- أين هديتي؟!

أذكر أن زياد ضحك يومها قائلًا:

- أفسدت البنات يا رؤوف.. ما عادت ترضيهن سوى هداياك..

حتى ضياء كانت له هدية، فنحن اعتدنا أن نمنح هدية لكل من يشارك في الاحتفال، على أن تكون الهدية الكبرى لمن يُحتفل به.. لكن تلك الليلة كانت أغلى الهدايا ثمنًا هي التي مددت يدي بها نحو الباسمة قائلًا:

- «هديتك» يا أميمة..

تقدمت شهيرة نحوها، تضع بين ذراعيها الصندوق الصغير، الذي صاح الجميع يسألها أن تفتحه..

ابتلعت أنفاسي، وأنا أرقب عينيها، تكتشفان ما بداخل الصندوق.. حين فتحته، وحين رأت ما بداخله.. قالت في صوت مسحور:

- كيف عرفت؟!

وضعت الصندوق في هدوء إلى جوارها، وجاءت نحوي أيضًا تضمني كأنها حقًّا تريد الاختباء في ضلوعي، ثم عادت تهمس:

- أنكل رؤوف.. كنت أحلم به.. كيف عرفت؟!

هل أقسم لك أني شعرت لحظتها أني أضم طاهر وشهيرة وطارق وضياء ووالدي معًا؟!

لم أجد ما أقول.. لكني قلت:

- لأني صدقًا أحبك...

تمنيت أن أخبرها أن حُسن وحدها من أخبرتني.. لكن حُسن وأمل وطاهر أسماء، تكره زوجتي سماعها، وأصبحت أنا من حبي لها أجيد إخفاءها!!

***

عندما حادثني طارق ذاك الصباح يطلب لقائي، رجوته كثيرًا أن يحضر إلى البيت أو المصنع.. لكنه رفض في إصرار واضح..

التقينا كالغرباء وسألته أما اشتاق والدي.. ألا يشعر بالرثاء له.. ألم ير كيف أصبحت حالته، يوم جاء في عزاء عمي مدحت رحمه الله! لكنه وبكل البرود أخبرني أن اللحظة التي رآه فيها في العزاء، هي ما جعلته يقرر ألا يفعلها مرة أخرى، وألا يحيا معنا تحت سقف بيت واحد..

ماذا كان يتوقع طارق يوم جاء للعزاء؟! هل كان يظن والدي يفتح له ذراعيه شبه المشلولتين، ويرجوه البقاء، وهو حتى ما جاء طلبًا لرؤيته، أو لقائه، بل جاء فقط لتقديم واجب العزاء لشهيرة، التي أعلم أنه يحبها هو الآخر؟!

لماذا يظن أنه بريء من ذنبي وذنب عجز والدي وسقوطه؟! حتى إن كانت مواد الدواء الخام التي أحضرها استبدلت في المخازن بأخرى أكثر منها سوءًا، فمازال هو وحده من فتح الباب لأطماع السارقين..

ألأني فتحت له ذراعيَّ بعد خروجي من السجن، أم لأني لم أقص عليه بكائي وارتعادي على حائط السجن الرطب؟! لأني لم أخبره كيف كانت ذراعاي اللتان حملتاه، وهو رضيع، وحدها تنظف دورة مياه مسجد السجن وتطهر أرضيته..

هل الصفح والتسامي عن تأنيب من ذبحنا يجعله يصدق أنه بريء من دمائنا؟!

كنت أنظر إلى وجهه الوسيم في ألم عميق.. ظننت الشوق دعاه.. ظننته يبحث عن باب، يتسلل منه إلينا، وإن كان بكبرياء.. والله كنت أرحب برجائه.. لكن ذاك البرود وتلك القسوة جعلتني وحدي أبتلع سكين الشوق وحنين الدم والعروق..

هل تعلمين لماذا جاء؟!

جاء أخي وولدي، الذي لم أحمل رضيعًا سواه بين ذراعيّ، يدعوني لحفل زفافه.. أحب وانتقى وخطب وحدد تاريخًا ومكانًا، وجاء يدعوني إلى زفافه..

«مبروك يا حبيبي.. مبروك»..

قلتها وأغمضت عينيّ، كأني أرجو دمعها ألا يخذلني.. لكني أفقت على صوته، يقول في رنة أفاقتني:

- العروس! ألن تسأل من هي؟!

شيء في عينيه قال إن خلف السؤال قضية.. أهو خنجر جديد؟!

ابتسامة صغيرة مريرة، كأني بها أخبره أن صدري مفتوح لتلقي ما شاء رشقه به..

انطلق خنجره الجديد معلنًا:

- هي وردة ابنة خال شهيرة..

لماذا وردة؟! لماذا عثمان القرنشاوي؟!

الحب؟! كيف وصل إليها، وهي تحيا في الشرقية؟!

لماذا وردة، وهو يعلم، كما أعلم أنا ويعلم أبي، أن والد عروسه هو شبح تكره شهيرة حتى سماع اسمه؟!

كان واضحًا كرهها له يوم ظهوره في حفل زفافنا..

كان طبيعيًا أن يسأل والدي وطارق يومها عن سر ذاك الألم، الذي شق صدرها حين رأته، وكان طبيعيًا أيضًا أن يسألا كيف لم تدع، هي أو والدها رحمه الله، خالها الوحيد، وهو رجل يشار له بالبنان لثرائه الفاحش ومركزه الكبير.. لأن ثراءه بُني على سرقة أخته، وحرمانها نصيبها في إرث والدهما.. نعم عثمان القرنشاوي لم يكتب اسم أخته في إعلام الوراثة، كأنها لا وجود لها.. وترفع مدحت عبد الرحمن عن مقاضاته، إكراما للراحلة والدة شهيرة..

شاء القدر أن يدعوه والدي يومها مع المدعوين، وربما كان يعلم أنه خالها من تحرياته.. دعاه لنعلم جميعًا تلك القصة، فلماذا يترك طارق بنات الأرض ويختارها؟!

أتراه يهوى إيلام شهيرة، أم أصبح إيلام من يحبونه حقًا هو مصدر متعته، وهدف بقائه الوحيد؟! لم أسأله، ولم يتطوع بالإجابة عن السؤال،

رغم ثقتي بأنه كان يراه يصرخ في عينيّ..

لا شيء.. شددت على كف أخي، سألته إن كان بحاجة إلى نقود، فهو مازال من عائلة عبد الجواد..

ابتسم وهو يخبرني أن مشاريعه المنفردة، وتلك التي أقامها مع عائلة القرنشاوي بدأت أرصدتها تقترب من أرصدة الأحرار على اجتماعهم.

ضممته إلى صدري، وأنا أفكر في شهيرة، وكيف أحمل لها الأنباء، وهي مازالت تتنفس نسيان فقدانها لوالدها، وتحاول أن تبرأ من حزنها عليه..

ضممت شقيقي، وقلت مبتسمًا:

- في انتظار بطاقة الدعوة، وأعدك أننا جميعًا سنكون هناك!!

***

لم تثر شهيرة.. لكنها كانت تموج غضبًا..

هل تعلمين ما أروع ما في الحب؟!

أن تضعي نفسك في ملابس من تحبين، لحظات قبل اللوم أو العتاب أو الغضب.. ولأني وضعت نفسي في ثيابها، علمت أنها غاضبة.. ولأنها وضعت نفسها في ثيابي، علمت أني لا أملك شيئًا..

ككل النساء، أقسمت أنها لن تذهب.. لكن حين أعلن والدي أنه من أجلها لن يذهب لانت إكرامًا له، وربما أيضًا ككل النساء أرادت أن يراها خالها، وهي في ثرائه، وفي أنوثة وجمال تطغى على ابنته العروس، ونساء عائلته بأجمعها..

انتقت أجمل أثوابها، تجملت كما لم تتجمل منذ أعوام.. أمسكت بيد والدي، ورأيتها ترفع رأسها في كبرياء من قرر سفك دم من أهدر يومًا دمه بالصمت والابتسام..

رغم جمالها الطاغي وحضورها الذي اشتعلت له قلوب جميلات الزفاف.. رغم التصاق والدي بها، وتعمدها الواضح لإظهار سطوتها عليه وعليّ.. رغم ماساتها الكبيرة التي تعمدت ارتداءها.. رغم بريق عينيها ورقصها الطويل على كتفيّ.. رغم انبهار وردة ذاتها وأخويها الشابين بشهيرة، كأنهم ما رأوها يومًا من قبل.. رغم كل شيء، كان رؤوف عبد الجواد يعلم أن بداخلها انكسارًا وحزنًا وغضبًا بلا حدود..

ورغم أنها حاولت إخفاء كل هذا بكبريائها وعنادها.. إلا أنني علمت ورأيت أكثر مما تظنني أراه..

علمت ورأيت لأني حقًّا أحبها بلا حدود!!

***

هناك ليالٍ لا تنتهي لحظة نغلق أعيننا، ونغفو على فراشنا طلبًا للنوم.. ليلة زفاف طارق تلك كانت إحداها..

كان الفجر تقريبًا حين ألقت شهيرة برأسها على صدري، وهي تستعيد أحداث الليلة، وتصف وجه خالها وأبنائه في غضب مكتوم، ثم يلين صوتها قليلًا، وهي تستعيد حنان زوجته، التي لا تحمل في عروقها دمهم، في استقبالها، يوم زارتهم شهيرة بعد تخرجها في الجامعة؛ طلبًا لإرث والدتها..

كانت تهمس على صدري، كأنها تئن، وهي تخبرني كيف طردها خالها، وكيف تمنت لو تضعه في السجن لتزويره ذاك.. لكن منعها والدها رحمه الله..

بقيت أمسح على شعرها في حنان، وأنا أخبرها أن الله عوضها خيرًا، عندما ترفعت عن الانتقام.. لم يعوضها ثروة عائلة الأحرار.. لكن عوضها حبي ووفائي..

أغمضت شهيرة عينيها، وهي تدس شفاهها في صدري قائلة:

- نعم.. عوضني بك الله، لكن أيضًا انتقم لي من خالي وأبنائه بهذا الزواج.. طارق سيذيقهم الأمرين، وهم أيضًا منه سينتقمون لعمي توفيق ولأعوام سجنك يا رؤوف..

ربما كانت شهيرة على حق.. لكن قلبي انقبض في تلك اللحظة..

أبدًا لا أريد لأخي ألمًا أو ذلًا، وإن كان ذاك أسمه العدل والقصاص..

حين بدأنا نغفو، دق هاتفي الصغير، وانتفضنا معًا..

ظننته ممرض والدي يستدعينا.. فأنا أعلم أن ليلة والدي لم تكن سعيدة هي الأخرى..

لم أصدق عيني أبدًا، وأنا أرى الرقم.

تجولت عيناي بين الهاتف وعيني شهيرة المفتوحتين في خوف لحظة، ثم أجبت لأسمعها تبكي وهي تصيح:

- لا أعلم ماذا أفعل.. أرجوك ساعدني.. وجدتُ أميمة تموت!!

***

وحدها.. حبيبتي شهيرة من وثبت من فراشها، تعد لي ملابسي، ووضعت لي فيها حافظة بطاقات الائتمان، وبعض النقود، وأيضًا هي من اتصلت بالسائق توقظه، وتطلب منه انتظاري بالسيارة.. أقسمت عليّ ألا أقود، وأنا بذاك الذعر، الذي رأته على وجهي، بالإضافة إلى آثار سهر الليل وحفل زفاف طارق..

عندما اعترضت على اصطحاب السائق، أخبرتني أنه لا وقت عندي للقيادة أو البحث عن مكان لإيقاف السيارة، فنحن لا نعلم بالتحديد ما حالة أميمة، وإلى أين تستوجب الحالة أن تذهب بها..

في طريقي إلى الخارج، استوقفتني شهيرة، وهي تضمني قائلة:

- أرجوك طمئني على أميمة..

لحظات وأنا أجلس خلف السائق، بعد أن أمرته بالإسراع إلى بيت طاهر.. لحظات استعدت فيها قدرتي على التفكير..

لماذا قالت أمل إنها وجدتها تموت؟ أين؟ وكيف وجدتها؟!

عدت أتصل بها كثيرًا، لكنها أبدًا ما فتحت خط الهاتف، أو عاودت الاتصال بي.. كان الفجر قد أطل على المدينة، وبدأت خيوطه تلقي شباكها على الطرقات.. ووجدتني أتذكر وجه شهيرة الملتاع على أميمة.. تذكرت أيضًا وجه طاهر، وغرقت في الخوف والألم..

هل تموت حقًّا أميمة؟ هل يستدعيها طاهر ليهدأ قلبه بوجودها هي وأميمته الكبرى؟ إياك طاهر أن تفعل.. أنا أريدها.. أمها الشابة الملتاعة تريدها.. حتى زوجتي ووالدي.. الحياة تريدها..

لا أدري لماذا سكنتني تلك الأفكار.. لكني كنت طوال الطريق أرى أميمة، وقد رحلت، وأرى وجه طاهر، وهو يبتسم ويضمها بين ذراعيه..

استغفرت الله كثيرًا وأنا أدعوه أن يبقيها.. رغم وجهها الهادئ وابتسامتها العزيزة، التي لم أرها إلا يوم كانت في بيتنا.. إلا أن حياة طويلة جميلة بانتظارها..

كم مرة نفضت رأسي أطرد عنه تلك الأفكار.. كم مرة حاولت الاتصال بوالدتها من جديد.. وكم مرة حادثتني شهيرة لتطمئن.. لا أعلم ولا أذكر..

ما أذكره أني حين الوقوف بباب طاهر، لم أنتظر المصعد.. ركضت على سلالم البيت في جنون، ووقفت أطرق الباب من خلف أنفاسي اللاهثة كأني أسدد اللكمات العنيفة ذاتها، التي وجهتها يومًا إلى وجه طلبة في السجن.. كأني أدافع، وأبحث عن قطعة من روحي، لا من روح طاهر وحده..

حين فتحت أمل الباب، صرخت أسألها لِمَ لم تجب على كل هذه المكالمات.. لكنها كانت تنتحب في جنون..

عندما نظرت إليها، وجدتها بكامل زينتها وملابسها، حتى حذائها بكعبه العالي، لم تخلعه عن قدميها..

أخذت تركض، وكنت أركض خلفها..

كانت أميمة محمومة، غائبة عن وعيها، وفوق جسدها أغطية كثيرة.. هل هي حمقاء؟! ألا تعلم أن المحمومين بحاجة إلى هواء؟!

كالمجنون بدأت ألقي بأغطية الفراش، بعيدًا عن جسدها، وأتحسس جبهتها وثنايا جسدها.. أحضرت لي أمل ما لديها من مخفضات الحرارة، لم تكن حرارتها وصلت الأربعين؛ مما لا يفسر أبدًا غيبوبتها. وقبل أن أسأل.. رأيتها تدس بين شفتيها قطعة سكر، وسمعتها تقول:

- دخلت المطبخ الآن.. لم تمس طعامها.. ربما كانت غيبوبة سكر..

نظرت إليها في جنون وصمت:

- أميمة مريضة بالسكري؟! كيف لم تخبريني؟!

أشاحت أمل بوجهها، وهي تقول في تهكم:

- هل هو شيء يفتخر به؟! وهل تركت شيئًا لم ترثه من والدها؟!

أحضرت لي جهاز قياس السكر، وفي اللحظات التي كنت أنتظر فيها ظهور الرقم، نظرت إليها قائلًا في ألم كبير:

- مرضها بالسكري ليس مذمة أو جريمة.. نخفيها يا أمل.. ثم هي لم ترث المرض من طاهر.. عندما يمرض الأطفال بهذا المرض لا يكون وراثة أبدًا..

كانت أمل تحاول دس قطعة جديدة من السكر بين شفاه الصغيرة، عندما رأيت الرقم، انتفضت في جنون ألطم كفها بعيدًا عن أميمة، وأنا أصيح:

- ليس نقصًا في السكر.. هي غيبوبة «خلونية».. غيبوبة أسيتون..

انثنيت أحمل أميمة بين ذراعيَّ، وركضت بها، وعند وصولنا إلى السيارة، صرخت في أمل أقول:

- ادخلي إلى جوار السائق..

شعرت أن أميمة مسئوليتي أنا.. وضعتها على ذراعي في المقعد الخلفي، وقاد بنا السيارة إلى أقرب مستشفى، ولا أدري لم في تلك اللحظة تذكرت كلمة جدي، رحمه الله، وهو يقول:

- قل «يا رحيم»!!

***

كادت أميمة تموت.. وكاد يصيبها الفشل الكلوي.. كانت أمها تضع بين شفاهها السكر؛ ليرتفع سكرها أكثر..

بعد ساعات، حين انتهت الإسعافات، وتم نقلها إلى إحدى غرف المستشفى، جلست إلى جوارها.. أمسك بكفها الصغيرة، وأرقب «الأنسولين»، وهو يتسرب إلى وريدها وهي غافية، كأنها في عالم بعيد..

كأنها طاهر في يوم السجن ذاك.. أنقذته من انخفاض السكر في دمه.. واليوم أنقذ ابنته من ارتفاعه في دمها.. يومًا كادت الأم تقتل ابنتها، كما كاد الصديق والطبيب أن يقتلا والدها!!

كيف أحبها إلى هذا الحد؟! وكيف حتى لا أعترف بوجود أمها، وأعانق كفها وحدي في هذا الجنون؟!

شعرت بالخجل، ونظرت إلى أمل أعتذر ودعوتها إلى أخذ مكاني.. لكنها نهضت تستقبل من دخل الغرفة، وسمعت صوت الزائرة تقول:

- ما إن ذهبا إلى المدرسة، حتى حضرت..

هو صوت النايات، والتفتّ أنظر إلى القادمة قائلًا:

- حُسن؟!

تلعثمت المرأتان.. إلا أن أمل، ورغم كل ما هي فيه، قالت في هدوء:

- هل سبق لكما التعارف؟!

كأن حضور حُسن إلى مكتبي ذاك الصباح، ما كان اتفاقًا بينهما..

شعرت بالضيق والدهشة من أم، مازال بإمكانها التفكير والتدبير لما تقول، وابنتها مسجاة أمامها غائبة عن وعيها..

قلت دون اكتراث:

- نعم.. التقينا.. زارتني حُسن في مكتبي، بعد خروجي من السجن..

اقتربت حُسن من أميمة، وتحسست جبهتها في حنان، ثم غابت هي وأمل دقائق؛ لتعود وحدها توضح:

- سيد رؤوف بإمكانك أنت أيضًا الذهاب.. سأبقى مع أميمة حتى الرابعة.. أمل ستعود عندها..

ذهبت الأم.. تركت ابنتها لي ولحُسن.. ذهبت تستبدل ملابسها، وتغفو كأنها وحدها من لم تنم..

لم أقل شيئًا.. لكني عدت أتحسس جبهة الصغيرة، وتنهدت.. هي أفضل وهذا يكفيها ويكفيني.

كانت حُسن تجلس على الطرف الآخر من فراش أميمة، وبعد صمت طويل، سمعت صوتها الحاني يقول:

- هل نحب يا رؤوف مرتين؟!

رفعت وجهي نحوها في دهشة.. ما الذي تقوله؟ وأين؟ ومتى؟!

لكنها كانت في هدوئها وفي ملابسها السوداء الأنيقة تتحدث، كأنها تلقي قصيدة أو تُنشد أنشودة، أكملت:

- يومًا أخبرت نديم أني أؤمن أن هناك الملايين من البشر يرحلون عن الدنيا، دون أن يعرفوا معنى الحب.. معه عرفت الحب.. حين رحل، أقنعت نفسي أن رصيدي معه يكفي حتى يوم لقائه.. كنت أغمض عينيّ في لحظات الخوف والضياع، أجترّ ذكرياتنا وعناقنا، وحتى لحظات شجارنا، ثم أنهض بعدها لأضم الولدين، أو أعارك «علي مختار»، وكل من هم مثله.. لكني أحببت.. رغمًا عني أحببت..

صوتها الرخيم.. تدفق الكلمات من شفاهها، تهدج صدرها، جعلني أنصت وأراقب يدها، وهي تُخرج كف أميمة اليمنى، وتطبع عليها قبلة صغيرة، ثم أكملت:

- أحببت طاهر حتى ظننت يومًا أني لم أحب النديم.. لهذا أحب ابنته وأخشى عليها من حبي.. كل من أحببتهم رحلوا وتركوني.. لا أريدها أن ترحل أبدًا..

لم أستطع أبدًا أن أمنع نفسي عن سؤالها، إن كان طاهر بادلها الحب أم لا.. ابتسمت حُسن، وقالت:

- هل تعلم ماذا قال لي قبل سفره، هو وأميمة؟!

قال: «أنتِ أروع من الخيانة».. هل تعلم بماذا أجبته؟
بعينيَّ المفتوحتين، سألتها لترخي هي عينيها على دمعتها العنيدة قائلة:
- آه يا رؤوف.. قلت له يومها: إن كنتُ أنا أروع من الخيانة، فأنت أروع من ألا أخون!!
***

خمسة أيام قضتها أميمة في المستشفى، تناوبت فيها حُسن وأمل على البقاء معها، وبدأت أتوق إلى لقاء حُسن، والجلوس إليها بعد ذاك الاعتراف الذي لا أنساه..

أميمة نفسها كانت تسعد بوجودنا معًا إلى جوارها.. شهيرة جاءت مرة واحدة لزيارتها، وهي تحمل لها هدية جميلة..

لم تلتق يومها حُسن أو أمل.. ولا أعلم لماذا شعرت بالسعادة لذلك.. في أمل شيء لا أحبه، ولا أريد لشهيرة أن تراه.. وفي حُسن شيء أحبه، ولا أريد لشهيرة أيضًا أن تراه..

حين عادت أميمة إلى البيت، وفي اليوم الأول لحرماني من وجودي معها أو مع حُسن.. شعرت بشيء كالوخز في صدري.. لم أكن أعلم إياهن بالتحديد أفتقدها، وأريد رؤيتها.. لكن ذاك المساء وضعت شهيرة رأسها على كتفي، حين عودتي قائلة:

- لا مستشفى؟!

ابتسمت في خجل وأنا أضمها قائلًا:

- غاضبة أنتِ؟! سامحيني..

ضمتني، وهي تهمس:

- أبدًا.. والله إن لم تكن إلى جوارها كما كنت، ما عرفتك.. رؤوف.. ضياء أصبح لا يطيق فراقك.. اشتقناك..

حين قبّلتها تلك الليلة.. حين أطلقت حبيبتي آهة شوق مكتومة من أنفاسها في طيات عنقي، شعرت أنها تريد أن تطمئن إلى أن رؤوف بأكمله مازال معها ولها..

رائعة شهيرة.. كبرياؤها لا تسمح لها أبدًا بإعلان خوفها أو غيرتها..

ضممتها وانحنيت أقبل وجهها وشعرها الغزير الرائع ألف ألف قبلة.. وحين زحفت بأصابعها لإطفاء ضوء المصباح الصغير، الرابض جوار فراشنا، أمسكت كفها قائلًا:

- أريد أن أراكِ..

كانت عيناها مغمضتين، وجسدها العاري مصبوغًا بشوقه وانعكاس ضوء المصباح المشتعل.

كل شيء في شهيرة رائع وشهي كنعقود كرز بيروتي..

في تلك الليلة، رأيت كل قطعة في جسدها تبتسم، وابتسمت، وأنا أقبلها من جديد.. أذكر أني سألت نفسي يومها إذا كان هناك رجال ونساء يمارسون الحب، مغمضي الأعين؛ ليتخيل كل رجل امرأة أخرى، وتستحضر كل امرأة رجلًا آخر تريده.. فلماذا نفعل أنا وشهيرة، وهي كل ما أريد، وأنا كل ما تريد.. رغم هذا.. رغم بريق وجهها ورقة ملامحها في لحظات الحب، إلا أنها كانت المرة الوحيدة التي نلتقي فيها مفتوحي الأعين.. ربما لأرى وأشهد أن اشتياقي لمجالسة حُسن أو الحديث إليها قد يكون أي شيء إلا الحب.. الحب كله هو شهيرة!!

كانت يومها غير الأيام.. حتى تلك الليلة التي التقينا فيها بعد خروجي من السجن.. كنت أقبّلها وأهمس في أذنيها.. أقسم أنها في روحي أشهى نساء الأرض ولا سواها في قلبي وعروقي.. رغم ثقتي أنها تعلم، ورغم علمي أنها تثق.. إلا أن تلك الكلمات جعلتها تضمني أكثر لتتوهج وتشتعل.. لتعود وتأخذ مني وتمنحني ما قد تمضي أعوام، وتموت أجيال دون أن تتذوقه، أو تعرفه امرأة أو رجل على وجه الأرض..

منحتني شهيرة روحًا وحبًا وجسدًا رائعًا يوم تزوجتني، وصانته لي أعوامًا أيام سجني، وأشعر اليوم أني فتت روحها ولوثت طُهر جسدها بعد خطيئتي.. آه.. لو تغفر، ولكن حتى إن غفرت، كيف أنا أو هي من الذكرى نتطهر؟!

***

ما عاد بعد تلك الليلة يعنيني أن أعرف شيئًا عن حقيقة ما جمع طاهر وحُسن، بل ربما قررت ألا أفعل..

لا أريد لطهر حُسن ووفائها للنديم أن ينهار في عيني، ولا أريد لقوة طاهر ومبادئه أن تسقط بسقوطه أمام امرأة، حتى لو كانت في بهاء حُسن.

أصبح كل ما يجمعني بها أحاديث هاتفية قصيرة متباعدة، أؤكد لها دومًا - من خلالها - أني موجود إن يومًا أرادتني.. موجود لأن طاهر أحب قضيتها ووفاءها لا شخصها.. ولأني أحترم نقاءها وحنوها على أميمة..

أمل هي التي بدأت تطاردني بألف قصة وسبب..

لا أكتمك الصدق.. استأت كثيرًا يوم مدت يدها نحوي بفاتورة المستشفى، كأنه واجب عليَّ أن أسددها.. والله ما كنت سأتركها تفعل.. لكني شعرت بدهشة مشوبة بشيء من الازدراء.. تمنيت لو حتى تخبرني أنها ستسدد المبلغ؛ لأخبرها أني لن أقبل.. لكن لا هي فعلت ولا أنا استطعت أن أنسى لها ذاك..

أميمة هي حبيبتي.. هي ابنة صديقي ورفيق سجني.. وحدها تهمني.. أصبح صباح السبت مخصصًا لها.. إما، أن أمر لتهبط إلى سيارتي، ونذهب لتناول الغداء في مكان ما، أو أن أرسل لها السائق لتقضي اليوم معنا جميعًا في المنصورية..

بدأت أميمة تتحرر من حزنها وانكسارها.. بدأت تتحدث وتضحك وتركض.. حتى والدي بدأ أحيانًا يطلب منها أن تحضر له كوب ماء، أو يضمها بين ذراعيه..

كانت تتحدث كثيرًا عن أصدقائها ومدرستها.. أعلنت لي مخاوفها من مرضها، وبدأت أنا وشهيرة وزياد نحادثها، ونؤكد لها أنها ستحيا كأي امرأة كانت، وسيكون لها من الأطفال ما شاءت..

كان واضحًا أن أمل كانت، دومًا، تُشعرها أن طاهر ما أورثها إلا المرض والفقر.. ظننت أن هذا وحده سبب نفورها من أمها، وبقيت طويلًا أؤكد لها أنها تحبها لكنها تجهل حقيقة داء السكري، وأنه أبدًا ليس وراثة، وإن كان.. فأي أب ذاك على الأرض يملك أن يُورث أو لا يُورث أبناءه مرضًا، هو نفسه لم يختر أن يُبتلى به..

ظننت هذا وحده سبب نفورها من أمل.. لكن كانت هناك قصة أخرى ما تمنيت أن أعرفها أبدًا..

***

ليس كحب الأطفال حب..

إن أحبكِ طفل.. إن بحث عن ذراعيك، وطلب الحديث معك.. إن هو حقًّا أصغى إليك، ثم قال بصدق يومًا إنه يحبك فلتعلمي أنك تذوقت من الأرض أجمل ما فيها..

أصبح ضياء صديقي وحبيبي.. علمت أن ما أخبرني به طاهر في السجن يومًا عن حب الأبناء هو الحق.. غسل عني حب ضياء كل الترهات القديمة، وجعلني من والدي أكثر اقترابًا، ومعه أكثر تسامحًا وحنوًّا..

حنان ابنة زياد وحتى لقاء الصغيرة.. لكل منهن لمسة ورائحة لا تعادلها لمسة أو رائحة أخرى..

الحياة دون الأطفال ليست حياة، وأيضًا أطفال دون حياة نابضة بالحب والصدق ليسوا إلا جحيما وعبئًا فوق الأعباء التي لا تطاق..

لأن أميمة سكنت قلبي وروحي.. ولأني كنت أتلمس فيها وجه ورائحة ذاك الطاهر الغائب، أصبحت مني ومن عائلة الأحرار بأكملها جزءًا له مكانته وحقوقه، التي لم يعترض عليها أحد منهم..

كانت أميمة رغم طفولتها ورغم اختلاطها واحتكاكها بابني وبنتيْ عزة المدللين لم أرها يومًا تطلب شيئًا، أو حتى تتمنى امتلاكه..

لم أرها يومًا تلقي في طريق أذنيّ بما كانت تلقيه أمل، بين حين وآخر عن شيء تريده، أو شيء تعجز عن امتلاكه.. ربما لهذه الكبرياء، كنت أتمنى لو تخبرني يومًا بأي شيء، تتوق إليه طفولتها وصباها.. لكنها أبدًا لم تفعل يومًا..

في كل مرة تقضي يومها في المنصورية، كانت شهيرة تحاول بصدق - وعزة معها - أن نعلم ماذا تريد، وماذا تحتاج.. لكنها أبدًا لا تقول، حتى كان ذاك المساء الذي قبلتني فيه، وهي تودعنا في طريقها إلى بيتها، ثم قالت كأنها ترجوني:

- هل تأخذني أنت أم السائق؟!

لم أعلم لحظتها لِمَ شعرت أنها ترجوني أن أذهب بها.. ولكن الآن بإمكاني أن أخبرك أنها ربما حتى ما أرادتني أن أذهب بها.. فهي معتادة أن يعيدها السائق إلى بيتها.. لكن هو القدر الذي شاء لها ولي أن تسأل ذاك السؤال، وأن أراه أنا رجاءً، أو ربما كنت أريد الاستزادة منها، فنهضت في هدوءٍ أعلن أني أنا من سيوصلها إلى بيتها..

دهشة صغيرة لاحت في عيني زياد، وأخرى في عين والدي.. لكن شهيرة وحدها سألتني إن كان هناك شيء صدر من سائقنا، يجعلها ترفض الذهاب معه، فأجبتها أني لا أعلم.. لكني أريد فقط أن أذهب بها..

منحتني إحدى أجمل ابتساماتها، وأنا أفتح لها باب سيارتي، وقفزت إلى المقعد المجاور، وقالت في سعادة:

- أحب الجلوس إلى جوارك كثيرًا..

ما عادت طفلة.. صبية جميلة بطولها الفارع، وشعرها الناعم، وعينيها الحالمتين..

انطلقت تتحدث، وتستعيد كلمات ضياء، ومناوشات حنان، وهمهمات لقاء في سعادة كبيرة، انطفأ كل هذا في لحظة عندما أرسلت لي بقبلة على باب بيتها، وما إن هبطت من السيارة حتى رأيتها تلتفت خلفها في ذعر كبير، ثم عاودت الصعود إلى جواري قائلة:

- لن أصعد الآن.. أرجوك أنكل رؤوف..

لم أفهم كيف في لحظة ماتت على شفتيها الفرحة والكلمات، نظرت حولي أبحث عن ذاك الشيء الذي رأته أميمة؛ ليجعلها تتصرف على ذاك النحو.. لكن لا شيء..

مدخل بيتها كان خاويًا ولا شيء سوى بعض السيارات، التي تقف إلى جوار الرصيف..

أكثر من مرة سألتها.. لكنها أبدًا لم تجب.. كانت فقط ترجوني أن تبقى معي لحظات أخرى...

رأيته يغادر البيت.. ورأيتها تنتفض، وهي تراقبه يدخل سيارته، عدت أحملق في الرجل الذي أثار في جسدها الذعر..

أعرفه.. نعم أعرفه.. ولكن هل هو من تخشاه؟!

لم أجرؤ على سؤالها أبدًا.. بقيت فقط أتجول بين وجهها ووجهه.

كان واضحًا أنه في أسوأ حالاته.. كان وجهه مكفهرًا بالعصبية، وملابسه تبدو كأنه كان في عراك وليس زيارة..

ربما كان يسكن هنا.. من يدري؟! لكن وجه أميمة.. نظراتها وقسمات وجهها، التي ارتخت بعد ابتعاده بالسيارة، أشعلت مزيدًا من الشبهات في رأسي، ووجدتها تضع يدها على مقبض الباب، تهم بفتحه قائلة:

- سامحني أنكل رؤوف.. الآن يمكنني الصعود.

أنا من أمسكت بيدها هذه المرة، وقلت في حزم:

- مرتضى.. كان عندكم؟!

كأنها تسقط في بئر سحيق.. قالت باكية:

- أنت تعرفه؟!

لا أدري متى أو كيف قررت أن أصعد بها.. لكني فعلت..

أردت أن أمنحها شعورًا بأني معها، وأردت أن أرى شيئًا يقتل شكوكي في مظهر الرجل، وهو يغادر بيت طاهر في ذاك الوقت، وعلى ذاك الوضع..

حين فتحت أمل الباب، ذابت كل آمالي وتحولت شكوكي إلى يقين..

كانت شبه عارية.. قميصها الوردي، الذي لا يحمله على جسدها إلا شريطتان من الساتان، إحداهما سقطت على كتفها؛ ليظهر جزء كبير من صدرها الأبيض المستدير.. شعرها الثائر وآثار ألوان زينتها الباهتة جعلتني أقف أمامها كذئب جريح..

كان واضحًا أنها تبكي، وكان واضحًا أنها كانت بين ذراعيه..

تسللت أميمة من جوارها في هدوء، واختفت بعيدًا في غرفتها.. لم تحاول أمل أن تستأذن لوضع شيء على جسدها، بل إنها لم تحاول أن ترفع شريطة الساتان، التي سقطت، كما سقطت هي من عيني تلك اللحظة..

لحظات طويلة مرت، وأنا أنظر إليها في قسوة، وباب البيت مفتوح.. كأنها تحاول أن تعلم لماذا جئت، أو في ماذا أفكر..

تقدمت نحوها، وأغلقت الباب ممسكًا بذراعيها، وقلت كأني أئن:

- لماذا مرتضى؟! ومنذ متى؟!

صاحت أمل في جنون، تحاول الإفلات من ذراعيَّ قائلة:

- المجنونة.. ماذا أخبرتك؟! ماذا قالت لك؟!

أحكمت كفي على معصمها أكثر، وقلت في غضب مكتوم:

- أميمة لم تقل شيئًا.. أنا رأيته.. أعرفه يا أمل.. قضيت معه أعوامًا ثلاثة تقريبًا... لماذا؟!

انطلقت أمل كالقذيفة تصرخ وتبكي وتهذي.. أخبرتني أن طاهر لم يكن رجلًا.. لم يترك لها سوى الفقر، وعار السجن، وطفلة مريضة بمرض أورثها إياه بجنونه وما يزعمه مبادئ..

صاحت تقول إنها شابة صغيرة لا خبرة لها، وأن مرتضى أوهمها أنه سيساعدها.. لكنه بدأ يتخلى عنها؛ لأنه يشعر أن مشاعرها تغيرت..

رفعت ذراعي الأخرى، وأمسكت بكلتا كتفيها، متجهًا بها نحو أقرب المقاعد، وأجلستها قائلًا في صوت خفيض:

- عندما تكون في البيت طفلة على أعتاب المراهقة، لا نرفع أصواتنا.. وعندما تتزوج امرأة مثلك رجلًا مثل طاهر، يجب أن تتعلم العفة.. طاهر أورثك اسمًا يبقى العمر ولا يموت.. طاهر منحك ابنة، والله لو أخذوا ثروتي كلها، وتصبح ابنتي لفعلت.. عندما تضاجعين صديق زوجك في بيته وعلى فراشه، وعلى مسمع ومرأى من ابنتك الشابة.. فأنت يا أمل تمامًا كما وصفك طاهر يومًا «صغيرة».. لا تستحقين إلا رجلًا في دناءة مرتضى.. طاهر لم يتركك فقيرة.. أين ثمن الأرض؟! أين ثمن الأرض يا أمل؟!

انهارت أمل، كما لم أتوقع.. أو حتى أتمنَّ أن تفعل..

انهارت كأنها كانت تتمنى أن تنهار بين يديْ أول طارق يدق بابها.. أخبرتني أن مرتضى استولى على كامل ثمن الأرض، بعد أن أوهمها أنه

سيدخل معها في استثمار كبير..

أخبرتني أنها تعلم أنها أخطأت.. لكنها كانت تحاول أن تسترد منه النقود أو حتى جزءًا منها.. لكنها تعلن يأسها، وترجوني التدخل.. ولا تستطيع صده ولا تستطيع استعادتها..

منحته النقود دون حتى سند استلام واحد أو عقد شركة.. لكن عندما تمنح امرأة رجلًا كهذا جسدها، فأي شيء تجد منه غير الخزي والنكران؟!

كنت أرقبها وهي تتحدث.. كنت أتجول بعينيَّ على جسدها الرائع، وأقف على ملامح وجهها الجميلة المنمنمة.. كيف لم تعشق طاهر؟! كيف تكون بهذا الجمال، ولا تعرف أن الجمال في الطهر والوفاء أجمل وأغلى؟!

نحن جميعًا مثاليون عندما نتحدث عن سوانا. نحن جميعًا نظن أننا أقوى وأطهر من كل المذنبين، حتى لحظة سقوطنا في الخطأ.. لحظتها نعلم أنه لا إنسان فوق الخطأ..

ربما الخطيئة هي الأخرى درجات ومراتب.. لكن نحن لا ندرك هذه الحقيقة أبدًا، إلا إن سقطنا يومًا في الخطأ..

نحن دومًا إما أن نكون جلادين أو نادمين..

أبدًا لا نمنح العذر.. أبدًا لا نتردد في إصدار الأحكام ونصب المشانق..

في تلك اللحظة، نهضت عن مقعدي، وتوجهت في صمت نحو باب البيت أحاول الخروج.. لكن أمل ركضت خلفي وأمسكت بجسدي بأكمله بين ذراعيها وصاحت تردد:

- رؤوف.. أرجوك لا تتركني.. من أجل أميمة .. لم يعد عندي شيء.. معاش طاهر لن يكفيها حتى الخبز.. رؤوف.. طاهر مات مع أميمة.. أنا لم أحيَ معه.. فلماذا تريدني أن أموت معه؟!

كانت تبكي في جنون، وتحاول أن تصل إلى صدري.. لكني أبدًا لم أستدر نحوها.. كنت أشعر بدفء جسدها على ظهري، وبكائها وتمزقها.. لكن أبدًا لم أرق لها لحظة واحدة..

حين يئست.. حين هدأت دمعاتها.. نزلت على سلالم بيت طاهر، وأنا لم أر وجهها لأرى موضع قدمي من دمعاتي الغزيرة، التي غزت عينًا أحبت طاهر، ورأت زوجته غارقة في الإثم والوحل!!

ناقم عليها أنا حتى الموت.. والله إن لم تكن أميمة في غرفتها، لأوسعتها لومًا وتجريحًا.. من يعلم ربما كانت على علاقة به، وطاهر على قيد الحياة، بل هي كذلك؛ لهذا كان يصفها بالصغيرة..

لا يا طاهر ليست صغيرة.. هي ضئيلة..

تركت رجال الأرض، واختارت صديقك لتسلمه جسدها ونقودك، وتذبح به قلب وكرامة أميمتك..

دنيئة أمل في دناءة مرتضى عبد الغفور مأمور السجن!!

***

عندما دخلت حُسن مكتبي في الصباح التالي، جلست في هدوء، وبدأ عراك أصابع كفيها.. لم أنتظر حتى تتحدث.. علمت أنها جاءت من أجل ما حدث في الليلة السابقة..

تركت مكتبي، وذهبت إلى مقعدها، وانحنيت عليها قائلًا:

- هل يستحق طاهر أن يُخان؟!

رائعة حُسن عندما تتحدث.. صوتها يسري كتراتيل سماوية في أوصال من يسمعها، دون استئذان أو دراية.. رفعت وجهها نحوي، تشهق قائلة:

- لا يا رؤوف.. ليس هناك رجل يُخان ورجل لا يُخان.. المرأة عندما تفعلها تخون نفسها لا رجلها.. تخون مبادئها وقيمها.. ليس هكذا السؤال.. نحن لا نقول من خانت المرأة، لكن الصواب أن نقول من هي المرأة التي تخون! أنا وأنت نعرف من هي أمل.. جميلة مثيرة.. لكن لا مبادئ خلف هذا الجمال.. فَلم اللوم إذًا؟!

نحن لا نسأل من خانت المرأة.. لكن نسأل من هي المرأة التي تخون، وبعدها نقرر إن كانت خيانة، أم زلة، أم شيئًا آخر..

كيف لم أفكر يومًا بهذا المنهج؟! تذكرت جدي وتنهدت!!

حقًا منصور عبد الجواد لا يُخان.. لكن جدتي كانت امرأة تخون.. زهرة أنقى من الخيانة.. شهيرة امرأة لا تخون، وحُسن أيضًا امرأة لا تخون..

عدت إلى مكتبي.. أجلس ونظرت إليها كأني أعتذر.. اليوم علمت أن طاهر لم يجمعه بها شيء، وإن جمعهما الحب.. فهو لم يمسها، ليس لأنه فوق الخيانة فحسب، بل لأن حُسن امرأة لا تخون..

هل تصدقين سيدتي أني، وبعد اكتمال قصتي، التي قاربت فصولها على الانتهاء، أظنني أوجه اللوم إلى كل رجل خانته امرأة.. لا لقسوته عليها أو إهماله لها، ولكن لانتقائه لها..

نعم.. هناك نساء لا تخون!!

لم تكن حُسن تعلم بكل ما يدور في رأسي، فعادت تقول بعد لحظات:

- هذا لا يمنع أن مرتضى عبد الغفور دنيء.. بل هو لص يا رؤوف.. سرق نقود فتاة صغيرة وابنة صديقه.. لو أسلمته أمل نفسها راضية، فلا لوم عليه.. لكن كيف يبيح لنفسه ما فعله بأميمة؟!

رؤوف.. لن تتخلى عنها.. أمل حقًا لا تملك شيئًا الآن..

كنت أعبث بأوراق مكتبي، وكلماتها مازالت تعبث بتاريخي القديم والجديد وسألتها:

- كنت تعلمين قصتها معه؟!

بابتسامة مريرة قالت:

- نعم.. طاهر أيضًا كان يشك، أو ربما كان يعلم.. لكن ما تصورت لحظة أنه قبض منها ثمن الأرض..

حتى الدناءة كنت أظن أن لها حدودًا..

حقًا لكل شيء حدود.. لكنها غالبًا ما تكون أبعد من تلك، التي رسمناها وظننا وهمًا أنها خط النهاية!!

***

أيام طويلة أفكر وأتألم.. أيام جُنت فيها أمل، وأصبحت تطاردني على الهاتف بلا وعي أو تفكير..

ذهبت إلى مأمور السجن؛ حيث أعرف مكانه وسمح لي بلقائه، وبعد أن صافحني في برود كبير، قال في اقتضاب:

- أمازلت تريد أن تعرف من خلالي شيئًا عن أرملة المرحوم وابنته؟!

في هدوء، لا أظنه استطاع أن يخفي ازدرائي له، أجبت:

- بل جئت لأني عرفت عنهما كل شيء.. عرفت صلتك بها.. بزوجة صديقك الذي هنا، وعلى باب هذا المكتب كاد يموت، وكدت تموت عليه حزنًا.. هو مات وأنت ستترك ابنته تموت جوعًا، بعد أن أخذت الشيء الوحيد، الذي تركه لها أبوها، وبعد أن قتلت بالعار أمها في عينيها.. هل كنت تكره طاهر إلى هذا الحد؟!

في استعلاء كبير، رفع حاجبه قائلًا:

- صدّقتها.. صدّقت غانية؟!

ذبحتني الكلمة كأنه عن زوجتي قالها.. لكن كلماته بعدها كانت أكثر قسوة ودناءة..

أنكر أنه أخذ منها مليمًا، بل أنكر أنه يعرف بقصة الأرض، وعرفت ألا فائدة.. مازال بإمكانه أن يؤذيها أو يؤذي أميمة.. من فعل فعلته، يفعل ما هو أكبر.. أحمق أنا إن ذهبت إليه.. أو ظننت أنه قد يخجل أو يعترف أو حتى يبدي إشفاقا أو ألمًا..

نهض عن مقعده بعد دقائق، وهو يخبرني أنه لن يسمح لي بدخول مكتبه.. إلا إذا كان اختياري أن أدخله، كما كنت أفعل داخل حلة السجن الزرقاء..

كان يهددني لكنه لم يخفني.. بثروتي وعلاقات والدي، التي بعينيه علم اتساعها، حين كنت سجينًا، كان يدرك أني بما يقول لا أبالي..

على باب ذاك المكتب، قلت له:

- التاريخ يعيد نفسه.. ترى مع من سيفعلها معك؟!

اتسعت عيناه حتى كادتا تشعل تحت أقدامي نارًا، تمنيتها لو تمسك به، ولا تتركه إلا رمادًا، ألقي به في مراحيض السجن.

خطوت نحو سيارتي، وأمسكت بهاتفي قائلًا:

- الحق معك يا حُسن.. ليست للدناءة أبدًا حدود!!

***

أذكر أني توجهت إلى أمل، بعد خروجي من مكتب المأمور، في سجن طرة.. حادثتها قبل وصولي، وأخبرتها أني منه وإليها أتوجه..

كانت حقًّا في حالة مزرية.. أخبرتني أنه حادثها، بعد خروجي من مكتبه.. كانت تتلوى من الألم، وتعض على شفتيها، وهي تستعيد كلماته الدنيئة التي سكبها في أذنيها..

انخرطت في بكاء عنيف، وهي تردد:

- أستحق كل كلمة قالها لي.. أسلمته نفسي.. أستحق ما هو أكثر.. رؤوف.. لا تتركني أرجوك..

كانت بداخلي عليها ثورة لا حدود لها.. كان بداخلي جنون وانكسار أحمق.. كنت أسمع كلمات المأمور، تتردد في أركان جسدي، وهو يصفها بالغانية ويلمح لي بأني، ولا شك، سأخوض معها في فراشها رحلة يضمن لي أنها تستحق بعضًا من ثروتي..

تمنيت لو أسحق ضلوعها تحت حذائي.. كأن بكاءها وانكسارها ما كان يكفيني..

اقتربت أمل مني وجثت على ركبتيها تحت مقعدي.. وضعت رأسها على ركبتي تبكي في جنون.. انتفضت أنهض عن مقعدي، ونهضت بها قائلًا:

- لا تقتربي مني أبدًا ما حييت..

أمل.. توقفي عن البكاء وأنصتي جيدًا.. أراكِ أفعى.. أتمنى لو أقطع رأسها، لكن من أجل أميمة لن أفعل.. هي مسئوليتي.. جميع مصروفاتها ومستلزماتها أنا ملزم بها حتى الممات.. سيصلك مبلغ شهري للبيت، وسأجد لك وظيفة في مكان ما.. ستخرجين إلى العمل.. كنت تعملين مع طاهر يوم رميت شباكك حوله.. لكن أحذرك.. رجل ما لن تطأ قدماه هذا البيت بعد اليوم.. إن أردت ممارسة دناءتك فيجب أن يجد لك رجلك مكانًا بعيدًا عن بيت طاهر.. والله يا أمل لو كلفني الأمر، سأعين من يراقبك، ويتبعك في كل خطواتك.. هذا الجسد الذي تتاجرين فيه احمليه بعيدًا عن ممتلكات طاهر، وبعيدًا عن عيني ابنته..

كانت ترقبني في ذهول.. وقفت كالمصلوبة مستندة إلى جدار الحائط، وبقايا دمعها تغالب البقاء على وجنتيها..

كان صدرها يتهدج بأنفاسها المتقطعة حتى تظنني أنها تكاد تلفظ روحها، وكنت أتمنى لو أنها حقًّا تفعل..

لم أشفق عليها، بل أشعل انكسارها ثورات أكبر بداخلي، وجنونًا أعلى، فعدت أصيح:

- إن قررت الزواج يومًا، ستتركين هذا المكان.. أميمة ستذهب معي.. أنا بها أولى.. أنا بداء السكري الذي تكرهينه فيها أرحب.. بنقائها وطهارتها التي لا تعرفينها أسعد وأشرف.. لِمَ أحدثك عن أشياء لا تعرفينها؟! هل فهمت ما أقول بعيدًا عن النقاء والشرف؟!

أغمضت عينيها كأنها تبتلع السكين؛ لأنه ما عاد أمامها سوى أن تفعل، قالت في سكون كأنها تحتضر:

- ربما نصبت شباكي يومًا حول طاهر لأتزوج الصحفي الكبير، الذي تعشقه القلوب.. والأرمل الوفي الذي جعل مني جسرًا صغيرًا لتحقيق حلمه وحلم امرأة ميتة، ثم أهملني وكره حتى النظر في وجهي، بعد أن انتهى دوري كأنه هو من رسم شباكه حولي.. ربما لا أستحق رجلًا في طهره ومبادئه.. ربما سقطت تحت أقدام مرتضى، عندما لوح لي بالقوة والحب والحماية.. ربما أكون حمقاء يوم منحته كامل النقود، ظنًّا مني أننا سنستثمرها معًا، وأصبح، ويصبح طاهر معي من الأثرياء مثلك..

لكن.. والله ما لمس مرتضى جسدي، إلا بعد رحيل طاهر، رغم هجره له منذ أعوام..

كانت عينا أمل مفتوحتين وهي تتحدث، كأنها تبحث عني لتراني، ولا تستطيع.. وعادت من خلف أنفاسها اللاهثة تكمل:

- قد أكون حمقاء.. ضعيفة.. عشقت رجلًا يحدثني عن جمالي، لا عن جمال امرأة ماتت منذ أعوام.. ربما أكون غبية، عندما منحت النقود لرجل شرطة، منحته الدولة ثقتها، وأجرت له ألف اختبار قبل حتى قبوله في كلياتها؛ مما ينفي أن تختار لصًّا حقيرًا؛ ليكون على شئون البلاد وأبنائها وليًّا.. ربما يا رؤوف سقطت أمام جوع جسدي وظمأ روحي إلى كلمة تحيي أنوثتي، وحلم يحفظ كرامتي أنا وابنتي.. وحتى طاهر قبل وفاته.. لكني لست أبدًا «غانية»..

خبأت وجهها بين كفيها بعد تلك الكلمة، وبكت من جديد، كأنها تنفجر.. ليتني أشفقت عليها.. حتى ما أجهزت عليها..

أنا مضيت نحو باب البيت قائلًا:

- ما عاد عندي شيء يضاف!! سوف أرسل السائق كل سبت ليحضر لي أميمة!!

***

الآن وأنا أفيق شيئًا فشيئًا، بعد كل سطر أكتبه لك.. أسأل في ذهول.. من أنا لأحاسب؟! من أنا لأصدر أحكامًا؟! من أنا لأنعت إنسانًا بصفة، أو أقرر له كيف يحيا أو كيف يموت؟!

من منا يفعلها؟! وكيف؟ ولماذا نمنح أنفسنا الحق؟!

إن كان المذنب أحمق ضعيفًا، سقط تحت تأثير أي شيء كان ليرتكب فعلة، ما نراها خطيئة، فنحن أكثر منه حماقة إن نصبنا أنفسنا قضاة عليه وجلادين له..

مسكينة أمل.. ليتها حين حاولت وضع رأسها على ركبتيّ تركتها تفعل.. ليتني مسحت على رأسها في هدوء، وأخبرتها أن قضيتها مع الله وحده.. هو أولى وأعلم وأدرى بها من سائر البشر..

والله ما فعلت ذلك فيها تحكمًا من أجل مال، قررت إنفاقه عليها أو على ابنتها.. والله ما فعلته ازدراءً لها أو لشخصها، ولا إيمانًا مني بأنها ساقطة كما قال المأمور..

نعم التاريخ يعيد نفسه.. لكن نظنه مع سكان الأرض أكملهم يفعل، ويأتي أمامنا، ويحني رأسه في خجل؛ لأننا نظن أنفسنا فوق الخطأ والخطيئة..

اليوم أمثل أمامك، وأنا أكثر منها شعورًا بالخزي والضعف والمهانة.. أعرف شعور أمل جيدًا في تلك اللحظة.. بل ربما لو كنت أمامي تجلسين لانثنيت على ركبتي أقسم لك أني لست بالدناءة، التي قد تنعتينني بها، مثلما حاولت يومها أن تفعل.. أتراك إن فعلت، لا تكونين في قسوتي؟!

هل الأدباء أكثر حكمة.. أكثر إدراكا.. أكثر رحمة وإشفاقًا وترفعًا عن نصب المشانق، وذبح من جاءوهم، وهم في دمائهم يتعثرون؟!

لا أحد فوق الخطأ، ولا أحد بيده الصفح إلا الله..

لِمَ أكتب إليك إذًا؟! لأن جريمتي طالت قلب امرأة نقية، أريدها أن تعلم أن حبها ووفاءها ونقاءها ليس خطيئة..

أريدها أن تعلم أن خطيئتي قد تسمى «خيانة».. وقد تستحق كل الأحكام، إلا النفي والإعدام!!

***

لم أخبر شهيرة شيئًا عن قصة أمل.. لم أخبر أحدًا.. عادت الأمور تخطو وفق نظامها الجديد..

أميمة تزورنا وتقضي معنا كل سبت.. أمل التحقت بالعمل سكرتيرة في شركة أحد أصدقاء والدي بمرتب شهري كبير.. ورغم هذا بقيت شهورًا أرسل لها مع سائقي مظروفًا به مبلغ يصرف من بند معونات وزكاة الأحرار، التي حرص والدي على تعليمنا أن نحافظ على إنفاقها في وجوهها..

لم أحاول حتى السؤال عنها، ولم تحاول منذ ذاك اليوم محادثتي مرة واحدة.. حتى جاء ذاك السبت، الذي وقفنا نودع جميعًا أميمة، في نهاية زيارتها لنا، وضمتني إلى صدرها وهي تقول:

- شكرًا أنكل رؤوف.. كل شيء في حياتنا تغير.. حتى أمي أصبحت أفضل.

ابتسمت وأنا أقبلها دون حتى أن تستوقفني الكلمة.. دون أن أكلف نفسي عناء جملة، أخبرها بها أن أمها هي دومًا الأفضل، وإلا ما عادت إلى صوابها..

في أعماقي كنت أرى أمل امرأة ولدت وتموت ملوثة..

تلك الليلة ضممت شهيرة إلى صدري في حب كبير وسعادة حقيقية.. الأحرار أصبحت من أكبر شركات الأدوية.. ضياء من أروع الأبناء وأكثرهم تعلقًا بوالديه... أمل أصبحت أمًّا أفضل بشهادة ابنتها.. أنا صنعت هذا.. بحكمتي وحبي وصبري وقسوتي..

نظرت إلى وجه شهيرة بين ذراعي، وقبلتها قبلات كثيرة طويلة، أخذتها بعدها بقوة.. تلك الليلة، وعندما هدأت شهيرة على صدري، تحبس أنفاسها.. رفعت وجهها عن صدري، ونظرت في عينيها قائلًا:

- هل تعلمين أننا نختلف؟ ليس الحب فقط.. لكن أنا وأنت فوق كل رجل وامرأة..

لم تقل شيئًا.. كانت غارقة في نشوتها.. كان لقاءً رائعًا.. لكنه كان اللقاء الأخير.. لو كنت أعلم لأطلت عناقها، وأطلت سكناي في جسدها.. لكن كنت مسكونًا بالغرور.. ومن يسكنه الغرور، لا يبقى أمامه سوى أن يسقط، ويعلم أنه لا أحد أفضل.. أبدًا!!

***

كنت في مكتبي، عندما دخل سكرتيري الخاص، يحمل أوراق البريد اليومي؛ حيث انحنى يقول في تردد:

- سيد رؤوف.. هناك رسالة خاصة على بريدك الإليكتروني، هي الأولى في الأوراق.. أرجو أن تطَّلع عليها بنفسك..

كان يتحدث في خجل، وصوته منخفض..

رفعت عينيّ أنظر إليه في شيء من الاستعلاء..

أحيانًا وعندما يكون يومي مشحونًا، أحيل بريدي إلى شهيرة.. لكن عندما رأيته يلتقط الورقة الصغيرة، ويمدها نحوي علمت أن شيئًا ما يجب أن أقرأه وحدي..

حروف صغيرة.. سطور صغيرة تصلك قد تغير وتقلب حياة أشخاص.. وربما أمم بأكملها..

ألم يحدث هذا في التاريخ؟!

ألم تغير رسالة سيدنا سليمان، التي أرسلها لملكة سبأ تاريخ أمة وديانتها؟! فعلت رسالة ذلك.. حولتهم إلى مسلمين مؤمنين..

وهناك رسائل تصل لتشتعل بلاد وتسقط رؤوس.. ألم تفعل رسالة نقفور إلى هارون ذلك؟! أما جعلت هارون يغزو بلاد الروم، ويسقط آلاف القتلى؟! نعم حدث هذا في التاريخ، ومعي..

رسالة وصلتني أسقطت رأسي ورأس حياتي بأكملها.. هو التاريخ ذاته..

التاريخ الذي يعيد نفسه معنا، بعد أن نظن أنه لا يقوى علينا أبدًا..

كانت عيناي تتجولان على السطور في بلاهة، وأعيد قراءتها في بلاهة أكثر.. بقيت ساعات لا أفهم ولا أعي حرفًا..

رؤوف..

أنا زهرة.. أو هكذا يومًا كنت..

أغادر مصر في صباح الغد.. أتمنى لو أراك مرة واحدة، أو لحظة واحدة..

في بيت أمي أقيم، ولن أغادره قبل موعد السفر..

هل تأتي؟ وهل تقرأ رسالتي، قبل أن تحملني الطائرة نحو الرحلة الأخيرة؟!

هي أمنية امرأة تحتضر.. إلا أني أدرك جيدًا أن الاحتضار لا يوجب تحقق الأمنيات!!

***

نعم الاحتضار لا يوجب تحقق الأمنيات..

تبقى هناك أماني تتحقق؛ لتصبح أمنية العمر أن ننسى أنها تحققت.. قرأت السطور مئات المرات..

تارة كنت أضع تلك القصاصة في قلب مكتبي، وأتظاهر بالعمل ونسيانها.. ثم أعود لأقرأها من جديد..

زهرة.. هنا؟ للمرة الأخيرة..

من هي المرأة التي تحتضر؟! أمها.. هل مازال في جعبتها سر تريد الإفضاء به لي قبل رحيلها..

ما عادت تلك القصة تعنيني.. خيانة جدتي أصبحت ندبة مغلقة لجرح اندمل واندثر.. ما عدت حتى ناقمًا.. أنا لست مثلها، ولا أريد أن أنبش في قبر خطاياها.. لن أذهب..

وأحمل نفسي إلى مكتب شهيرة.. أضمها وأتمنى لو أخبرها عن زهرة.. أو تلك التي كانت زهرة كما قالت.. لكن ماذا أقول لها؟!

في لحظة، كنت أتمنى لو أصطحب شهيرة ونذهب إليها..

في لحظة كنت أتمنى لو أحكي أمام شهيرة وزهرة قصة جدتي، وتلك المرأة التي قد تكون عمتي، وأعلن أني من العقدة بزوجتي تحررت، وبدروس الأعوام والألم والسجن أفقت..

لكن ماذا لو كانت زهرة تريد مني شيئًا، تخجل من البوح به أمام زوجتي؟!

وأعود إلى مقعدي من جديد، وأخرج قصاصة الورق من جيبي؛ حيث كنت أنوي أن أمنحها لشهيرة لتقرأها وافتحها وأقرأ من جديد، ولا أصل أبدًا من سطورها إلى جديد..

أحادث بهاء على الهاتف، وأهم بإخباره.. وربما أصطحبه معي، فهو يحبها.. لكن أغلق الخط دون ذكر اسمها..

لماذا أبحث عن أحد يذهب معي لزيارتها؟!

كنت أزور أمل الأرملة الشابة في بيتها، وهي وحدها..

زهرة مع أمها وربما والدها.. من المستحيل أن يكون الرجل على رأس عمله في الإمارات مازال..

زهرة ليست أمل.. وأنا لست أبدًا مرتضى عبد الغفور..

مازال بيني وبينها جدار لا يهدم!!

لا يمكن أن أدعها تنتظر ولا أجيب نداءها..

ربما كانت بحاجة حقيقية لي..

مم الخوف؟! وعلام الخوف؟!

هي زوجة وأم، وتكرهني..

وأنا فوق الخطأ.. أنا عن الخطيئة محصن..

أنا.. رؤوف عبد الجواد!!

***

في التاسعة تقريبًا كنت على باب ذاك البيت، الذي دخلته مرة واحدة، دون علم زهرة.. ظننتني أنسى طريقه، أو تتعثر ذاكرتي في إيجاده ولو لحظات.. لكن كأني كنت أقطن الدار أعوامًا..

هناك بيوت إن زرناها مرة، يجب ألا نعود إليها أبدًا.. لكن ككل الحمقى، ظننت أني لن أموت على أعتاب بيت واحد مرتين.

في تردد، وشيء من الخوف، وحين أطلت المرأة التي تفتح الباب قلت:

- رؤوف عبد الجواد.. أريد لقاء السيدة زهرة..

في صمت، أفسحت لي الطريق، وأشارت بيدها إلى أحد المقاعد، وعلى المقعد ذاته، جلست وسمعتها تقول في ألم:

- أنا زهرة..

رفعت عينيَّ في جنون، لا أصدق أني أسمع صوتها ولم أعرفها..

وجدتها تبتسم ابتسامة صغيرة مريرة قائلة:

- ازددت أنت وسامة وشبابًا..

كانت تقاوم دمعة رقصت في عينيها، أشحت بوجهي، أنظر حولي هربًا من دمع غزير، شعرت به يغزو ماقي روحي..

كانت نحيلة حتى تكاد تظنها شبحًا لا امرأة.. ترتدي ثوبًا ورديًا رقيقًا، لكن عينيها كانتا غائرتين، حتى لا تكاد ترى منهما سوى ارتعاشة دمعها.. أسفل عينيها، كانت هناك هالات سوداء عميقة، تظهر من أسفلها عظمتا وجنتيها البارزتان في جنون.. لم أستطع أبدا أن أفهم، ولم أستطع أبدًا ألا أبكي وأنا أسأل:

- ماذا حدث؟! هل طفلك بخير؟!

رأيتها تنهض بصعوبة؛ لتعود بعد لحظات، وهي تحمل مجموعة من الصور، منحتها لي قائلة:

ما عاد رؤوف طفلًا.. انظر..

ما كان يعنيني أن أنظر.. ما كان يعنيني في تلك اللحظة شيء، سوى أن أعلم كيف أصبحت هذه زهرة؟! لكن ما استطعت رد أصابعها النحيلة المرتجفة..

هل تصدقين أن امرأة تصبح سمراء، بعد أن كانت يومًا في لون زهرة ياسمين؟!

تمنيت لو أصرخ وأقول: لستِ زهرة.. لكن هو صوتها.. هي أنفاسها.. روحها.. لم أنسها رغم يقيني زمنًا أني فعلت..

قلبت الصور، وأنا لا أرى وجه من تحدثت عنه.. كنت أفكر كيف أسألها، وهل حقًا تملك شيئًا يفسر ما تراه عيناي؟!

ابتعدت عني في خطواتها الهزيلة، تقول:

- سأعد لك شيئًا تشربه..

أمسكت بذراعها في رفق.. كنت حقًّا أشعر أني لو ضغطت على أقوى ما فيها، لسقطت قطعًا صغيرة..

نهضت عن مقعدي، وذراعها مازالت معلقة بين أصابعي قائلًا:

- لا أريد شيئًا أشربه.. أريد أن أفهم..

ابتسمت زهرتي القديمة، قائلة في تهكمها القديم:

- ظننتك أذكى.. يبدو أن الذكاء والوسامة لا يجتمعان..

بكت.. بكت في قوة، لا أصدق أن ذاك الجسد وتلك العينين الغائرتين يمكن البكاء بهما.. بكت وأنا أقف أمامها كالمجنون..

سمعتها تهمس:

- أخطأت أمي رحمها الله عندما أسمتني زهرة.. الأزهار عمرها قصير.. أنا أحتضر..

نعم.. ضممتها إلى صدري، كأني أضم أميمة أو ضياء.. من كانت تبكي في تلك اللحظة لم تكن امرأة.. كانت طيفًا ضعيفًا خائر القوى..

لم تقاوم.. ألقت برأسها على صدري، وارتفع نحيبها، وهدأ أكثر من مرة وشعرت أنها تكاد تسقط..
غادرت صدري، وجلست على أحد المقاعد، وقالت:
- تعرضت للعلاج الإشعاعي والكيماوي أكثر من عام.. لم يعد هناك شيء يفعله العلاج.. أخبروني أنها شهور.. رؤوف.. خدعت نفسي عند حضوري.. ادعيت إني أريد محاولة تحويل الشقة باسم وحيدي.. خدعتها أيضًا، عندما قلت إني أريد وداع أصدقائي.. تحية لم تعد تحيا في مصر.. هي في الإمارات منذ وفاة والدتي.. الحقيقة أني جئت أراك.. أريدك أن تعلم أني لم أكرهك لحظة، ولن أفعل..
كانت تتحدث ببطء وحنان، وكنت أسمعها في ذهول وألم، كما لم أتألم يومًا في عمري..
كيف أقبل أن تموت تلك الرائعة، حتى إن كانت هذه بقاياها؟! لا أريد لطفلها، أو من تقول إنه أصبح شابًا، أن يصبح يتيمها..
هناك أزهار لا يجب أن تموت، وقلت:
- زهرة.. هل يعارض زوجك إن سافرت بك إلى أي مكان في العالم للعلاج؟! زهرة لك في كل مليم من عملي ونجاحي نصيب..
عادت تبتسم في هدوء قائلة:
- أنا حاصلة على إقامة سويسرية.. هناك أحيا مع رؤوف.. تعرف تلك البلاد وتقدمها ورعايتها الطبية.. رؤوف.. جودة العلاج لا تضمن نجاحه.. أردت فقط أن تكتحل عيناي بأجمل ما في مصر، قبل أن أرحل عنها.. دعك من هذه القصة.. حدثني عن ضياء وعن شهيرة..
في ذهول.. سألتها كيف تعرفهما؟! تدلى رأسها على صدرها، لأرى كم أصبح شعرها باهتًا خفيفًا، وأجابت:
- بهاء يحكي لي عنك كل شيء.. غضبت، عندما أصبح يحب شهيرة.. لكن أحببتها بعدها كثيرًا.. أرجوك حدثني عن ضياء..
أي حديث وأي ضياء وأنا أرى امرأة كانت حلمي وأملي.. كانت أجمل فتاة.. أراها تموت وتودعني..
قلت أشياء لا أذكرها.. أو ربما لا وجود لها.. أخبرتني أنها مرضت في فترة سجني.. لكنها أبدًا لم تخبر بهاء حتى رأته منذ أيام؛ لتودعه هو الآخر..
حدثتني زهرة عن أشياء كثيرة عن وفاة أمها، وكيف كانت في لحظاتها الأخيرة، تطلب منها أن تغفر لها رفضها لزواجنا..
كانت الدموع تنبثق من عينيها الغائرتين، ثم تهدأ لحظات.. كأنها تبحث عن شيء آخر، يجب أن تقوله..
كنت تائهًا، لا أعلم ماذا أقول، أو ماذا أخفي؟!
سمعتها تقول كأنها تبتسم:
- أما عُدت تدخن؟!
أخبرتها أني مازلت أفعل، فقالت:
- كان زوجي يدخن، وكان تدخينه من أسباب خلافاتنا الكبرى.. كنت أكره رائحة سجائره، وكانت تقتلني الدهشة، وأنا أتذكر كيف كنت أتنفس دخان سجائرك في سعادة كبيرة..
هل لي أن أطلب منك شيئًا؟!
لم تنتظر أبدًا ردي، بل أكملت قائلة:
- أرجوك.. أشعل سيجارة..
كانت أصابعي ترتجف؛ لكني أشعلت إحدى سجائري واستعدت كلماتها الأخيرة قائلًا:
- كان زوجك.. لِمَ تقولين كان؟! هل حدث له شيء هو الآخر؟!
رأيتها تفتح شفتيها في هدوء، وتغمض عينيها كأنها تريد أن تبتلع ذاك الدخان، الذي يخرج من صدري، وقالت كأنها تسخر من نفسها:
- كأنها رائحة مسك.. نحن لا نكره أو نحب الأشياء.. أحيانًا نحب أو نكره الأشخاص الذين يفعلونها..
عدت أسألها:
- زهرة.. أين زوجك؟! كيف يتركك تأتين وحدك؟!

عادت تكمل في هدوء:

- ليس لي زوج.. أنجبت رؤوف على أرض سويسرا، وتم الطلاق بعدها بشهور.. كان جحيمًا أن يحيا معي، وكان ظلمًا أن أتركه يفعل..

حصل رؤوف على الجنسية، وأنا على إقامة وعمل كريم.. والده أيضًا ينفق عليه بكرم بالغ.. هو رجل رائع يا رؤوف.. خشيت ظلمه، وترفّع هو عن إرغامي على حياة لا أطيقها..

- هل تذكر يوم التقينا؟! كان قد مرّ على طلاقي أكثر من عام ونصف تقريبًا..

وقلت في ألم:

- كنت تكرهينني عندها..

ابتسمت زهرة قائلة:

- أدركت مؤخرًا أني كرهتك فقط لأني لم أعرف أبدًا كيف أكرهك!! لم أخبر بهاء أبدًا بطلاقي؛ خاصة بعد أن علمت أنك تزوجت.. كنت أصارع مبدأ أن أبقى أحبك، بعد كل ما حدث.. لكني أعلنتها له ولي يوم دخلت السجن.. دعوت لك كثيرًا يا رؤوف.. دعوت كما لم أدعُ لنفسي حتى بالشفاء..

تحدثنا طويلًا وبكينا وتمنيت لو أخبرها الحقيقة.. لكني ما استطعت، كل ما فعلته وأذكره أني تقدمت نحو مقعدها، وجلست أسفل ركبتيها، وقلت:

- زهرة.. أنا أيضًا أحببتك.. بقيت أعوامًا أتمنى لو تعلمين فقط كم أحببتك.. فراقنا كان له سبب أقوى من..

وضعت أصابعها المرتعشة على شفاهي قائلة:

- لا تقل شيئًا ما عاد يأتي من معرفته شيء.. أنت باقٍ.. لهذا أردتك أن تعرف أني لم أكرهك.. أنت رجل لا يُنسى.. أنا راحلة.. لا شيء تحكيه أو أعرفه يبقيني..

كنت أنظر إلى وجهها في جنون.. ابحث في رأسي، وفي دمي عن شيء أفعله ويعيدها كما كانت يومًا.. شيء في رأسي يرفض أن يصدق أنها زهرة.. وشيء آخر يرفض أن يتركها ترحل وتموت..

لم أشعر بكفي، وأنا أقترب بها من وجهها، وألمس وجنتيها الباردتين.. لم يكن الجو باردًا أبدًا ليكون وجهها بتلك البرودة.. رفعت كفي الأخرى، وأحطت وجهها بكلتا يديَّ.. لا أريد أكثر من تدفئتها، لكنها أغمضت عينيها، وقالت باكية:

- هل لك أن تعانقني؟!

هل أكذب وأدعي أني أشفقت عليها؟! هل أكذب وأدعي أنه ما كان من الممكن أن أرد لمحتضر أمنية؟!

أبدًا لم أشعر أني أشفق عليها.. لم أشعر أني أتفضل عليها.. أنا نسيت كل شيء على الأرض.. نسيت جدتي وجدها.. نسيت زوجتي ووحيدها.. نسيت نفسي وأوهامها..

كل ما كان في رأسي امرأة تموت.. وأريد عودتها إلى الحياة..

ضممتها وهي مازالت على مقعدها.. سقطت كورقة خريف ضعيفة على صدري..

سقطت كأنها طفلة صغيرة، أحكمت ذراعيَّ حولها، وأنا أردد أنها أبدًا لن تموت.. لن تموت..

كانت تبكي وتضحك وتردد:

- رؤوف.. ما استطعت الحياة مع رجل سواك.. أحياني غضبي منك معه شهورًا.. لم أستطع أبدًا أن أكون له.. ضُمَّني أكثر علَّني أموت دون ألم..

هكذا ضممتها.. وهكذا قبّلتها، وهكذا في نهاية الأمر أخذتها..

لا تسأليني كيف فعلتها وكيف هي فعلتها.. لا تسأليني فورب الأرض والسماء.. لا أذكر شيئًا سوى أني تسللت إلى جسدها كهاربٍ من رؤيتها، عندما لم يجد مكانًا يختبئ فيه منها اختبأ بداخلها..

لم تعترض.. لم تحاول حتى أن تبتعد بي.. ربما لو فعلت لأفاقتني وتوقفت.. ربما كانت أضعف من المقاومة، وربما كانت أضعف من رغبتها في أن تشعر أنها مازالت على قيد الحياة..

كان لقاءً قصيرًا باكيًا حانيًا.. لكنها هدأت، وهي تبكي في جنون، وتردد من جديد:

- ألا تذكر يومًا تزوجتني فيه، عند عودتنا من مدافن بلدتكم؟! هل تذكر ذاك اليوم؟!

نعم تزوجتها.. وربما يوم طلقتها لم يقع طلاقي فهي به لا تعلم.. هكذا صور لي الحب.. الضعف.. الحزن أو الشيطان.. لا أعلم.. لكنها في تلك اللحظات كانت زوجتي، وكنت زوجها، وحين هدأت أنفاسها الضعيفة اللاهثة، مسحت دمعًا كثيفًا، سقط على وجهها، وسمعتها تقول:

- ليست السجائر من تكرهها النساء وليس الجنس.. من يُدخن ومن يعانق وحده يصنع الفرق..

غابت على صدري، كأنها طفلة نامت على صدر أمها!!!

***

نامت زهرة وبقيت أرقب وجهها الغافي على صدري، وأنا لا أذكر شيئًا سوى أيامنا وأحلامنا القديمة..

عندما فتحت عينيها، شعرت بها كأنها أصبحت أجمل وأكثر توردًا.

كان على وجنتيها حمرة خجل، جعلتها تغمض عينيها، كأنها هي الأخرى لا تصدق ما حدث..

نهضتُ بها وحاولت كثيرًا أن أثنيها عن السفر.. لكنها أخبرتني أنه يوم سرقته من الحياة، قبل أن يسرقها الموت من الحياة نفسها.. أخبرتني أنها ستموت مع ولدها.. عندما أخبرتها أني سأزورها، وضعت أصابعها على كفي، وقالت:

- أعدك أن رؤوف سيرسل لك رسالة يخبرك برحيلي.. هذا اليوم لم يكن في حياتك.. لكنه كل حياتي.. هل تفهم؟!

لا.. لم أفهم أبدًا.. ربما لو فهمت، لأصبح في الأمر أمر غير الأمر..

قالت لي:

- عانقني للمرة الأخيرة..

عانقتها وسمعتها تقول، وهي على صدري:

- يجب أن تعود..

في ذهول، فتحت عيني على اتساعهما، أنظر إليها قائلًا:

- أعود.. إلى أين؟!

كأنها كانت ترى غيابي عن الأرض، ومن فيها.. ضمتني بضعف، قائلة:

- إلى الحياة.. كنتَ في زيارة قصيرة للموت..

***

لا أعلم كيف غادرت المنزل.. لا أذكر كيف أغلقت دوني الباب.. لا أذكر شيئًا سوى أنني وقفت على باب المبنى القديم، أنظر حولي.. من أنا؟! وأين؟! وإلى أين؟!

دقائق طويلة، تذكرت بعدها لون سيارتي ونوعها.. وبعد أن دخلتها، وأدرت محركها، سألت نفسي في ذهول «أين هو الطريق إلى المنصورية؟!»

كان الفجر وشيكًا على البزوغ، وكنت أظنها تمطر حتى أني أدرت كاسحات الأمطار على زجاج السيارة.. في البداية على سرعتها البطيئة حتى أقصى سرعة.. لا شيء يتغير.. هل تمطر بهذا الجنون؟!

لكنه ما كان الشتاء ولا كان المطر..

عيناي وحدهما كانتا تمطران..

لا أذكر كيف طويت الطريق.. لكن لا أذكر أيضًا أني فكرت في زهرة.. لم أكن أفكر في شيء أبدًا..

كنت فقط أحاول الوصول إلى البيت.. حين وصلت.. حين دخلت السيارة إلى حدائق البيت الداخلية، واقتربت من بيتي.. رأيت أشياء ضياء.. سيارته تلك ودراجته ودراجات ابنة زياد، أشياء كثيرة.. كنت أنظر إليها في ذهول كأني أراها للمرة الأولى..

صعدت ودخلت غرفتي.. وفي تلك اللحظة ارتطمت عيناي بوجه جميل مشرق، يسألني في لهفة:

- رؤوف.. كاد القلق يقتلني.. هل نسيت هاتفك؟! هل أنت بخير؟!

شهيرة.. زوجتي؟! أين كنت؟! ومن تركت إذن؟!

ضمتني في حنان، وعادت إلى الفراش، وهي تردد:

- سأنام وغدًا أعاتبك..

بقيت أرقبها كثيرًا، ودمع كثيف مازال يهطل من عينيّ.. هل حقًّا أبكي أم يخيل لي؟! وكيف لم تر شهيرة دمعي إذًا؟!

عدت بعد حمام سريع، أرتمي إلى جوارها، وأنا أحدق في وجهها وشعرها الغزير الملقى حول رأسها الجميل، بدأت أرى وجه زهرة وآهاتها الصغيرة بين ذراعي ودمعي، وأنا أحاول أن أسكب داخل جسدها شيئًا يحييها ويبقيها..

عدت أنظر إلى شهيرة في خجل كبير، وأقاوم خجلًا أكبر؛ لأني غادرت جسد امرأة تحتضر، دون حتى أن أصحبها إلى طائرتها في رحلتها الأخيرة..

أيهما أشفق عليها؟! أيهما أعتذر منها؟ وأيهما أخطأت حين عدت إليها؟!

لا أذكر أني وصلت إلى إجابة.. لكنني أمسكت كف شهيرة النائم، وكتمت صوت بكائي، وأنا أقول:

- هل حقًّا تفهمين؟!

***

وحدي كنت في مقر الأحرار في الصباح التالي.. كانت شهيرة في الجامعة تلقي محاضرتها الأسبوعية، ذهب والدي بصحبة سالم إلى زيارة أحد المساجد..

وحدي كنت خلف مكتبي، أجلس وأنا أحاول أن أفكر.. كنت أصرخ قائلًا «ركز قليلًا.. اهدأ.. فكر»..

لم يطل الوقت حتى عاد مدير مكتبي يدخل، وهو يحمل بين يديه ورقة وضعها على مكتبي، دون أن يقول كلمة واحدة.. لكن فهمت وفهم أني فهمت ما يعنيه..

في جنون، التقطت الورقة، وصحت قائلًا:

- علاء.. هذا البريد لم يعد من شأنك الدخول عليه.. سأغير الكلمة السرية.. أرسل إلى جميع العملاء ببريد آخر.. هل فهمت؟!

أرخى الرجل رأسه في هدوء، ولم يقل حرفًا، سوى أنه نظر في عينيّ نظرة، فيها عتاب صادق وألم كبير..

رؤوف:

عشت أعوامًا آمنت فيها أني أبدًا لست امرأة.. عشت أعوامًا أثق فيها أن لو ألف رجل هاجمني، ما استطاع الوصول من جسدي الميت البارد إلى شيء..

بالأمس بين ذراعيك، علمت أني رغم المرض والموت والاحتضار.. كان هناك دومًا وفي مكان ما أنثى.. رائع أن أموت، وأنا أعلم أني امرأة.. منذ ساعات.. عند خروجي من المطار، وعندما رآني رؤوف، صاح يضمني قائلًا:

«يا إلهي.. أنتِ متوردة.. ماذا فعلت بك مصر؟!»

بقوة سكبتها أنت في روحي ضممته، وأنا أخبره أن ما ورَّدني وأزهرني ليس أبدًا مصر، بل أحد سكانها.. لكني رأيت في عينيك شيئًا يقتلني..

رأيت فيهما شيئًا كالألم، وشيئًا كالندم..

إن كان ألمك على هجري يومًا لا تحزن.. والله ما غادرت زهرة لحظة واحدة..

وإن كان ندمًا على ما حدث بيننا بالأمس أيضًا لا تحزن.. يعلم ربي وربك أن لا أنا ولا أنت أردناه أو ظنناه يومًا يحدث..

لا تحزن أبدًا ولا تندم..

قل دومًا:

هي قطرات ماء، سكبتها على شفاه محتضر!!

***

أشعلت كلمات الرسالة في جسدي ورأسي وقلبي نارًا لا تهدأ.. أكره أن تظنني زهرة نادمًا على ما فعلت، وأكره أن أكذب وأدعي أني لست نادمًا..

أكره أن أعترف أني أردت جسدها، وأكره أن أقر أني لا أذكر من تفاصيل ما حدث شيئًا، كأنه لم يكن..

أكره أن أفعل ما أخبرتني به، وكيف أروي محتضرًا من ماء مسروق، لم يعد لي وحدي حق التصرف فيه..

أفكار سوداء شيطانية تلعب بكياني، لا أستطيع السيطرة عليها.. الرسالة واضحة وقرأها علاء..

ماذا لو أخبر شهيرة؟! كل من في الأحرار يحبها ويحترمها حتى الجنون.. أنا من يخبرها أولًا..

يكفي أن أمنحها الرسالتين..

لكن هل تتحول زهرة إلى قصة امرأة آثمة مريضة، أطلب لها من زوجتي الصفح على اقتسامها جسدي معها لحظات؟!

قد تلعنها شهيرة.. قد تصب عليها لعنات ودعاء، وهي الآن بحاجة إلى عفو السماء ورحمتها..

علاء لن يفعل.. لكن أنا من يجب أن يفعل..

ليست خيانة.. والله ليست خيانة..

هي شيء لا أعرفه.. لحظات لا أدركها..

يا رب.. أنر بصيرتي..

«يا رب».. ألم يحكم الرب برجمي حتى الموت؟!

زهرة ليست محصنة.. زهرة ميتة.. لكن أنا حي أرزق..

لو صفحت شهيرة.. لو فهمت.. ربما أهدأ..

لكن ماذا أقول؟! ولماذا؟! وماذا أريد؟!

أفكار سوداء بلهاء تجتاحني..

أريد السفر إلى زهرة.. لا أريدها أن تحتضر وحدها..

ماذا أريد؟!

أريد أن أتطهر من شيء، لا أراه رجسًا، ولا أستطيع أن أراه صوابًا..

سياط ملتهبة من أفكار مجنونة، ومخاوف كبيرة تجتاحني..

أيًّا كان الحدث، وأيًّا كانت الظروف والملابسات..

أنا كجدتي سقطت.. أنا كأمل ضعفت..

كان يكفي أن أضمها.. أن أحدثها، وأبث في روحها الأمل. لكن أنا لجهلي وحماقتي وغروري ما وجدت شيئًا سوى جسدي أتاجر به.. وهل نتصدق بأجسادنا؟!

خرجت من مكتبي، دون أن أعلم إلى أين أذهب.. لكن كان من المستحيل أن أبقى وحدي.. في طريقي رأيت علاء من على مكتبه، يرمقني بطرف عينيه، كأنه يتهمني.. ملعون هو علاء.. ملعون هو كل من يلوم أحدًا أو يحاسبه، أو يظن نفسه من سواه أفضل..

كلنا خطاءون.. كلنا ضعفاء..

في سيارتي تمنيت لو أصرخ وأمزق الكون من حولي؛ علَّني من جنوني أهدأ..

هل أذهب إلى شهيرة في الجامعة؟! ربما إلى بهاء..

ولكن كيف أخبر أحدهما أني مارست الحب مع امرأة تحتضر.. مع امرأة هي أنقى في عيني من أي كلمات في الجنس أو الشهوة..

هل يعاقبني الله؟!

على لعناتي لجدتي.. أو ربما لقسوتي ودناءتي مع أمل.. في لحظة قررت شيئًا.. أمل هي من يجب أن تصفح عني.. هو ذنبها..
حادثت «رأفت عوض»، الذي التحقت أمل بالعمل لديه، وأخبرته أني أريد زيارتها في مكتبه، ولم يمانع..
هي أول من يجب أن يصفح عني..!!

***

كنت أعد كلماتي التي سأقولها لها.. سأخبرها أني أحمق، يوم قسوت عليها.. لا أعلم ماذا أردت أن أخبرها.. لكن أعلم أن ماردًا ضخمًا كان يطبق على أنفاسي، يدعوني إلى الذهاب إليها..

ربما أردت أن أكون مع امرأة خانت رجلًا في طهر شهيرة؛ لأعلم أني لست وحدي.. أو ربما أردت أن أتحرر من كابوس وهمي أني خائن، وأن الخيانة ستقتلني.. أردت أن أرى بعيني أن أمل مازالت تحيا.. تعمل وربما تهوى رجالًا آخرين، وأني مازلت أفضل منها.. لم أكن أعلم.. لكن الآن أعلم أنه القدر..

القدر سيدتي هو من دفعني إليها دفعًا؛ ليحكم إغلاق أصابعه حول عنقي، ويصفي آخر حساباته معي....

انتفضت أمل، وهي تراني أدخل مكتبها، بينما وقفت أنا أرقبها في ذهول.. لم تكن أمل التي أعرف أبدًا..

كان شعرها مجموعًا فوق رأسها وملابسها رقيقة محتشمة، حتى نظرة الجوع والإثارة، التي كانت تسكن عينيها ما كانت هي.. في عينيها كان شيء كالألم..

وقفت أمامي، تسأل في صوت خفيض:

- حضرت لرؤية السيد رأفت؟!

كانت عيناي تركضان على وجهها في جنون..

متى تغيرت كل النساء اللاتي عرفتهن؟!

وأجبتها:

- حضرت لرؤيتك أنت..

رفعت عينيها لحظة، ثم أرختهما بسرعة، أمسكت بكفها بين أصابعي قائلًا:

- أمل.. لماذا لا تنظرين في وجهي؟!

هل عرفت هي الأخرى أني لست ذاك الفاضل، الذي أملى يومًا شروطه عليها، نظير نقود يلقيها في دربها، أو نظير عناق يمنحه ليتيمة صغيرة، كان والدها يومًا رفيق سجنه؟!

هل تخشى أن أرى في عينيها سخريتها مني، بعد أن أصبحت مثلها.. ليتني حقًّا مثلها..

أمل صغيرة.. ليست زوجة.. أمل ضعيفة فقيرة وحيدة.. أنا أكبر منها.. زوج قوي ثري.. ولكن زهرة ليست..

كل الأمور كانت تتداخل في رأسي، وأنا أقف أمامها.. كل المشاهد.. جميعها..

أمل وهي شبه عارية، يوم خرج من بيتها ذاك الدنيء، الذي لم أحاسبه واكتفيت بحساب امرأة صغيرة ضعيفة..

زهرة.. وهي بين ذراعي ودموعها تغسل وجنتيها.. من يعلم ربما كانت تتألم ولا تنتشي..

شهيرة.. وأنا أقبّلها في قوة، وأخبرها أننا لسنا ككل النساء والرجال..

كل الصور.. كل الحروف..

شعرت أني أكاد أقع، ويبدو أني كدت أفعل.. كانت أمل تمسك بذراعي، وهي تقول:

- رؤوف.. ما بك؟!

على المقعد، جلست وعدت أسألها:

- لم تجيبي عن السؤال.. لماذا لا تنظرين في وجهي؟!

جلست أمل على المقعد المقابل لي، وقالت:

- وكيف أنظر إليك؟! رؤوف.. أفقتني.. ذاك اليوم، حين صرخت تطلب مني، ألا أضع يدي عليك.. أفقتني..

يوم حادثني مرتضى، وصب سبابه ولعناته عليّ بعد زيارتك له أفقت.. كان قبلها يقبل قدمي.. كان يبكي عليهما، وهو يعلن ألا حياة له دوني..

بعته نفسي ومال طاهر وذخيرة أميمة.. بعته كل شيء بلا ثمن..

أنت أفقتني..

ما بك يا رؤوف؟! هل أنت بخير؟!

نظرت إلى وجهها.. جميلة وجوه النساء، إن هي من أوهامها أفاقت واغتسلت.. لم أعلم ماذا أقول، فأنا لم أعلم لِمَ ذهبت.. نهضت عن مكاني، ووضعت كفي على كتفيها قائلًا:

- أمل.. سامحيني..

يومًا قال طاهر: **«إن كنت مذنبًا تطهر، وإن كنت بريئًا تعلم»**..

كلنا نتعلم.. ولكن ليس كلنا يستطيع أن يتطهر.. أنتِ فعلتها.. سامحيني.. أرجوكِ!!

***

«يكاد المريب يقول خذوني»..

نعم.. أصبحت كالمجنون..

إن حادثني بهاء على الهاتف، سألته ماذا يريد؟! كأني أنتظر أن يخبرني أنه يعلم أو يتهمني، فأصيح لأدافع عن نفسي، وعن زهرة، وعن شهيرة.. أيضًا..

إن سألتني شهيرة.. هل أريد الخروج، ظننته تهكمًا، وإن سألتني إن كنت أريد النوم.. ظننته سخرية ومحاولة لمراقبة وجهي الآثم، وأنا إلى جوارها نائم..

أصبحت لا أطيق أن أختلي بها في شركة الأحرار..

إن جاءت مكتبي، تعللت بأي سبب لاستدعاء موظف يكون بيننا..

في كل مرة تضع يدها على مقبض الباب، وتدخل إلى مكتبي، أنتفض في جنون.. أخبرها علاء وجاءت تصب لعناتها وأسئلتها.. لن نفعل هذا في العمل أبدًا.. لن أدع هذا الصعلوك يظن أنه قلب حياتي، رأسًا على عقب، بإفشائه سرًّا قرأه بحكم عمله..

ولكن ربما لم يخبر شهيرة..

لابد وأن علاء أخبر الدكتور جبر عبد الكريم، استشاري الشئون القانونية، فهو خاله، وهو من أحضره للعمل لدينا..

جبر صديق والدي سيذهب إليه، ويخبره ليطلب منه أن يفيقني..

أنا أحترم جبر عبد الكريم، لكن ما عساني أقول إن جاء يواجهني، ويطلب مني الامتناع عن حماقتي..

زهرة ليست حماقة.. والله ما حدث بيننا ما كان، كما يحدث بين رجل وامرأة، سقطا تحت تأثير شهوة أو رغبة عابرة..

آه يا رؤوف.. هل هناك رجل وامرأة على الأرض يأثمان ويعترفان أنهما كسواهما من مئات الخائنين والخائنات؟!

سياط لهب مشتعلة، لا تكف عن رأسي أو جسدي أو قلبي لحظة.. أكتوي.. أصرخ وأتألم، وأبقى أحاول أن أعمل، وأبتسم متظاهرًا بألا شيء حدث..

بدأت شهيرة تطاردني بالأسئلة.. المرأة هي أول من يشتم بأنف أنوثتها تغير الرجل وتبدل حاله..

أصبحت تبكي كثيرًا، وترجوني أن أتحدث..

كم مرة هممت بالتحدث.. كم مرة في غرفتنا.. وفي فراشنا وضعت كفها الدافئة على كتفي، تحاول أن تأخذ رأسي على صدرها، وهي دامعة تردد السؤال ذاته:

«هل أنت بخير؟!»

لست بخير أبدًا.. وكيف أكون وأنا مقطوع اللسان، مبتور الروح؟!

كانت تحاول كثيرًا أن تضمني.. تقبلني.. وكان جسدي ينتفض بعيدًا عنها كلما حاولت..

يومًا ستعرف الحقيقة.. يومًا سأستجمع شجاعتي، وأخبرها بما حدث..

ليس من حقي أبدًا أن أضمها أو أمارس معها الحب، قبل أن تعرف أن زائرة بعيدة من الماضي جاءت، وإلى المجهول مضت، سكنت ذراعي وجسدي لحظات.

لكن أحيانًا تصبح هواجس المرأة فوق كل تصور وخيال..

في إحدى تلك الليالي المريرة التي تلت لقائي بزهرة، بكت شهيرة بجنون تسألني إن كنت مريضًا أو أصابني عجز ما..

صاحت في جنون ألا يعنيها أبدًا أن أمارس الحب معها أو لا أمارسه.. لكن يقتلها أن تراني أنتفض كلما وضعت كفها على جسدي، أو حاولت إلقاء رأسها على صدري..

كانت تبكي في ألم تذكرني بشهور الحمل البعيدة، عندما حرم علينا الأطباء لقاءنا.. كانت تبكي، وهي تصيح قائلة:

- رؤوف.. كنت تضمني.. كنتُ أمسح على رأسك وتمسح على جبهتي.. ماذا حدث؟! ما الذي تغير؟! ما الذي يقف بيني وبينك؟!

كنت أرقب دموعها المتطايرة بعيون مفتوحة، وأنا أسأل هل تعلم.. هل أخبرها علاء، وتحاول استخراج الاعتراف مني.. هل أعترف وبماذا أعترف وكيف أصف ما حدث وما دار..

لم أفعل يومها شيئًا.. تمنيت لو أضمها، وأضع رأسها، كما قالت على صدري، وأنتحب في بكاء أمرَّ من بكاء ابنة عزة الصغرى..

تمنيت لو أطلب منها أن تساعدني وتخبرني ما الذي حقًّا حدث وكيف انهار كل شيء، رغم أن كل شيء على حاله باق.. رفعت كفي أحاول الوصول إليها، فوجدتني أصرخ قائلًا:

- كفى.. كفاك جنون.. إلا أن أسابيع مرت دون عناق، فهذا يعني وجود كارثة!

ما عدنا مراهقين!!

***

تحولت ثوراتي وجنوني، مع مرور الأسابيع، إلى انكسار وبلادة، لم أعد أستطيع التحكم فيها..
أعمل في صمت، أنظر في عيني علاء، وموظفي الأحرار في تحدٍّ وتشكك كبير..
حتى ضياء وأميمة، كلما ضممتهما، أشعر باختناق، كأني أريد الفرار من أي ذراعين؛ خوفًا من أن أبكي وأعترف..
شهيرة أصبحت كالمجنونة.. تعبث في ملفات الشركة، وتحادث الصيدليات والأطباء، ظنًّا منها أن الأحرار سقطت في كارثة دوائية جديدة..
بهاء.. كان هو الآخر منكسرًا، وكيف لا ينكسر وزهرة أخبرتني أنها زارته..
أي مخلوق أو حجر أصم على الأرض، رآها بعد أن عرفها يوم كانت، ولا ينشطر نصفين؟!
أصبح مرور الأيام يخيفني.. أصبحت أترقب وصول خبر رحيلها وأصبحت أفكر في أمور أخرى كثيرة..
هل أتركها إن ماتت تدفن في أرض سويسرا الباردة؟!
من يزور قبرها؟! من يضع عليه عصفور الجنة الذي تحبه؟!
أرسلت على بريدها الإليكتروني رسائل كثيرة.. لكن وصلتني تقريرات تخبرني أن حسابها أغلق وإلى الأبد..
أغلقته زهرة؛ لأنها لا تريد أن أراسلها..
هي كما قالت: «زيارة قصيرة للموت، وانتهت».
أبدًا ما انتهت..
الموت زياراته ليست قصيرة أبدًا..

***

جاءت حُسن تزورني في مكتبي، حينما جلست أمامي، ونظرت إلى ثوبها الأسود وأصابعها المتشابكة، أرخيت عينيّ في انكسار، أسأل ما الذي تراه أحضرها..

كانت كعادتها رقيقة جميلة، كأنك معها في حضرة ملاك من السماء.. سمعتها تقول في هدوء:

- ماذا أصابك؟! أمل أخبرتني منذ أسابيع أن أميمة لا تكف عن الحديث عنك، وكم أصبحت عصبيًّا حزينًا.. رؤوف.. لك علينا جميعًا أيادٍ بيضاء.. أكره أن أعلم أنك تتألم، ولا أحاول أن أفعل شيئًا..

كنت أرقب باب مكتبي في خوف.. ربما علمت شهيرة بوجودها.. ربما ظنت أني على علاقة بها.. أو ربما ظن علاء أن هذه هي من أرسلت الرسائل، التي قرأها.. كل الشكوك عادت تشتعل في رأسي، رغم أني ظننته كفَّ عن التفكير وتوقف..

كان صوت حُسن حانيًا هادئًا، وأنا رغم ثوراتي وانكساراتي، كنت إلى الحنو أهفو.. هناك على صدري صخرة كبيرة، أريد التحرر منها، فلم لا أفعل مع حُسن.. ربما هدأت.. ربما تحررت..

وعادت حُسن تقول، ودمعتها الراقصة في عينيها تتوسلان إليّ:

- هل أنت بخير؟! زوجتك.. ابنك..

أعلم أنهم جميعًا يتألمون من أجلي..

أمل وحُسن.. أميمة وشهيرة.. لكن أنا أيضًا من أجلهم على سر تلك الليلة أغلق صدري..

قلت في هدوء:

- أتألم يا حُسن.. أتألم كثيرًا..

لم أصدق أبدًا ما رأته عيناي تلك اللحظة..

لم أصدق أبدًا أن دمعتها العنيدة فارقت عينيها، رأيتها تبكي للمرة الأولى.. كأن عينيها اغتسلتا لتظهرا من خلف دمعاتها أكثر جمالًا ولهفةً وحنانًا.. عادت تقول في صدق:

- فديتك عمري.. كلنا نتألم، وحدك محوت آلامنا..

رؤوف أعدت إلى أميمة طاهر، وأعدت إلى أمها طهرها، وخلصتها من ذاك الذي لوثها ولوث زوجها.. ألا يخفف عنك هذا؟! انظر جيدًا إليّ.. أنا أصبحت أكثر ثقة وأملًا في الأرض وسكانها.. أشعر أنك معي، ولن تخذلني.. والله أصبحت عنك أحدث أبنائي..

تمنيت لو أخبرها.. تمنيت لو أعترف لها، وأطلب مشورتها، أو ربما طلبت منها أن تتحدث إلى شهيرة، وتخبرها ما يعجز لساني عن إعلانه، وتعجز روحي عن نسيانه..

لكن أي جنون؟! هل أرسل امرأة، لتخبر امرأة أن زوجها ضاجع امرأة كانت تموت بين ذراعيه؟!

تألمت أكثر من أفكاري، عدت أنظر إليها، ودمعاتها تنساب في حنان على وجنتيها، وقلت:

- هل تظنين رؤوف يخطئ؟!

ابتسامة صغيرة لاحت على ذاك الوجه الجميل، وبعد لحظات من الألم، قالت:

- كلنا خطاؤون.. يا رؤوف الله يعفو عن الأنقياء، ويستر عليهم؛ لأنه يعلم أن حسابهم مع أنفسهم أقسى وأمر..

بعد رحيل نديم.. ظننت أن رجلًا لن يسكن قلبي، أو يمس جسدي، أو تتحرك له روحي.. لكني أحببت وليس مرة بل مرتين.. أحيانًا ألعن نفسي.. ولكن لِمَ أفعل وهو شيء فوق إرادتي، ويحدث رغمًا عني.. لا تجلد نفسك رؤوف.. من أجل كل هؤلاء، الذين تعينهم على الحياة لا تفعل..

نظرت إلى عينيّ في تردد، كأنها تتمنى أن تسأل ما الذي فعلته، وتتمنى ألا أجيب..

في هدوء، سألتها:

أحببت مرتين؟! أما زلتِ تحبين نديم؟!

أغمضت حُسن عينيها في ألم.. كأنها فهمت ما أتمنى الاعتراف به، ثم قالت:

- هو الآن أكثر من يعلم أني وإن أحببت، فهو مازال حبيبي.. اغفر لنفسك لتغفر لك ذنوبك.. انسها لتنساك.. أرجوك..

ذنبي كبير، لن أستطيع البوح لها.. حُسن أجمل من أن أراني أسقط من عينيها.. مازال لهذه المرأة في قلبي شيء يريدني أن أبقى رجلًا دون ذنوب.. ابتسمت حُسن، كأنها قرأت في عيني شيئًا تريده، وعادت تقول:

- الحب كالاستغفار يغسل الذنوب.. هل تعلم ما الذي طهَّر أمل؟! أمل تحبك.. أخبرك، وأنا مطمئنة؛ لأني أعلم كيف تنظر إلى زوجة طاهر وأم أميمة.. لكن أريدك أن تعلم أن حبها لك طهَّرها..

أذهلتني الكلمات.. ربما.. ولكن ما علمت ماذا أقول، ووجدتها تنهض عن مكانها في هدوء، ومن خلف مكتبي صافحتني قائلة:

- الحب ليس خطيئة ولا خيانة.. الخطيئة هي تلك التي نعد لها ونستعد.. تلك التي نكررها ونعيدها بوعينا وإرادتنا.. تلك التي يكشفها الله لكل الناس.. كن بنفسك رحيمًا.

أنا أيضًا أحبك كثيرًا!!

***

ما الذي أحضر حُسن ذاك الصباح؟! وما الذي أرادت الوصول إليه من كل ما قالته؟! إن كانت أرادت أن تشغل رأسي عن أفكاره السوداء المجنونة، التي علمت من خلال أمل وأميمة أنها تعكر صفو أيامي، فقد نجحت بعض الشيء..

بقيت ليالي طويلة أفكر في كلماتها..

لم أفكر أبدًا في حب أمل الذي أخبرتني عنه.. ولم أفكر حتى في حبها الذي شعرت أنها تريد إعلانه لي..

بقيت ليالي طويلة، أفكر في تعريفها للخيانة والخطيئة..

الخيانة هي ما نعد لها ونخطط له.. الخيانة هي ما نستمرئ حدوثه ولا تلومنا عليه أرواحنا..

الخيانة هي ما يفضح الله سرها ويهتك أمرها..

سترني الله، ومرت تلك الليلة منذ زمن.. مرت دون حتى أن أستطيع استعادة ملامحها بوضوح..

والله مازلت أقسم أني لا أذكر، من تلك اللحظات، سوى وجه زهرة، وأنا بين ذراعيها، غارق في دموعه..

كنت أحاول أن أمحو دموعها بشفاهي؛ لأجد وجهها غارقًا في دمع جديد.. رغم طيف الابتسامة الذي ما فارق وجهها أبدًا حتى هدأت على ذراعيّ.. مازلت لا أذكر أكان ذاك الدمع من عينيها، أم من سقوط دمعي أنا على وجهها..

والله ما أردت أن ألمس جسدها، ولا أظنها أرادت.. كنت من فكرة موتها أرتعد خوفًا، وأعلم أنها بخوفها أكثر مني ارتعادًا وانتفاضًا..

كنا كأحمقين في الخطر، غرقا وظنا أن الحب قد ينجيهما منه أو ينسيهما انتظار الهلاك..

بقيت ليالي طويلة أحاور نفسي وأهدئها..

الليلة مضت، وليالي العمر الآتية كلها ستمضي دون زهرة..

أحب شهيرة وأشتاقها، وكلما غفت إلى جواري في كل ليلة بعدها، أشتهي لو أقبلها وتأخذني.. لكن بقيت لا أستطيع..

في ليال عديدة، كانت تحاول معي، وأغمض عيني كأني قررت الاستسلام لشيء أكثر منها، أريده وأشتاقه.. لكن كلما أغمضت عينيّ، أطلّت بداخلهما عينا زهرة الغارقتان في دمعي ودمعها.. ألم كالسكين يشق صدري..

ألم كسيف شرقي حاد، يقطع رأس شهوتي، ويذبح إشفاقي على لهفة شهيرة وتمزقها بين ذراعي..

أربت عليها في هدوء، وأستدير بعيدًا عنها في ألم وعجز، أبكي في صمت؛ حتى تنام هي في ذل وحيرة..

كنت أعلم أن ما يبكيها إلى جواري، ليس حرمانها مني، لكن رفضي لها.. ما كانت تعلم أني أتمناها، ولكن عن سكناها ألف سيف حاد يشطرني.. حتى جاءت تلك الليلة..

سقطت في النوم، وشهيرة إلى جواري.. رأيت في نومي زهرة تموت.. رأيتها تطلب عناقي.. رأيتني سيدتي أقترب منها، وكل قطعة في جسدي تريدها...

في تلك اللحظة، فتحت عينيّ، وأنا أهمس في جنون بكلمة «لا»..

انتفضت شهيرة، تستدير نحوي، وعيونها تفيض بالخوف والحب..

علمت أني كنت أحلم وعلمت أني قلت لا لزهرة؛ لأني أبدًا لا أريد لجسدي سوى زوجتي..

في جنون، ضممت شهيرة إلى صدري؛ وقلت باكيًا:

- أنا أحبك.. وحدك..

كانت تبتعد عن صدري، وهي تبكي، ثم تعود إليه من جديد، وتبكي أكثر.. كنت أعلم أنها تتمنى أن تقول وتسأل.. لكنها تخشى أن أكرر جنوني وصدي ككل ليلة..

كانت تبكي بكاءً مريرًا على صدري، وكنت كلما ابتعدت عنه، أعود بها إليه.. أنا من يريد أن يحتمي بها لو تعلم..

ابتعدت شهيرة عن صدري، ونظرت في وجهي، كأنها تتوسل إليّ قائلة:

- قبّلني يا رؤوف.. أرجوك..

سيدة رؤوف وسيدة قلبه ترجوه قُبلة..

آهٍ لو تعلم..

قبلتها.. قبلتها في جنون وقسوة.. كانت تبكي، وكنت معها أبكي.. في لحظة كانت عارية بين ذراعي وكنا مازلنا نبكي..

أخذتني شهيرة واستجاب لها جسدي.. لكن في تلك اللحظات، وعندما لامست وجنتاي وجنتيها المبللتين بدمعها، شعرت أنها زهرة، وأن الدمع هو ذاك الدمع، وأن الجسد هو ذاك الجسد..

انتفضت في جنون، لا أعلم عن أي جسد فيهما ابتعد، وصحت:

- لا أستطيع..

نعم.. لا أستطيع أن أفعل، كنت أشعر أن بقايا امرأة أخرى، مازالت على جلدي وأنفاسي..

انفجرت كلغم، طال انتظاره تحت الأتربة.. لا أعلم ماذا قلت أو بماذا صرحت.. لكني أخبرتها أني ضاجعت امرأة أخرى.. وعدت أقول لها ليست امرأة.. هي سيدة تموت، ثم عدت أبكي، وأنا أقول إنها كانت يومًا زوجتي.. حبيبتي.. لا أعلم.. والله لا أذكر شيئًا مما قلت..

لكن أذكر بوضوح جسد شهيرة العاري، وهو ينتفض، كأنه يتلوى تحت ألف سوط غضب، وألف سوط ألم وحزن وسخط..

جفت عيناها من الدمع، جحظتا حتى ظننتني أمد يدي، وأعيدهما إلى مكانيهما.. لا أعلم كم حاولت أن أصل إلى كفها.. كم تمنيت لو تفهمني.. لو تسمعني أو لو أني حتى أستطيع الحديث..

غابت بعيدًا، وعادت وأنا مصلوب على فراشنا.. لا أفهم شيئًا.. عادت تفتح خزانة ملابسنا، وهي ترتدي كامل ملابسها..

ما ترتديه يقول إنها في طريقها إلى خارج البيت.. هل تتركني؟! هل ترحل؟!

نهضت إليها، أمسكت بذراعها، رجوتها أن تفهم.. رجوتها أن تساعدني لأحكي لها القصة.. لكن شهيرة ابتسمت سيدتي وأخبرتني في جنون أنها على استعداد، لأن تسمع القصة، وعلى استعداد للبقاء.. بل قالت في قسوة لا أنساها إنها على استعداد لأن تخلع ملابسها، وتكمل ممارسة الحب معي فقط إن أجبتها عن سؤال واحد..

«لماذا؟!»

***

لماذا نحب.. ولماذا نخون.. لماذا نعترف.. ولماذا نندم.. لماذا نقسو.. لماذا نصفح.. ولماذا لا نفعل؟!

لماذا؟!

لأننا إنسان.. لأن لنا لحظات ضعفٍ، ولأن لنا ضميرًا.. لأن لنا خالقًا يغفر الذنوب جميعًا.. لكنه خلقنا لبعضنا.. لا ننسى ولا نغفر..

رحلت شهيرة وتركتني..

في لحظة، شعرت أني وحدي.. نظرت حولي، رأيت جدران غرفتنا تبكي وتلطم وجهها.. أغمضت عينيّ في ألم، وأمسكت بأغطية فراشنا بين قبضتي فوجدت ملابس شهيرة، التي خلعتها، وهي بين ذراعيّ..

ضممت قميصها بين أصابعي وبكيت..

لن تعود.. شهيرة لن تعود.. لا شيء أبدًا يعيدها، أو يعيدني كما كنا..

كلمات نقولها.. حروف تخرج من أفواهنا.. تقتل عشقًا، وتبيد تاريخًا، وتلون قلوبًا بالكراهية والألم..

انثنيت على فراشي بجسدي العاري، أتحسس موضع شهيرة، ورأيت وجه زهرة..

ابتسمت في مرارة..

زهرة قررت ألا تموت وحدها..

***

أفقت على طرقات عنيفة على باب غرفتي..

كان والدي وصل الأحرار، وكان لدينا وفد قادم من ألمانيا، وقارب موعد الاجتماع..

ارتديت ملابسي على عجل، وذهبت..

كثيرة هي الأيام، التي كنت أخرج فيها من البيت، دون وجود شهيرة.. هي تستيقظ أحيانًا مع ضياء ومربيته؛ حتى يستقل الباص إلى مدرسته، ثم تذهب إلى الجامعة أو إلى الأحرار، مع السائق قبلي أو بعدي، ولا نلتقي إلا هناك.. لكن أن أصحو وأرتدي ملابسي وأقود سيارتي، وأنا أعلم أنها ما عادت في حياتي.. فهذا شيء آخر.. هل تعلمين شعور من نراهم يخطون على سطح الفضاء، حيث لا جاذبية؟! أنا أيضًا لا أعرف..لكن ذاك الصباح عرفت ما هو أسوأ.. عرفت كيف أكون على الأرض أسير، ورغم هذا أشعر أني في الفراغ أحيا..

كل الأصوات لا صوت لها.. كل الألوان لا لون لها، سوى لون الفراق.. ضياء كان بصحبة عزة وبنتيها، في إحدى قرى الساحل الشمالي..

حادثني في الصباح، يسأل هو وعزة عن شهيرة، ولم لا تجيب على هاتفها.. لا أعلم ماذا قلت.. لكن أعلم أن ضياء ذبحني، عندما قال: «أين ماما؟!».

كنت في السيارة نحو الشركة أقود.. حين نظرت من زجاجها نحو شوارع القاهرة، وأنا أكاد أصيح..

«أين شهيرة؟!».

تظنين أن الألم ألا نعلم أين من نحب؟!

أبدًا.. الألم كل الألم أن نعلم أين هم.. ولكن ندرك أننا وحدنا، وبأخطائنا حرّمنا على أنفسنا لقاءهم!!

في الشركة، وبعد الاجتماع، قال والدي في هدوء:

- أين شهيرة؟ ليس يوم محاضرات.. أين هي؟!

نظرت إليه هو الآخر في ألم.. كأنهم جميعًا يعلمون أني أنا من حملتها بعيدًا عنهم!!

لم أُجب الرجل الذي ما ظننته يومًا يهوى امرأة، أو يسأل عنها، كما يفعل مع امرأة ولدتُ على حبها، وماتت على خيانتي!!

عاد يضع كفه المرتعشة على كفي، وهو يقول بكلماته الثقيلة، التي باتت أكثر وضوحًا..

- شيء حدث.. رؤوف.. أين شهيرة؟!

***

تمضي الأيام ونحن قتلى.. تمضي ونحن منحورون..
انتهى اليوم.. لكن لم أستطع أبدًا العودة إلى البيت..
إلى بهاء ذهبت.. بمفتاح بيته الذي أحمله مع مفاتيحي دخلت..
بباب مطبخه، وقفت أرقبه..
منذ زيارة زهرة لنا معًا منذ شهرين تقريبًا، ونحن لقاءاتنا قليلة، وأحاديثنا صغيرة.. كأن كلاًّ منا يلوم الآخر على صمته وتكتمه على ظهورها!!
تبادلنا ابتسامة صغيرة مريرة، قال بعدها:
- إن كانت شهيرة معك أضاعف الكمية.. أعلم أن ضياء مع عزة في الساحل الشمالي..
لم أرد.. وقفت أرقبه، في صمت، وعاد يصيح مناديًا شهيرة..
اقتربت منه، وأطفأت موقد الغاز قائلًا:
- بهاء.. أنا قتلت شهيرة!!
هل تعلمين ماذا قال بهاء، عندما قصصت القصة عليه؟! كان يبكي، وهو يقول:
- توسلت إليها أن تلقاك هنا.. لم أستطع أبدًا أن أطلب منها عدم رؤيتك وهي ما جاءت كل هذه المسافة، وهي تحتضر إلا لتراك.. ضعيفة زهرة يا رؤوف.. لا ألومها، فكيف ألوم شهيرة؟!
كنتُ أتلوى من الألم، وهو يتحدث عن زهرة.. كنت أتمزق من الخوف، وأنا أستعيد حقيقة خروج شهيرة من حياتي.. صحت أسأله في جنون:
- لماذا أخبرت شهيرة؟! لماذا يا بهاء؟! أكتم أسرار الناس أجمعين، وأفضح سري وأمزق قلبها..
بعد لحظات، قال وهو يبكي:
لأنك طيب.. نقي.. لأنه الحب.. لأنك يا صديقي لست خائنًا..
الخائن الحقيقي يكذب.. يطمس الحقيقة يدفنها، كأن شيئًا لم يكن.. لست خائنًا يا رؤوف..
سأذهب إلى شهيرة.. الآن أذْهَب إليها.. الجنون أن نتركها وحدها هناك، يلوكها الندم وتفترسها الأسئلة..
حين نهض، ونهضت أنا، أمسك بيدي قائلًا:
- رؤوف.. ما ذهابي إليها لتصفح عنك.. أريدها عن حبها لك وجنونها بك أن تغفر!!

***

مررت بوالدي في غرفته عند عودتي..

حين ترك لنا ممرضه الغرفة، عاد يسألني السؤال ذاته: «أين شهيرة؟» انثنيت أقبل كفه، وقلت:

- غاضبة هي مني.. أظنها في بيت والدها تقضي أيامًا.. قد تعود عند عودة ضياء..

كان في عينيه شيء كالدمع، وهو يقول:

- هناك نساء هن الحياة.. زوجتك إحداهن يا رؤوف.. لا تغضبها، فوربك وربي.. وحدها هذه المرأة محت عن قلبي الغضب من نساء الأرض.. اتركها تهدأ.. لكن لا تتركها أبدًا تألف الغياب!!

***

قالها توفيق عبد الجواد.. «هناك نساء هن الحياة».. لم أنم ولم أستيقظ.. لم أبك ولم أهدأ..
تجولت بأصابعي على ملابسها، التي تركتها قطعة قطعة..
تجولت برأسي على أيامنا التي عشناها يومًا يومًا..
ووقفت عيني على مشهد النهاية في فراشنا..
كيف نحرتُ قلبها، وعلى نبضه أحيا، ويحيا والدي وولدها وأميمة وعزة وبنتاها؟!
آهٍ لو ترى كيف أنا ميت دونها..
ما تراه قال لها بهاء؟! وما تراها قالت عني؟! في مكان نومها، وضعت جسدي، وتحسست كتابًا، كانت تقرؤه قبل النوم..
أمسكت بالكتاب، وضممته إلى صدري، وحين فتحته وجدت ورقة مطوية..
فتحتها، وجدت كلماتها تقول:

سيدتي نور:

من الجنون أن أظن أنك تذكرينني.. لكن لا أملك سوى هذا الأمل..

أثق فيك وأحبك وأطلب مشورتك..

زوجي يضيع مني..

على الأرض ملايين الأزواج.. لكن هذا الرجل غيرهم جميعًا.. هو تائه.. ممزق، وأتمنى لو أجد طريقة أخبره بها أن الأرض بأكملها لا تعنيني ولا يعنيني منها سواه..

لا أجد غيرك أكتب له؛ لأنه لا غيرك أثق فيه!!

***

قرأت الرسالة كثيرًا وتألمت فوق الألم وفوق البكاء..

بتلك الورقة خرجت من بيت المنصورية وجئت هنا.. جئت إلى جزيرة الذهب.. إلى بيت الجزيرة.. البيت الذي شهد أجمل وأنقى قصة حب.

أضعت شهيرة.. جرحتها.. ذبحتها..

نعم ربما.. لكني والله وأنا أمام شمس الشروق علمت أني ما خنتها.. ما حدث مع زهرة هو شيء لا أعرفه.. شيء لم يكن فيه جوع جسد أو اشتهاء رجل..

كان شيئًا حزينًا شجيًّا باكيًا كأنه وداع لقصة لا شئت أنا ولا شاءت هي أن تموت بيد امرأة ماتت، وهي لا تعلم أننا على الأرض يومًا سنولد ونلتقي..

شهيرة تحبك.. تصدق كلماتك وتثق فيها.. لن أنسى أبدًا سعادتها يوم التقيتما كأنها طفلة سقطت على كوكب من الحلوى..

فليصنع بهاء ما شاء معها.. أنا أغلقت هاتفي وقررت الكتابة إليكِ أنت..

من أجل حبها لكِ.. من أجل ثقتها فيك.

من أجل طاهر وهدان صديقك الذي علمني حبك وأخبرني عنك..

من أجل أميمة التي تمنى لو يوصيك بها يومًا..

من أجل ضياء الذي يذبحني أن يعود ويسألني من جديد: «أين هي أمي؟!»..

من أجل والدي الذي فقد ابنًا ويكاد يفقد الثاني عقله وتبقى شهيرة وحدها أمله..

من أجل زهرة التي تحتضر.. لا أريد لها ذنبًا فوق ذنوبها..

من أجل القلم الذي تحملينه في يدك والذي يومًا كتبت عنه تقولين:

«إن لم يعلمنا القلم الحب والصفح فأي معنى للأدب والأدباء يبقى؟!»..

من أجل رسالتك ورسالتي ورسالتها التي لم ترسلها إليك.

من أجل كل شيء وأي شيء.. افعلي شيئًا..

إن كانت تكرهني لا أمانع..

إن كانت تلعنني أستحق اللعنات..

إن كانت تريد إيلامي والانتقام مني، اخبريها أن تأتي وتضع في صدري ألف سكين..

فلتفعل ما شاءت.. لكن أخبريها ألا تظن لحظة أني ما أحببتها، أو أني شئت خيانتها.. أو حتى بالخيانة شعرت أو استمتعت..

أخبريها أن اليوم بعدها دهر.. وأن الحياة دونها موت!!

أستحلفك بروح طاهر.. وبرأس قلمك.. ساعديها وافعلي شيئًا!!

تمت

وكان لشهيرة قصة.. بعنوان

أنا شهيرة

إصدارات أخرى:

1- ديوان «وعادت سندريلا حافية القدمين» ..

2- رواية «الحرمان الكبير» .. الدار العربية للعلوم ..

3- رواية «نساء ولكن» .. الدار العربية للعلوم ..

4- رواية «رغم الفراق» .. مكتبة الدار العربية للكتاب ..

5- رواية «أريد رجلًا» .. دار الساقي..

6- رواية «أحلام ممنوعة» .. مكتبة الدار العربية للكتاب ..

7- رواية «أنا شهيرة» .. الدار المصرية اللبنانية..

للتواصل:
Website: www.noorabdulmajeed.com
Facebook page: Noor- Abdulmajeed
Twitter: @noorabdulmajeed. com
E.mail: noor4corners@yahoo.com